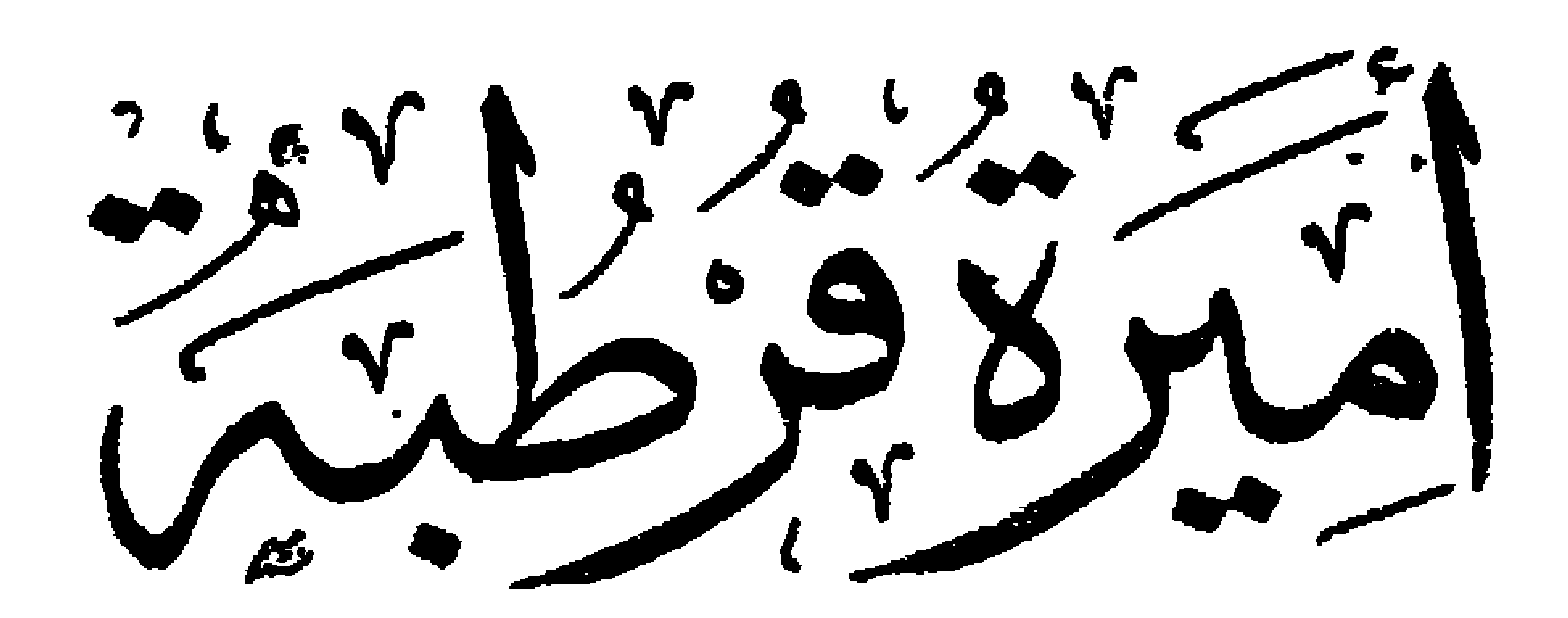

أميرة قرطبة
عبد الحميد جودة السحار

مطبوعات مكتبة مصر



أميرة قرطبة

تأليف

عبد الحميد جودة السحار

الناشر : مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي "الفجالة"

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه
٣٧ شارع كامل صدقي - الفجالة

١

كانت قرطبة تموج بالناس موجا ، يتدافعون تدافع السيل إلى ميدان قصر الزهراء ، فقد أقبلوا من كل حدب وصوب يبايعون الحكم المستنصر بالله خليفة على الأندلس ، بعد موت أبيه عبد الرحمن الناصر . الذى وطد دعائم الملك على المحبة والعدل .

وتدفقت جموع الناس فى طرقات القصر ، يرتدون البياض حزناً على خليفتهم الراحل العظيم ، إذ كانوا يتخذون البياض للحداد ، كأنما استعاروا ذلك من اشتعال الرأس شيباً حزناً على فقد الشباب .

وراحت الجماهير تنساب بين صفوف الجند والعبيد والرماة ، وكانوا يصطفون موكباً إثر موكب ، حتى إذا بلغوا القصر الهائل العجيب ، راحوا يشقون طريقهم وسط آلاف الجنود الرجالة والرماة والفتيان الأشداء ، عليهم دروعهم ، شاهرين سيوفهم ، تتألق ببريق يخطف الأبصار ، ويسكن الرهبة فى القلوب .

انطلقت الجماهير فى القصر بين التراس الملونة ، والأسلحة المزينة ، حتى أشرفوا على السطح الممرد فجنحوا إلى الصمت ، ومدوا أبصارهم تغشاهم روعة وجلال ؛ فقد كان الحكم قاعداً على سرير الملك وقوراً مهيباً ، وقد قعد إخوته ووزراؤه ووجوه قومه عن يمينه وشماله ، واصطف أكابر الفتيان يميناً وشمالا عليهم البرانس البيض يتقلدون فوقها السيوف ؛ فكان مشهداً رائعاً فريداً يهز القلوب ويأخذ بالألباب .

وقام وزير من وزرائه بأخذ البيعة على الناس ، فجعل يقرأ البيعة فى صوت جهورى أخاذ . والناس ينصتون خاشعين . ثم طفق يقرأ المواثيق والناس يرددون ما يقول فى حرارة ، فقد كانوا يبايعون عن رضا وإخلاص ، فهم أحبوا الحكم يوم كان ولياً للعهد ، وعرفوه فارساً صنديداً ، قاتل الإفرنج حتى دوخهم وأذلهم ، ومرغ أنوفهم فى الرغام .

وصمت الوزير وصمت الناس ، فساد المكان سكون رهيب ، وأذن للناس بالانصراف ، فانطلق سيلهم الجارف يتدفق من أبواب القصر ، وينساب فى مسارب قرطبة العظيمة ، عروس الأندلس وحاضرة البلاد .

ثم قام الحكم ، فنهض إخوته ووزراؤه وقضاته وقواده ووجوه الناس ، وسار حيث كان جثمان الناصر ، وهم خلفه خاشعون ، ووقفوا ينظرون إلى الخليفة الراحل وهو مدرج فى أكفانه ، فسرت فى قلوبهم رهبة ، وطأطئوا رءوسهم حسرة . ثم احتمل جســد عبد الرحمن ، وتحركت الجنازة فى جــلال ، وانطلق الجميع مقطبين إلى قصر قرطبة ، ليقبروا فى تربة الخلفاء الراحل العظيم .

٢

كان الجو رائقاً لطيفاً ، يعبق بأريج حلو يبعث من حدائق قصر الزهراء ، وميدان القصر الفسيح منسقاً تنسيقاً بديعاً يأخذ بالألباب ، وطلاب العلم يقطعونه فى غدوهم ورواحهم إلى جامع قرطبة العظيم ، فخر الأندلس وباعث نهضتها .

وجلس محمد بن أبى عامر فى حانوت صغير تجاه القصر : وهو شاب فى الثالثة والعشرين من عمره ، يحرر للناس شكاواهم ، وينمق لهم مظالمهم ، وكان جميل الصورة ، حلو التقاطيع ذا شخصية جذابة ، يأسر الناس بلطفه ، ويكسب ثقتهم من أول وهلة : وكان أسلافه من قبيلة بنى معاذ التى أبلت مع طارق ابن زياد فى فتح الأندلس أحسن بلاء ، وشب فى قرطبة وتعلم فى جامعتها . فكان كلما مر بقصر الزهراء تطلع إليه مأخوذاً ، وشرد فكره وهام فى متاهة الخيال . كان صاحب أطماع بعيدة ، لا يقف فى تحليقه عند حد ، وكانت أفكاره تتجدد وتتدفق كلما وقع بصره على القصر ؛ إذ تعلقت بالقصر آماله ، وهفت إليه نفسه .

كانت أمنيته الكبرى أن يلج باب القصر ، وكان يقول فى نفسه إن اجتياز وصيد القصر إنما هو العقبة الكأداء التى تعترض سبيله ، فلو أنه ذلل تلك العقبة لعرف طريقه ولانطلق نحو مجده الذى يحلم به ، ويتراءى له فى اللحظات التى يكون فيها بين النائم واليقظان .

وما إن أتم دراسته حتى جذبه القصر إليه . فركز جهوده في أن ينال وظيفة فيه . ولكنه باء بالفشل . ففتح حانوتاً تجاه القصر يحرر الشكاوى والمظالم ، ويرقب فرصته في صبر .

وراح غلمان القصر يفدون إليه ، فكان يحتفي بهم ، ويحسن استقبالهم فأحبوه ، وتوطدت بينه وبين بعض الشباب أواصر الصداقة . فكان حانوته يغص بالزوار وأصحاب المظالم والشكاوى .

وفد عليه ذات يوم صحابه من طلاب جامعة قرطبة ، فخرج معهم إلى منتزه من المنتزهات يستروح نسيم الأصيل وانطلق الصحاب يسمرون ، وصمت ابن أبي عامر ، وشرد خياله ، ولج في التفكير فالتفت إليه أحد رفاقه وقال :

— ما الذي شغلك يابن أبي عامر ؟ لقد أطلت الصمت ، وأسرفت في التفكير .

فرفع الشاب رأسه وقد ضاق بآماله صدره ، فقال في ثقة وهدوء :

— سأكون حاكم هذه الدولة يوماً ما .

وضحك رفقاؤه ، ولكنه لم يلتفت إلى ضحكهم وقال :

— تمنوا علي . وليختر كل واحد منكم خطة أوليه إياها إذا أفضى إلي الأمر .

فنظروا إليه في استنكار ، ثم رأوا أن يشاركوه في مزاحه فقال أحدهم :

— أتمنى أن توليني القضاء بجهتي ، كورة رية ، فإنه يعجبني هذا التين الذي يجيء منها ، وأحب أن أشتفي من أكله .

وقال ابن عسقلاجة . وكان ابن عمه :

— إنى أوثر قرطبة ذات القصور العجيبة . والمساجد الفخمة ، زينة المدن ، وعروس البلاد : وأقصى ما أتمناه أن أصبح حاكماً لها .

والتفت ابن أبى عامر إلى رفيقه الثالث فألفاه يرمقه فى هزء وزراية ، فقال له :

— تمن أنت .

فقال لصاحبه فى استخفاف :

— أتمنى إذا أفضى إليك الأمر أن يطاف بى قرطبة كلها على حمار ، ووجهى إلى الذنب ، وأنا مطلى بالعسل . ليجتمع الذباب على والنحل ، وليكن هذا أول ما تستفتح به عهدك إذا حكمت الأندلس .

وأسرها ابن أبى عامر فى نفسه ، وإن تظاهر بعدم الاكتراث.

والتفت إلى شاب رابع وقال :

— وأنت ؟

فقال الشاب وهو يمرر يده على وجهه :

— أن أكون خازن نساء قصر الزهراء . .

فقال أحدهم وهو يضحك :

— ولكن هذه مهنة الخصيان .

فقال ابن أبى عامر

— إذن فهو لها . .

٣

وعلم أردون بن أذفونش بموت الناصر : فتحرك حقده الذى طوى عليه صدره سنين طوالا ، فابن عمه شنجة قد استجار بالناصر منه ، واستظل بظل سلطانه ، فأجاره الناصر ، وصرفه إلى ملكه ، وأعز نصره . فقوى سلطانه : وطرد أردون الذى كان قد خلعه عن ملكه ، وأخرجه ذليلا من البلاد ، وها هو ذا الناصر قد قضى ، ففكر أردون فى أن يجمع من أمم الجلالقة التى كانت تحته جيوشاً يغير بها على المدن الأندلسية الشمالية ، ويخضعها له ، ثم يفرغ لابن عمه الذى يستمد نفوذه من حماية الأعـــداء .

وراح يجمع الجيوش سراً ويتأهب ليفجأ المسلمين بهجومه الذى كان يدبره فى صبر وكتمان ، وبلغ الحكم أمره ، فبعث إلى قائده غالب الناصرى أن يتأهب لغزو ذلك الذى غره بالحكم الغرور . وسمع أردون بتجهيز المسلمين لغزوه ، فسقط فى يده ، فقد كان يعتمد على مبادرة أعدائه بهجومه ، أما وقد افتضح تدبيره ، وأخذ الحكم أهبته ؛ فسينزل به شر الهزائم ، وسيحل بمدنه الخراب ، فلا قبل له بالحكم وجنوده ، فما دخلوا مدينة من مدن الفرنج إلا سبوا أهلها ، ومحقوها وأنزلوا بها الدمار .

وفكر أردون وأهمه الفكر ، فلم يجد حلا لما تورط فيه إلا أن يخرج إلى الحكم يرتمى عليه ، محكماً إياه فى نفسه ورجاله

ومعاقله ؛ فقد أطمعه في الحكم كرمه ونخوته ؛ فما كان ليعرض عن ملك جاءه يلتمس حمايته ، ويقدم له فروض الطاعة والولاء .

واختار أردون عشرين رجلا من خاصته ، وخرج إلى غالب الناصرى ، وما إن قابله حتى طلب منه أن ينطلق معه إلى قرطبة لمقابلة الخليفة العظيم . ودخل الركب قرطبة ، وكان أردون يرتدى ثوباً أبيض من الديباج ، وعلى رأسه قلنسوة رومية منظومة بجوهر ، وكان يمتطى جواداً أشهب ، فجذب أنظار الناس ، فتطلعوا إليه ، فرأوا فى وجهه ذلة وانكساراً ، ذلة الملك الذى يقدم بنفسه ليرى بعينى رأسه الهوان .

وبلغ الحكم قدوم أردون ، فلم يقابله فى يومه ، وأمر بإنزاله فى دار من دوره الباهرة ، ومر يوم ويوم ولم يؤذن له بالدخول عليه ، إمعاناً فى إذلاله ، وتوهيناً لعزمه ، وفى اليوم الثالث تأهب الخليفة لاستقباله ، فقعد على سرير ملكه فى المجلس الشرقى من مجالس السطح ، وقعد الإخوة وبنوهم والوزراء صفاً فى المجلس ، ووقف جعفر المصحفى رئيس وزرائه خلفه ، وبعث الحكم وزيراً من وزرائه ليأتى بالملك وأصحابه .

سار الملك وأصحابه بين صفين من الجنود الشداد ، فراحوا يقلبون أبصارهم فى نظم الصفوف ، ويجيلوا الفكر فى كثرتها وتظاهر أسلحتها ، وراثق حليتها ، فراعهم ما أبصروه ، وغشيتهم حيرة حتى وصلوا أول باب قصر الزهراء ، فترجل من خرجوا للقاء أردون ، وتقدم الملك وخاصته على دوابهم ، حتى انتهوا

فى باب السدة . فترجل الجميع هناك ، ومشوا على أقدامهم ، ودخل الملك أردون وحده راكباً مع وزير الحكم ، حتى إذا بلغ كرسياً مرتفعاً مكسو الأوصال بالفضة . ترجل وقعد على ذلك الكرسى . وجاء أصحابه وقعدوا بين يديه . وانتظروا الإذن لهم بالدخول مبهورى الأنفاس من الروعة .

وخرج الإذن لهم من الحكم بالدخول عليه ، فتقدم الملك يمشى وأصحابه يتبعونه ، إلى أن وصل إلى السطح . فلما قابل المجلس الشرقى . ولاح له سرير الملك . وقف وكشف رأسه ، وخلع برنسه . وبقى حاسراً . والتفت إليه وزير الحكم ، وأشار له ليتقدم ، فمضى بين الصفين المرتبين فى ساحة السطح ، إلى أن قطع السطح ، وانتهى إلى باب البهو ، فلما قابل السرير خر ساجداً سويعة ، ثم استوى قائماً ، ثم نهض خطوات ، وعاد إلى السجود ، ووالى ذلك مراراً ، إلى أن قدم بين يدى الخليفة ، وأهوى إلى يده فناوله إياها ، وكر راجعاً مقهقراً على عقبيه ، إلى وساد ديباج مثقل بالذهب ، جعل له هنالك .

جلس أردون والبهـــر قد علاه ، وجاء أصحابه وأبدوا خضوعهم ، وانصرفوا مقهقرين ، فوقفوا على رأس ملكهم .

وجاء الترجمان عن الملك . ووقف يرقب الحكم ، وينتظر أن يحرك فاه . ولكن الخليفة أطرق عن تكليم الملك إثر قعوده أمامه وقتاً ، كيما يفرخ روعه ، فلما رأى أن قد سكنت الطمأنينة قلبه ، قال :

— لدينا لك من حسن رأينا فوق ما قد طلبته .

فتطلق وجه أردون وقال :

— أنا عبد أمير المؤمنين ، فحيث وضعني من فضله ، رجوت أن أتقدم فيه بنية صادقة ، ونصيحة خالصة .

— سينالك من تقديمنا لك ، وتفضيلنا إياك ما يغبطك ، وتتعرف به فضل جنوحك إلينا ، واستظلالك بظل سلطاننا .

فابتهج أردون وقال :

— إن شانجة ابن عمى تقدم إلى الخليفة الماضي مستجيراً به منى ، فكان من إعزازه إياه ما يكون من مثله من أعاظم الملوك ، وأكارم الخلفاء .

— سيترادف من إحساننا إليك أضعاف ماكان من أبينا إلى ندك . وإن كان له فضل التقدم بالجنوح إلينا ، والقصد إلى سلطاننا ، فليس ذلك مما يؤخرك عنه ، ولا ينقصك مما أنلناك ، وسنصرفك مغبوطاً إلى بلدك ، ونشد أواخى ملكك .

فأسهب أردون فى الشكر ، وقام للانصراف مقهقراً ، لا يولى الخليفة ظهره ، وخرج مغتبطاً ، فقد صار فى ظل الحكم العظـيم ؟

٤

دخل الحكم خزانة كتبه الزاخرة الفاخرة . وراح يقرأ في إمعان وشغف . فقد كان يمضي سويعات فراغه بين كتبه النادرة . ولقد خاض غمار حروب كثيرة يوم كان ولياً للعهد ، فخضد شوكة الإفرنج . فاستتب فى الأندلس الأمن ثم قعد على سرير الملك وهو فى الثامنة والأربعين من عمره : فضعفت فى نفسه شهوة الحكم والسيطرة .

كانت خزانة كتبه أحب مكان إلى نفسه ، والعلماء صفوة جلسائه : والكتاب خير ندمائه ، فأفاد من الجلساء والندماء ، وتثقفت نفسه واتسعت آفاقه ، فساس رعيته سياسة حكيمة ، جعلت شعبه يحبه ويتعلق به .

وانقضت ساعات وهو يقرأ ، فأحس بالتعب يسرى فى جسمه ، فنهض وغادر المكتبة ، وسار فى ردهات القصر : حتى خرج إلى حدائق الزهراء ، فوقف يستنشق النسيم اللطيف فى قوة ، ويزفره فى راحة . فانتعشت روحه ، وقلب ناظريه فى روائع الورود والأزهار . فتفتحت نفسه ، ومد بصره فلمح من خلل الغصون المتشابكة قرص الشمس ينحدر نحو الأفق الغربى : ويبعث أشعته الذهبية تغمر الحدائق فتزيد فى روعتها ، فغشيته غبطة ، إذ كان الجمال يهزه ويستولى على مشاعره :

وارتفع صوت نسوى عذب ، سرى ندياً فى حدائق الزهراء فأرهف سمعه ؛ كان الصوت رائعاً حنوناً يعبث بالقلوب . ويهز الأفئدة ، فأحس كأنما صبت فى نفسه كئوس من الخمر ، وملأت النشوة صدره . فلاحت على وجهه ، وبقى فى مكانه ينصت إلى البلبل الصداح فى انتباه ، فاستخفه الطرب ، وأخذ يهز رأسه ، لقد سمع من قبل أصواتاً حلوة كثيرة أطربته ، ولكنه لم يسمع صوتاً آسراً كذلك الصوت ، فهو صوت ساحر : يستحوذ على الألباب ، ويشرح النفوس .

سار الحكم صوب الصوت مأخوذاً ، فلمح فتاة جلست على أريكة واسترخت فى جلستها ، وتركت نفسها على سجيتها . وراحت ترسل النغم الحلو الطروب .

وبان فى وجهه الدهش ؛ كانت الفتاة فاتنة غاية الفتنة . وكان جمالها لا يقل عن صوتها روعة : شعر سبط متموج كالليل حالك الظلام ، وعينان واسعتان تلمعان ببريق يعرف طريقه إلى القلوب ، وبشرة بيضاء ناصعة البياض ، وأنف دقيق زان وجهها المستدير ، وفم هو الفتنة والإغراء . كانت تحفة فى قصر جمع آيات الفن والإبداع !

وقف الحكم ينصت إليها جذلان ، وينظر إليها مشدوهاً ؛ كان يحس إحساس النائم الذى ينعم بأمتع الأحلام .

وفاض إعجابه ، فلم يستطع أن يكبت ما به فهتف :

— سبحانك !

فانتفضت الفتاة فى فزع ، والتفتت إلى مبعث الصوت ، فما أن رأت الخليفة حتى نهضت وغمغمت فى ارتباك :

— مولاى !

فقال الخليفة فى رقة :

— حنانيك .

وغضت من بصرها ، ونظر الحكم إلى قوامها البديع ، فأعجبه حسنها ، فقال لها :

— متى هبطت ؟

— الساعة .

— من السماء ؟ !

— من القصر .

— من أنت ؟

— جارية من جوارى مولاى .

— بل أنت ملك هبط من السماء .

ودار الحكم حولها ، وهى واقفة مطرقة ، ثم قال :

— ما اسمك ؟

— صبيحة .

فاتجه إلى الأريكة ، وجلس عليها وهو يقول :

— أنت أحلى من الفجر ، وأندى من البكور ، أنت صبح .

وربت بيده على الأريكة ، وقال :

— تعالى يا صبح ، اقعدى وأسمعينى أحلى النغم .

وقعدت صبيحة إلى جوار مولاها تسمعه عذب صوتها . وتكشف عن خفة روحها ، وعظيم ذكائها .

٥

انطلق المصحفى فى ردهات القصر . فانحنى له الرجال فى إجلال ، حتى إذا بلغ حجرة الحكم ، فتح له الباب . فدخل منه ثابت الخطو ، فهو حاجب الخليفة ، ورئيس وزرائه .

كان جعفر المصحفى من أصل بربرى ، وكان عادى الذكاء . ولكن الحكم قربه منه تكريماً لوالده الذى كان معلمه . ونفس عليه كثير من أشراف العرب ذلك الجاه ، فكانوا يسخرون منه ويغضون من قدره .

وبقى الخليفة وحاجبه يدرسان شئون الأندلس ، ويصرفان الأمور ، حتى إذا ما انتهيا من أعمالهما ، ذهب المصحفى ينفذ وصايا مولاه ، وترك الحكم مجلسه ، ولم يذهب إلى خزانة كتبه كما اعتاد أن يذهب كل يوم ، بل انطلق إلى صبيحة التى هفت نفسه إليها ، واشتاق إلى عذب حديثها .

وحدق فى عينيها الواسعتين الصافيتين . فأحس كأنما أنامل رقيقة تعبث بأوتار قلبه ، ثم مد يده ومررها على شعرها الأسود الفاحم فى حنان ، وقال وهو يبتسم :

— إنى رأيت رؤيا لطيفة يا صبح ؟

— خيراً يا مولاى ؟

— رأيت كأننا ، أنا وأنت ، فى زورق من فضة ، نجدف فى رقعة السماء ، والورد والنرجس والياسمين يتساقط علينا ، وأصوات ملائكية تغنى ، وموسيقا رائعة تعزف أحلى الألحان .

— ستكون أيامك سعادة كلها يا مولاى .

— بل أيامنا يا صبح :

وسارا فى حدائق القصر ، وفى صدريهما نشوة ، وفى قلبيهما حب ؛ وغنت صبيحة ، فسرى فى المكان سحر ، فبدا كل شيء جميلا فى عينى الحكم ، فالتفت إليها فى وله ، وقال :

— ما أحلاك !

ثم تلفت حوله وقال :

— كنت أعجب أنى لهذه الحدائق كل هذه الروعة ؟ الآن فقط عرفت أنها استعارت حسنها من حسنك ، هذه الورود حمرتها من خدك ، وهذه الزهور نضارتها من نضارتك ، وهذه الحياة التى تدب فى كل شيء هى من نبض قلبك .

وانقضى النهار وأقبل الليل وهما يتجاذبان أطراف أحاديث شهية ، وأضفى عليهما الليل جواً شاعرياً أجج فى صدريهما نار الصبابة ، فضم الخليفة صبيحة إليه ، وقال فى صوت يفضح مكنون صدره :

— ليتنى عرفتك يا صبح من زمان ، ضاعت هباء تلك السنون التى تقضت قبل أن أراك .

٦

صوت صبيحة الآسر يسرى فى هجعة الليل عذباً حنوناً . يدغدغ حواس الخليفة ويزيد فى روعته خرير الماء الهامس المتدفق من النافورة التى قعدا عندها ، والقمر الفتان الذى اكتمل وبعث ضوءه الهادىء الجذاب ، يهز المشاعر . ويفتح القلوب للحب .

كانت ليلة من ليالى البهجة التى سعدت بها حدائق الزهراء : الحكم غارق فى النشوة ، وصبيحة جذلى ترفرف فى صدرها سعادة عارمة ، إنها تكتم خبراً ساراً وترقب لحظة من لحظات التجلى ، لتفضى به إلى الخليفة ، فتفيض كأس سعادته .

وأجال الحكم بصره فيما حوله ، فرأى روعة ، ورنا إلى صبيحة بعينيه ، فأحس رضا ، كانت حلوة مليحة غاية فى الحسن ، أضفى عليها ضوء القمر جمالا فوق جمال ، فهمس :

— إنى سعيد يا صبح ، نشوان ، ولا أحب أن تنساب من يدى هذه السعادة وهذه النشوة ، ليت عجلة الزمن تكف عن الدوران . . .

— لا يا مولاى ، لا تتمن أن تكف ، بل ليتها تسرع وتغذ فى السير . .

— ولماذا يا صبح ؟ .

— لأن ما يخبئه لنا الزمن من سعادة أعظم مما نحن فيه . . .

— يا ليت !

— أريد أن أزف إليك بشرى .

— قولى يا صبح .

فقالت فى دلال مس شغاف قلبه وأبهجه :

— لا ، فى أذنك ، فإنى لا آمن عليها النسيم السارى .

وأشرق وجه الحكم بابتسامة عذبة ترجمت عن عميق سروره ، وقال :

— هاك أذنى .

فدنت صبيحة منه ، وهمست فى أذنه ، فتهلل وجه الخليفة ، وهتف فى فرح :

— والله لو جاء المولود ذكراً يا صبح لجعلتك سيدة البلاد .

كان الحكم قد أيس من أن يرزق أبناء ، وها هى ذى حظيته الأثيرة عنده تزف إليه أحلى بشرى ، وأحس خفة ، فلم يقدر على أن يستقر فنهض يستنشق الهواء وهو فرحان ، وسرى فى صدره اضطراب لذيذ ، وأمل حلو ، ولج فى التصورات ، فغمرته أحاسيس غريبة حبيبة ، وتحركت عواطف الأبوة التى استكانت فى جوفه ذليلة سنوات طوالا .

وهبت نسائم باردة فلفحت وجه الحكم الغارق فى الأحلام ، فالتفت إلى صبح وقال :

— هيا يا حبيبتى ندخل إلى القصر ، فقد برد الجو .

فقامت صبيحة ، وسارت إلى جواره ، حتى إذا بلغا الدرج جعلت تقفز فى خفة الشباب ، فقال لها الحكم فى زجر محبب :

— لا . لا يا صبح ، لا تقفزى .

— مولاى !

— ولن تغادرى بعد الليلة فراشك حتّى تضعى ولى العهد .

٧

راح الحكم يهرول فى ردهات القصر دون أن يلتفت إلى مئات الخدم والجنود الذين كانوا ينحنون له فى إجلال ، ويرمقونه بعيون تلمع ببريق الفرح ، وظل فى هرولته وجعفر المصحفى خلفه حتّى بلغ حجرة صبيحة ، فدخلها ، فوجد صبيحة ممددة فى فراشها فخفق قلبه ، ولمح الوليد إلى جوارها ، فترقرق الدمع فى عينيه ، فرفع يده فى ارتباك ، ومسح دموعه بظهر يده .

واستمر بقرب الفراش ثابتاً ينظر ، حتّى إذا ما أشرق وجه صبيحة بابتسامته ، افترّ ثغره عن ابتسامة سرور ، وانحنى فوقها وغمغم :

— شكراً لله .

ومدت صبيحة يدها فحملت الوليد ، وقدمته إلى الحكم ، فحمله فى ذراعيه ، ونظر فى وجهه ملياً ، ثم التفت إلى المصحفى وقـال :

— إنى أعرف هذا الأنف جيداً ، أنف بنى أمية الأمجاد .

وكان فى عزم الحكم إذا رزقه الله ولداً أن يسميه باسم أبيه

العظيم . فرنا إلى ابنه خافق القلب وغمغم :
— إيه يا عبد الرحمن ! .

وذاع فى قرطبة أن الخليفة العادل رزق ولياً للعهد ، فأقيمت الزينات ، وأقبلت الوفود إلى ميدان القصر تشارك الحكم فى سروره ، وارتفعت الهتافات للخليفة وولى عهده ، وفتحت شرفة القصر الكبيرة ، وظهر فيها الخليفة يطل على شعبه ، يحمل على ذراعيه ولى عهده ، وخلفه المصحفى ورجال البلاط ، فتعالى الهتاف ، وراح الخليفة يمد يده بالوليد إلى الجموع التى هزها الفرح ، فدوى المكان بالتصفيق ، وأفصحت الأصوات عما تكنه من حب وولاء .

ووقف محمد بن أبى عامر فى حانوته ينظر إلى الخليفة ووزرائه وحجابه ورجال بلاطه ، وشرد خياله ، ولم تعقه هذه الضوضاء المدوية من أن يطلق العنان لخياله ، فرأى نفسه فى ثياب مزركشة فاخرة كثياب المصحفى المحظوظ ، وقفز به خياله إلى الشرفة ، فوقف خلف الحكم يطل على الشعب الذى جاء يهنىء خليفته .

ورأى نفسه بعين خياله فى ثياب القصر المزركشة ، يخطر فى قرطبة ، والناس يرمقونه فى إعجاب وحسد ، وما زال غارقاً فى أحلامه حتى أفاق على حركة بجواره ، فانتبه إلى نفسه ، ومد عينيه إلى الشرفة ، فلم يجد الخليفة وبطانته ، وتلفت حوله فى الميدان فرأى الناس يتسللون إلى طرقات قرطبة ، ورأى

نفسه فى وسط حانوته الصغير بين الشكاوى والمظالم ، فابتسم فى استخفاف ، ثم أغلق حانوته ، وذهب يشارك القوم فى فرحهم .

* * *

تألق نجم صبيحة بعد أن صارت أميرة قرطبة : فكانت تمضى سحابة نهارها مع المصحفى ، تصرف شئون الملك فى كياسة وفطنة ، ساعدها فرط ذكائها على أن تتفوق على المصحفى ، فكان يسير على هدى تفكيرها ، فأعجب الحكم برجاحة عقلها . وحسن استعدادها لسياسة الأمور ، فشجعها ، وترك لها إدارة دفة البلاد ، وتفرغ لكتبه التى كان يجد لذة فى مؤانستها .

وفى يوم دخلت صبيحة على الخليفة وكان غارقاً بين كتبه ، وانسلت كالطيف حتى وقفت فوق رأسه ، وظل الخليفة فى قراءته ، حتى ملأ عبيرها خياشيمه ، فتلفت وقال فى انشراح :

— صبح ! تعالى .

وأقعدها إلى جواره ، ورنا إليها فى حنان ، فلمح آثار التعب بادية على محياها الجميل ، فقال فى إشفاق :

— إنك تجهدين نفسك يا حبيبتى

فقالت فى رضا :

— أجد لذة فى العمل يا مولاى

— ماذا لو استعنت برجالنا الكثيرين ، لتخفى عن نفسك بعض الجهد الذى تبذلينه ؟

— لست فى حاجة إلا إلى كاتب .

— فليعلن القصر عن حاجته إلى كاتب مجيد ، كاتب يليق بحاكمة فريدة فى الوجود .

— مولاى !

— أنت يا صبح درة ، والله ما أدرى ماذا كانت تساوى حياتى لو خلت منك ! .

فانشرح صدر صبيحة ، ولم تجد الكلمات التى تترجم عن إحساسها ، فمالت عليه ، وطبعت على خده قبلة عبرت عن شعور الاغتباط الذى تحسه . فنظر إليها فى رضا ، وظلا صامتين برهة ، ثم قالت :

— عندى فكرة يا مولاى .

— قولى يا صبح .

— أرى أن نشجع علماء بغداد ودمشق والقاهرة على الوفود إلى قرطبة ، فيرتفع قدرها ، ويطير صيتها فى الآفاق .

— فكرة سديدة .

— سأبعث الرسل إلى تلك الأمصار لإغراء العلماء وأهل الفنون فيها ، تشد الرحال إلينا .

— افعلى يا صبح .

٨

وفد إلى قصر الزهراء كثير من كتاب الأندلس ليختار الخليفة من بينهم كاتباً للأميرة ، واجتاز محمد بن أبي عامر وصيد القصر ، واجف القلب ، مضطرب النفس ، فقد كان يعلق على ذلك اليوم الفاصل من أيام حياته آمالا كباراً ، فها هي ذى أمنيته التي طالما تراءت له في يقظته ومنامه ، تتحقق بفضل غلمان القصر ، الذين توطدت بينه وبينهم علائق الصداقة والمحبة .

كان يقول في نفسه إن اجتياز وصيد القصر هو العقبة الكأداء التي تعترض سبيله ، فلو ذللت تلك العقبة لعرف طريقه ، وها هم أولاء أصدقاؤه قد ذللوها له ، ويسروا له دخول القصر مع الداخلين ، فهل يسعفه حظه ، وينال تلك الوظيفة ؟ !

وسار في حدائق القصر قلقاً ، ولم يكن قلقه لأنه لا يثق في نفسه ، فقد كانت ثقته في نفسه عظيمة ، بل كان قلقاً خشية أن يخونه حظه فتنساب من بين يديه تلك الفرصة النادرة ، التي قد لا يجود بها الزمان مرة أخرى .

وزاد في رهبته تلك الروعة التي لم تألفها عيناه ، فهذه البحيرة الصافية صفاء البللور ، التي أقيمت عليها تماثيل عجيبة فريدة ، كانت في عينيه رهيبة ، فرمقها في قلق ، كما يرمق غولا فاغراً فاه ليبتلعه ..

وضايقه اضطرابه ، فأخذ يهدىء من روعه ، ويسخر من خوفه ، حتى إذا اجتاز باب السدة ، وانطلق فى الردهات الطويلة ، خفق قلبه فى شدة ، وخيل إليه أن مئات الأعمدة الرخامية الشامخة تنظر إليه هازئة ، فماذا يفعل شاب حدث مثله فى ذلك القصر الهائل ، الذى انطوى على عجائب وأسرار ؟

وجلس مع الجالسين يقلب عينيه مشدوهاً فى الزخارف التى زينت بها القاعة . فما يراه الساعة ما كان يخطر على قلبه قط ، إنه عجيبة من عجائب الزمان . وحاول أن يشغل نفسه بتلك التحف النادرة الرائعة ، ولكن نفسه كانت مشغولة بإحساساتها ، فما كان يوجه خياله وجهة بعيدة عن نفسه حتى يرتد خياله يفكر فيما ينتظره .

ومر الوقت وئيداً وئيداً وهو فى قلقه ، حتى أذن له بالدخول على الخليفة ، فنهض مضطرباً ، وقلبه يقفز فى جوفه ، وأحس جفافاً فى حلقه ، ولكنه استمسك ، ودخل البهو الكبير يلفه قلق وخوف .

رأى الحكم فى صدر القاعة وإلى يمينه جعفر حاجب الدولة فانحنى حتى كادت جبهته تلمس الأرض ، ثم اعتدل ووقف بعيداً ، وأشير إليه أن يتقدم ، فتقدم ثابت الخطو ، وجلس على مقعد أمام الخليفة وحاجبه .

وانتظر الخليفة حتى أفرخ روع الشاب ، وراح الحكم يختبره وهو يجيب فى إحكام ، وأقلع عنه خوفه ، وغشيه أمن واطمئنان ؛ وأخذ الخليفة يرقب الشاب بعينه الفاحصة ، فأحس

ميلا إليه ، فقد كان ابن أبي عامر من ذلك الطراز الذى يجذب إليه الأبصار ، وتستريح إليه النفوس .

وخرج ابن أبي عامر تداعبه آمال ، فقد شعر أن الخليفة حباه عطفه ، وأظهر له رضاه .

ورأى الخليفة وحاجبه أن ابن أبي عامر أكفأ من يصلح كاتباً للأميرة ، وخطر للخليفة خاطر ، فقطب جبينه ، إن هذا الشاب جميل الصورة ، صاحب شخصية جبارة آسرة ، فكيف يختار شاباً كهذا ليصاحب صبيحة فى كل لحظة ، وفى كل آن ؟ وضايقه ذلك الخاطر ، وهم بأن يصرف نظره عن ذلك الشاب ، ولكن حبه لصبيحة جعله يثوب إلى رشده سريعاً ، فيزيح ذلك الخاطر المتطفل ، فهو يثق فى صبيحة ثقة لا تقف عند حد ، سماحه لمثل ذلك الخاطر السخيف أن يجول بفكره خيانة لحبه ، وزعزعة لثقته ، وإهانة لصبيحة ، ماكان له أن يوجهها إليها . وانبسطت أساريره ، وقال لحاجبه :

— إن الكاتب كاتب صبيحة فأرى أن تختاره بنفسها .

— هذا عين الصواب يا مولاى .

وجاءت الأميرة ، وأذن للمتبارين بالدخول فلفت محمد ابن أبي عامر إليه نظر الأميرة ، بحكمته الناضجة ، وروبته المحببة ، وشخصيته الطاغية ، وحسنه البارع ، الذى تهفو إليه قلوب النساء ، فلم تتردد فى اختيار الشاب اللبق الجذاب .

وأحس ابن أبى عامر موجة من الفرح تجتاحه وتغمره ، فقد ابتسم له حظه ، وارتقى أول درجة من درجات سعده ، وصار كاتب أميرة قرطبة وسيدة البلاد .

٩

كانت صبيحة وجعفر المصحفى وابن أبى عامر يجتمعون كل يوم فى جناح الأميرة ، وكانت صبيحة وحاجب الدولة يتدارسان شئون الملك ، وكان ابن أبى عامر ينتظر أوامر الأميرة ليحرر كتبها إلى العمال والقواد والقضاة .

وقد أبدى الشاب كفاية أرضت صبيحة ، وكان يدلى برأيه من حين لآخر فى المسائل التى تطرح على بساط البحث ، فكانت الأميرة تأخذ بآرائه وتظهر إعجابها .

أما المصحفى فما كان يهتم بذلك الشاب الألمعى ، بل كان ينظر إليه نظرته إلى خادم عادى من خدام القصر ، وكان يعامله أحياناً فى غلظة ، فما كان الشاب يتذمر أو يبدى استياءه ، بل كان يكتم آلامه ، ويختزن فى صدره إحساس المقت ، ويرقب فرصته فى صبر ، فقد يواتيه حظه فيرد الصاع صاعين ، فما كان من الذين ينسون الإساءة أبدا ، أو يعفون مهما طال الزمان .

وقد أوغر صدر الشاب على المصحفى أنه كان إذا ذهب إلى داره لعمل من الأعمال : يتركه فى دهليز بيته الساعات ،

فكان ابن أبى عامر يشعر بالمهانة ، وبوخز يخز كبرياءه ، وأبخرة من المقت تملأ صدره وتضغطه ، فتزيد فى حقده الشديد على الحاجب البربرى ، الذى عاونه حظه ليكون رئيساً للوزراء ، يتحكم فى أقدار الناس .

وعهدت الأميرة إلى كاتبها فى ذات يوم أن يشرف على تنسيق بهو الاستقبال ، فقد كانت الليلة ليلة استقبال علماء قرطبة ودمشق وبغداد والقاهرة ، فأخذ يتفنن فى تنسيق البهو ، وأقبلت الأميرة فألفته يصدر أوامره لهذا وذاك ، فوقفت ترقبه فى إعجاب . كان نشيطاً ، مذخور الحيوية ، ودارت بعينيها فى المكان ، فوجدت كل شىء قد نسق على هواها ، كأنما قد أشرفت بنفسها على إعداده . كان بين صبيحة وابن أبى عامر توافق ، فذوقه وذوقها يتفقان .

كان كل عمل يقوم به يصادف قبولاً من نفسها ، وأعجبها منه ذلك التفانى العجيب فى عمله ، وتلك القدرة على الاضطلاع بما يطلب منه فى كفاية ، وهذا الإشراق الحبيب الذى تتفتح له النفوس :

واستمرت ترقبه راضية ثم غمغمت :

— إنه رائع ، يستحق أن يكون أكثر من كاتب .

* * *

راح الحكم يهرول فى حدائق الزهراء ويتلفت خلفه ، يشع من عينيه حنان ، وانبسط وجهه ، ورضيت نفسه ، وانشرح صدره ، فهو يلاعب ولديه عبد الرحمن وهشاما :

وجلجلت ضحكاتهما الرقيقة ، فدغدغت حواسه ، وفاض سروره ، فقهقه وهو يهرول وهما يقفزان خلفه ، وأشفق عليهما ، فوقف وانحنى لهما ، وبسط ذراعيه مرحباً ، فارتميا فى حضنه ، فضمهما إليه ، وراح يلثمهما فى وله هنا وهناك .

ثم جلس يرقبهما وهما يلعبان ، وشرد ذهنه ، فعاد به أعواماً . عاد به إلى تلك الأيام المجدبة التى عاشها قبل أن يهب الله له صبيحة ، فرأى عراف القصر يدخل وهو يقول : « لا يزال ملك بنى أمية بالأندلس فى إقبال ودوام ما توارثه الأبناء عن الآباء ، فإذا انتقل إلى الإخوة وتوارثوه ، أدبر وانصرم » .

مزق ذلك القول قلبه ، فما كان له ولد يرث عرشه ، وما كان يحب أن يزول ملك أجداده بزواله . وصدق الحكم ذلك التكهن ، فاغتم أعواماً ، وساعد على تصديقه أن أخاه المغيرة الذى سيؤول إليه الملك من بعده كان شاباً لا يصلح ليسوس نفسه ، فكيف يسوس ملكاً يحيط به أعداء أقوياء ، يتربصون به الدوائر ، وينتظرون ثلمة ينفذون منها ليطعنوا الحكم العربى ، فيتقلص ظله ، وتنكس رايته الخفاقة الشامخة فى الغرب .

كان حزن الحكم على ملك بنى أمية عميقاً ، ولكن الله لم يشأ أن يدوم حزن الرجل العادل طويلا ، فوضع فى طريقه صبيحة الجميلة فأحبها وتعلق بها ، فجاءت له بولدين ، فانقشع حزنه ، وأقامت السعادة فى قلبه ، فقد اطمأن إلى أن الملك سيئول إلى ولد من أولاده ، فيبقى ملك بنى أمية ثابت الدعائم ، متين الأركان .

ونظر الحكم إلى ولديه وهما يلعبان ، فهفت نفسه إليهما ، فقام وحملهما ، ثم عاد وأجلسهما على فخذيه ، وقال :

— سأقص عليكما طرفاً من أخبار جدنا العظيم معاوية ؛ كان معاوية حليماً غاية الحلم . .

وراح يقص قصته وعبد الرحمن يستمع إليه . أما هشام فكان صغيراً لا يفقه مما يقول أبوه شيئاً ، فأخذ يعبث في لحيته مرة ، وفي أذنه مرة ، فالتفت إليه الحكم وابتسم ، ثم ضمه إليه وراح يمرر لحيته على وجهه ، فيضحك هشام ، ويرفس برجليه ويضرب بيديه من السرور .

وأقبلت صبيحة فرأت الخليفة يداعب ولديها ، فتريثت قليلا ، وخفق قلبها فرحاً ، ثم قطبت جبينها الجميل متظاهرة بالجد ، وسارت حتى اقتربت من الأحبة ، فقالت :

— إنك تفسدهما بتدليلك .

فالتفت وقال :

— صبح ! تعالي وارفعينا إلى السماء . .

— على بساط الريح ؟

— على أجنحة النغم .

١٠

غادرت صبيحة المصحفى وابن أبى عامر ، بعد أن أنجزوا عملهم اليومى الرتيب ، وانفردت بنفسها ، فأحست رغبة فى أن تدعو إليها ابن أبى عامر لتصدر إليه أمراً من أوامرها ، ولكنها أنكرت ذلك من نفسها ، فهى لم تغادره إلا من لحظات ، وما كانت تدرى ما هو الأمر الذى ستكلفه إنفاذه ، فتشاغلت عن تلك الرغبة الملحة ، بأن أخذت تغنى أغنية حبيبة إلى نفسها ، لعلها تقضى على ذلك الإحساس المتفتح فى صدرها .

واستمرت فى غنائها ، ولكنها لم تستطع أن تقضى على رغبتها إذ راحت تلح عليها وتهيمن على جميع حواسها ، حتى إن صوتها الآسر الحنون ، ما كان ليهدىء قلبها الحائر القلق .

كانت صبيحة تشعر بالسعادة بقرب ابن أبى عامر وإن لم تعترف بذلك لنفسها ، وكانت تحس لذة كلما أصدرت إليه أمراً أو كلفته عملا ، فكثرت أوامرها إليه ، وكثر العمل الذى نيط به ، وطغت رغبتها فى استدعائه على مقاومتها ، فأمرت حاجبها أن يدعو إليها كاتبها .

وأعملت صبيحة فكرها فى أمر تصدره إليه ، أو عمل تكلفه إنجازه ، فلم يسعفها فكرها ؛ فقد أتموا عمل يومهم ذاك ؛ ولم يعد هنالك ما يستدعى طلبه ، وهمس هامس من أغوار نفسها يتهمها بأنها تسرعت فى استدعائه ، تلبية لرغبة ما كان لها أن تنبت

فى صدرها ، فثارت لذلك الخاطر ، وطفقت تتلمس لنفسها المعاذير ، إنها تطلبه دواماً لأنها تعطف عليه ، وهو أهل لذلك العطف ، فهو دءوب فى عمله ، ويبذل قصارى جهده فى إرضائها ، فماذا لو استدعته لتظهر له تقديرها واغتباطها ؟ !

وخطر لها خاطر ؛ ما قيمة الاغتباط والإعجاب إذا لم يتبعه مكافأة ؟ إنه يستحق أن يكون أكثر من كاتب ، وقد فكرت فى ذلك مرات ، فما الذى يدعوها إلى التريث ؟ فى تريثها غبن له ؛ فهو صاحب عقل راجح لماح ، وشخصية قوية مهابة ، وكفايات ممتازة نادرة ، فلو عاونته وأخذت بيده لتألق نجمه فى القصر . بل فى قرطبة ، بل فى الأندلس جميعها .

واقتنعت الأميرة بأنه قد آن لها أن ترفعه تقديراً لمواهبه ، وتشجيعاً له على إخلاصه ، واعترافاً بالجهود المضنية التى يبذلها إرضاء لها .

وأقبل ابن أبى عامر مشرق الوجه ، موفور الحيوية وقال :

— مولاتى !

فرنت إليه الأميرة بعينيها الساحرتين وقد ظهر على وجهها الجميل الرضا ، وقالت :

— لن تصبح يا محمد كاتبى بعد اليوم .

فتغير وجه ابن أبى عامر ولاح فيه الدهش ، وقال فى إنكار :

— هل صدر منى ما غير على صدر مولاتى ؟

فابتسمت صبيحة وقالت :

— لا يا محمد ، لم تعد وظيفة الكاتب تليق بك ، سأسند إليك عملا أشرف .

— إنى قانع يا مولاتى ما دمت فى ظلك .

— أريد أن أنهضك مكافأة لك .

— مكافأتى أن أبقى خادمك الوفى .

فصمتت الأميرة قليلا ، وكانت تنعم بإحساس لذيذ ؛ إذ أثر فيها ذلك الوفاء تأثيراً طيباً ثم قالت :

— ستظل كاتبى ؛ وسأقلدك عملا آخر .

— شكراً لك يا مولاتى .

— ستكون وكيلى ، وستنهض بإدارة أملاكى .

— إن بيانى لعاجز عن أن يترجم عما أحسه من اغتباط ، سأبقى يا مولاتى خادمك الوفى ما حييت .

وخرج مزهواً بوظيفته ، والأميرة ترقبه منشرحة ، حتى إذا غاب عن عينها غمغمت :

— إنه جدير بما هو أكثر من هذا .

* * *

كان هم المصحفى أن يملأ خزائنه ، وأن يقلد الوظائف الهامة أبناءه وأصهاره وأقاربه ، فلما رأى ابن أبى عامر يقفز بفضل استعداده وبفضل الأميرة ، قفزات واسعة ، فطن إلى أنه منافس خطير لولديه محمد وعثمان ، فراح يعمل جاهداً على أن يعوق تقدمه ، ويهون من شأنه ، ويحط قدره .

وما كان المصحفى بالغر الذى يبدى كرهه لشاب تعطف عليه سيدة البلاد ، فهو أدرى الناس بخطر الكشف عن ذلك الإحساس ، فدفن حقيقة شعوره فى صدره ، وأبدى وده لابن أبى عامر ؛ وبالغ فى إظهار حبه له ، حتّى كان يستشيره فى أموره غالباً ، ويتملقه أمام من فى القصر أحياناً ، فارتفع قدر الشاب والمصحفى كاره مضطر ؛ ينتظر سنوح الفرصة ليقصيه عن القصر .

لم يعرف الزهو طريقه إلى نفس الشاب ؛ بل زاد فى تودده إلى كل من بالقصر ، إذ كان على يقين من أن الأهواء تتضارب فى قوة وعنف ، فى تلك الدنيا الصغيرة التى يعمل فيها ، والدسائس تحاك فى صبر وأناة حتّى إذا ما أتمت خيوطها سقط ضحيتّها دون أن يدرى من أين جاءته الضربة القاضية ، فعمل جاهداً على اكتساب القلوب ؛ وعلى أن يكون محبوباً من الجميع .

رأى بعينه اللماحة أن الخصيين فائق وجؤذر اللذين يحكمان على ألف مملوك من الصقالبة الذين يعملون بالقصر ، يكرهان المصحفى ، فأراد أن يقصى عن نفسه عداوتّهما ، فراح يلاطفهما ، ويغرقهما بهداياه .

ولم تقتصر هداياه على فائق وجؤذر ، بل كان يمنحها كل من يتصل به من غلمان القصر ، بل كل ذى خطر وسلطان . كان يعرف طريقه إلى القلوب : فمن لا تأسره الملاطفة تأسره الرشا والعطايا .

مشى ابن أبى عامر فى القصر يبتسم لهذا ، ويلاطف ذاك ، والحكم يرقبه ، وقد أدهشه ذاك التبجيل الذى يلقاه الشاب أينما حل . كان يرقبه دواماً ، فلم يجد إلا تقديراً واحتراماً له ، فالتفت إلى المصحفى وقال :

— إن كاتب صبيحة يحيرنى .

— لماذا يا مولاى ؟

— استمال إليه فى فترة وجيزة كل من فى القصر .

— إنه شاب آسر فما من أحد يراه حتى يحبه .

قالها فى بساطة ، وسربلها بثوب البراءة ، وإن كان فى أعماق نفسه يهدف إلى إثارة غيرة مولاه ، ولكن الحكم كان يحب صبيحة ، وقد ملأ حبها عليه كل جوانحه ، فلم يعد ثم مكان لغير الحب ، فلم يفطن إلى ما يرمى إليه حاجبه ، وقال :

— إنى أرى الجميع يفرحون بهداياه التافهة أكثر مما يفرحون بهدايانا .

— معاذ الله يا مولاى .

— ما رأيك فيه يا جعفر ؟

سنحت للمصحفى الفرصة لينال من ذلك الشاب الذى بدا خطره ، ولكنه لم يستطع أن ينفس عن إحساسه ، فلو أسفر عن بغضه ، فقد يبلغ قوله صبيحة ، فيسوء ما بينه وبينها ، وهو يعلم أنه لن يبقى فى منصبه يوماً لو غضبت عليه ، فانتخب من الألفاظ ما قد يبلغه غرضه دون أن يوغر صدر الأميرة ، قال :

— إنه شاب زاخر الحيوية والنشاط .

قالها وهو يحاول أن يخز وخزة مسمومة . يضيفها إلى وخزته الأولى ، لعل غيرة الخليفة النائمة فى أغوار نفسه تستيقظ ، فينزاح من طريقه ذلك الشاب الذى بدأ يجثم على أنفاسه . ولكن الحكم لم يلتفت لهذه الوخزة أيضاً ، كان حائراً فى أمر كاتب صبيحة ، وأفصح عن غيرته بقوله :

— والله لا أدرى يا جعفر أأعده من المخلصين لنا أم أعده ساحراً محتالا ؟

فابتسم المصحفى ، ولم ينبس بكلمة ، فقد خشى أن يفضح نفسه ، ويعلن عن بغضه ، فلا يكسب من ذلك إلا عداوة الأميرة وفى ذلك الخسران كل الخسران .

١١

جلست صبيحة أمام مرآتها تتفنن فى إبراز فتنتها ، حتى إذا أتمت زينتها قامت تتهادى رائعة الحسن ، شديدة الأسر ، كان رأسها الجميل آية ، وبدا وجهها المستدير ، وشعرها السبط الطويل كهالة من نور تحف بها ظلمة حالكة ، وبدت عيناها مبعث فتنة وإغراء ، أما فمها فكأنه جرح يقطر دماً .

كستها السعادة ثوباً من البهجة ، فإذا هى راضية كل الرضاء فالحكم يحبها ، وولى العهد وهشام يملآن نفسها غبطة ، وابن أبى عامر كاتبها ووكيلها الذى تقضى أغلب أوقاتها معه ، شاب ظريف لبق ، يدرك ما يبهجها ، فيجعل الحياة صافية مشرقة .

فكرت فى ابن أبى عامر ، وراحت تسأل نفسها على عادتها كلما فكرت فيه . عن مبعث إعجابها ، وتقديرها له ؛ كانت هواجس طفيفة تنبت أحياناً فى أغوار نفسها ، فتقلقها . فتهرع سريعاً إلى نفسها تقتلع تلك الهواجس وتجتثها من أصولها .

كانت هواجسها توسوس لهـا فى خفوت أن تقديرها لابن أبى عامر ليس خالصاً ، بل هو مزيج من التقدير والحب . ولكن ما يكاد ذلك الخاطر يتبدى لها حتى تسدل عليه ستائر كثيفة من الانكار ، باذلة كل ما لديها من حجة لتئد الوسواس المتطفل عليها .

كانت تقنع نفسها أن تقديرها لابن أبى عامر إنما يعود لمواهبه الممتازة ، وإخلاصه فى عمله ، وإخلاصه لها ، وكانت ترتاح إلى ذلك المنطق الذى يبدو لها كأنما يقنعها ، ويشيع فيها طمأنينة وأمن ، ولكن على الرغم من أنها لم تعترف لنفسها أبدا بأنها تحبه ، كانت فعالها تفصح عن هواها ، كانت تحبه من كل قلبها ، كانت تهواه ، كانت نفسها تهفو إليه إذا غاب عنها ؛ وتهش له إذا أقبل عليها ، وتنصت فى شغف إلى حديثه ، وتنظر بارتياح إلى فعاله ، ان هذه الإحساسات إن دلت على شىء . فإنما تدل على الحب ، والحب العميق .

كانت صبيحة تحب كاتبها ، وإن أنكرت ذلك : تحبه وإن خشيت أن تفكر فيه .

انطلقت صبيحة إلى الحكم بعد أن أقنعت نفسها أنها تقدر

ابن أبى عامر لكفايته ودخلت عليه فى نضارة زهرة الربيع . فنظر إليها مشرق الوجه ، وقال :

— ما هذه الروعة يا صبح ، وما هذا الجمال ؟

فابتسمت صبيحة وقالت فى دلال :

— انك يا مولاى ترانى دائماً بعين الهوى .

— تعالى يا صبح واجلسى .

وقعدت ، وقعد الخليفة يرنو إليها . ثم قال :

— كاد حسنك ينسينى ما كنت أفكر فيه .

— وفيم كنت تفكر ؟

— كنت أفكر فى رجل مخلص لنا أجعله وكيلا لولى العهد .

— وهل وجدت الرجل ؟

— كنت أستعرض فى رأسى رجال القصر واحداً واحداً .

— وهل آثرت أحداً ؟

— والله يا صبح لم يستقر رأيى بعد .

— لماذا يا مولاى لا تسند إلى ابن أبى عامر هذا العمل ؟

— لم أفكر فيه .

— لماذا ؟

— لأنه لا يزال صغيراً .

— ولكنه كفء ، ازدهرت ضياعى بعد إذ تولى إدارتها .

— أرى أنه حدث لم تحنكه السنون .

— وما قيمة السنين ما دام قد أثبت جدارته .

— إنه عمل حصير .
— ما كنت أتردد فى ترشيحه لأجل منها .
فأطرق الحكم وقال :
— سأفكر فى ذلك يا صبح .
وفكر الحكم فى ابن أبى عامر . وكان منصفاً بطبعه . فلم يدهشه ترشيح صبيحة لذلك الشاب . بل استصوب رأيها . ومال إليه . فقد رجحت كفته بعد أن استعرض رجاله فى مخيلته فرآه أكفأهم جميعاً . فما من عمل قام به إلا نجح فيه . وما من أحد تعاون معه إلا وثق به . إنه محبوب من الجميع ، وأن ذلك الحب نمهد له الطريق دائماً .
وقر رأى الحكم على أن يجعله وكيلا لولى العهد . فما أقبلت عليه الأميرة حتى قال لها :
— أين كاتبك ؟
— يحرر ما أصدرت إليه من أوامر .
— ابعثى فى طلبه .
— لماذا يا مولاى ؟
— سأجعله وكيلا لعبد الرحمن .
انشرح صدر صبيحة وقال الخليفة :
— إنه سعيد الطالع يا صبح ، يصبح كاتباً لك ، ووكيلا لأملاكك ، ووكيلا لعبد الرحمن ولما يتجاوز السادسة والعشرين !

١٢

فارس ينطلق كالسهم فى طرقات قرطبة ، فينحسر الناس عن طريقه مسرعين ، ثم يرمقونه مذهولين . وتقفز إلى أذهانهم أفكار وتصورات . إنه جندى أغبر أشعث يتفصد منه العرق ، ويلوح عليه الجهد والاعياء ، عاد من الميدان يحمل أنباء إلى قصر الزهراء ، فراح الناس يخمنون ما جرى ، وأخذ كل واحد يروى ما صوره له خياله ، فذاعت الشائعات قبل أن يصل الفارس إلى القصر ، وقبل أن يبلغ رسالته .

وانساب الفارس فى مسالك القصر كالريح ، وبلغ منازل الجنود . فترجل عن فرسه ، وسار فى ردهات القصر مبهور الأنفاس ، حتى إذا بلغ مجلس الخليفة التمس الإذن بالدخول .

ودخل على الحكم ، فانحنى حتى كادت جبهته تلمس الأرض . ثم اعتدل ودفع إليه الرسالة التى يحملها ، فتناولها الخليفة وفضها ، وأخذ يقرؤها فتغير وجهه ، وبان فيه الكمد ، وأشار بيده إلى الجندى فانصرف وبقى وحده يذرع الغرفة صاعداً هابطاً وقد تملكه غضب شديد ، فقد أحنقه قتل قائده الذى بعثه إلى المغرب لتأديب الحسن بن كنون الإدريسى ، الذى تذبذب بينه وبين الفاطميين .

وضاق ببغضه ، فأرسل إلى المصحفى ، فقد أهمه الأمر ، وشعر بكبريائه تجرح ، فما دار بخلده أن تنزل بجنوده مثل تلك

الهزيمة التى حاقت بهم على يد الحسن بن كنون .

وأقبل المصحفى ، ونظر إلى وجه الخليفة : فراعه ذلك العبوس والتقطيب ، فأوجس خيفة . وقال فى اضطراب :

— ماذا جرى يا مولاى ؟

— قتل محمد بن القاسم .

فاربد وجه المصحفى ، وعقد الحزن لسانه ، فصمت برهة لا يدرى ما يقول . وقال الخليفة :

— قتل بعد أن استولى على طنجة وقتل معه خلق كثير ، وفر الباقون إلى سبتة وتحصنوا بها ، وثار أمراء الأدارسة علينا :

— خطب جليل .

فقال الخليفة فى غضب :

— لن يطول انتصارهم ، سأبعث إليهم من لا قبل لهم به ، سأبعث إليهم غالباً الناصرى ، يدك حصونهم ، ويزلزل أرضهم ، ويحصدهم حصداً ، ويشتتهم بدداً .

وأطرق المصحفى ، وقد تحركت عقارب الغيرة فى صدره ، كان لا يحب غالباً ويخشاه ، إن غالباً خاض غمار حروب كثيرة وخرج منها منصوراً ، فتألق نجمه ، وصار يهدد المصحفى فى حجابته ، وهم بأن يخذل الخليفة عن قائده الحبيب ، وأن يشير عليه بقائد آخر ، ولكن خطر له خاطر ؛ ان خروج غالب إلى مراكش فى مصلحته ، ففيه إبعاده عن الخليفة ، ومن يدرى فقد يخرج كما خرج محمد بن القاسم ولا يعود هو الآخر ،

واستراح إلى ذلك الخاطر ، فقال محبذاً بعث غالب :

— والله ليس لهم غيره .

وأرسل الحكم إلى قائده فجاء . ودخل عليه بقامته المديدة ، ووجهه الجاف ، وجعفر المصحفى عنده ، فحيا الخليفة فى خضوع ورمى المصحفى بنظر شزر ، فقد كان يمقته ويزدريه ، وما كان يدارى شعوره نحوه ، بل كان يعلنه فى صراحة الجندى الخشن ، إنه لا يراه أهلا للمنصب الرفيع الذى يشغله .

وأفضى الخليفة إلى قائده بنبأ مقتل محمد بن القاسم ، وبعثه فى جيش جرار لسحق الأدارسة ، وإعادة هيبة الدولة ، فخرج غالب يجمع الجموع ، ويتأهب للخروج .

وتم تجهيز كل شىء ، فأعطى الخليفة قائده أموالا عظيمة ، وخرج يودعه ، وقبل أن يتحرك الجيش اللجب إلى مراكش ، التفت الحكم إلى غالب وقال له :

— يا غالب ! سر مسير من لا إذن له بالرجوع حياً إلا منصوراً أو ميتاً معذوراً ، ولا تشح بالمال ، وابسط يدك به يتبعك الناس .

١٣

جلس ابن أبى عامر يكتب ، وراحت صبيحة ترمقه فى اضطراب ، ولاح فى صفحة وجهها الجميل قلق ، كانت تمد بصرها إليه فتتألق عيناها ببريق أخاذ ، ولكن سرعان ما تسبل جفنيها ، وتمرر يدها على جبينها ، كأنما تمسح ما فى ذهنها من أفكار.

فتحت عينيها انسحرتين . ورنت إليه مسحورة . وما كاد بصرها يستقر على وجهه الجذاب حتى أشاحت ببصرها عنه مرغمة ، وتوترت أعصابها . كانت فريسة طيعة لأفكار جبارة أخذت تتوارد عليها فى قسوة وإصرار .

كانت كلما نظرت إلى وجهه . ووقعت عيناها على شفتيه ، تذكرت ما رأته فى نومها فترتجف ، ويخفق قلبها فى خوف . وتفكر فى الفرار ؛ رأت نفسها فى حدائق الزهراء تغنى فى مرح . وابن أبى عامر آخذاً يدها فى يديه . حتى إذا أتمت أغنيتها ضمها إليه فى وله . وقبلها فى اشتهاء .

كانت تحس طعم تلك القبلة التى نالتها فى المنام لذيذاً على شفتيها . بل أحست طعمها الشهى فى روحها . ولكنها راحت تنكر جاهدة ذلك الإحساس ، وتوهم نفسها أن ما رأته فى المنام إن هو إلا أضغاث . على الرغم من أن روحها كانت ترحب بتلك القبلة فى اليقظة ، وعلى الرغم من أن قلبها يهفو إليها ويشتهيها .

واستمرت المعركة ناشبة بين جوانحها ؛ مشاهد الرؤيا تحتل تفكيرها . وإحساساتها تتآمر عليها . وعقلها يهب للذود عنها فيقف حائلا بينها وبين ما يقلقها من تصورات .

اشتهت أن تمرر يدها فى حنان على شعره ، وأن تلمس بأناملها وجهه . فدنت منه . وشعرت بقوة طاغية ترغمها على رفع يدها ، ولكن سرعان ما كبحت جماح نفسها التى كادت تستسلم للأوهام ، وعجبت لذلك الخاطر المجنون الذى استولى عليها

وفكرت فى ترك المكان . وساءها أن تفر . ففرارها إقرار منها بصدق ما يعتمل فى صدرها من مشاعر ، وهى لا تحب أن تعترف حتى لنفسها بما تكابد من حب جارف جبار .

وثبتت حيرى ، فما كانت تستطيع أن تديم النظر إليه ، أو تقضى على عواطفها الثائرة المتمردة ، فذلك الحلم أيقظ مشاعرها الكوامن ، فطأطأت بصرها ، وجعلت تلتقط أنفاساً مضطربة . وراحت تعلل نفسها بأن ما تشعر به إن هو إلا صدى لرؤياها المتطفلة ، لا يلبث أن يزول .

وتقدمت نحوه مسلوبة الإرادة ، كأن قوة خفية طاغية لا تقهر تدفعها دفعاً ، حتى إذا وقفت عند رأسه مالت عليه تنظر بعيون زائغة قلقة ، فى الرقعة التى كان يكتب فيها ، فاشتد وجيب قلبها ، وأحست رعدة تسرى فى بدنها ، ودنت أنفاسها من شعره فملأت رائحته خياشيمها ، واقترب وجهها من وجهه ، واختلطت أنفاسها بأنفاسه ، وتلاقت عيناها بعينيه ، فدار رأسها وكادت تفقد نفسها ، وترتمى فى أحضانه ، وتلثم فى نهم شفتيه اللتين أطبقتا على شفتيها فى المنام ، ولكنها انتبهت فجأة وإذا بزاجر قاس يتحرك فى أغوار نفسها فينهاها فى قسوة ، فابتعدت عنه ، ولم تستطع أن تمكث بقربه أكثر من ذلك ، فدارت على عقبيها وتركت المكان ، فراراً بنفسها التى كادت تستسلم لهواجس هجست بين جوانحها ، فى لحظة من لحظات الضعف البغيض .

وبتعدت صبيحة حتى إذا ما هدأت ، وأفرخ روعها . طفقت تلوم نفسها على ضعفها أمام هواتف كواذب ، ولم تعترف بأن ماتشعر به نحو ابن أبي عامر حب صادق . بل حب عميق جارف جبار .

١٤

وراحت صبيحة ترعى ابن أبي عامر . فجعل يرقى سلم المجد سريعاً . فصار ناظراً لخزينة الدولة . وما كانت تلك الوظيفة إلا خطوة من الخطا التي يقطعها في طريق الحظ البسام ، الذي مهدته له الأميرة التي تهفو إليه كل جارحة من جوارحها وتشتهيه ، وإن أنكرت ذلك غاية الإنكار .

ولم تكتف بما بلغه حبيب الفؤاد . فسرعان ما مدت له يدها الكريمة . لتعاونه على ارتقاء درجة أخرى من درجات المجد الذي كان يرقاه صعداً . فعين للنظر في أمانة دار السكة ، فأصبح في قبضته مبالغ وفيرة من الأموال .

واتجهت إليه الأبصار ، وتوطدت بينه وبين رجال الدولة أواصر الصداقة ؛ وأصبح صديقاً حميماً للوزراء ؛ وكان ابن جذير الوزير أكثر الوزراء حباً له وتقديراً ؛ فصار علماً من أعلام الأندلس المرموقين . ذوي النفوذ والسلطان .

رأى ابن أبي عامر وفرة ما في عهدته من أموال ، فعزم على أن يؤلف قلوب الناس ، وأن يكون له طبقة من الأنصار

والأتباع ، فراح يعطي عطاء من لا يخشى الحساب ، فأصبح قبلة المحتاجين من رجال القصر . ومن نفدت مواردهم من أصحاب النفوذ فى الشعب .

وفى يوم دفع محمد بن أفلح ، وهو مولى من موالى الحكم المقربين ، إلى ما لا يطيقه من نفقة عرس ابنة له ، ولم يبق معه إلا لجام محلى ، ثقيل الوزن ، ردىء العيار ، وتقاعد عنه التجار فانقطع به أمله ، وضاقت به الأسباب .

فكر فى أن يطرق باب الخليفة مولاه . ولكنه أحجم خشية وهيبة ، ووقع فى نفسه قصد ابن أبى عامر صاحب السكة . فقد ذاع كرمه ، وسار ذكره الطيب بين الناس .

ودخل عليه ابن أفلح وهو يضطرب ، خوفاً من أن يرده مكسور الجناح ، وراح يعرفه رغبته فى صوت خافض ، فسارع ابن أبى عامر بأطلق وجه وقال :

— سر إلى بدار الضرب .

وعاد ابن أفلح إلى داره ، وجاء باللجام ، ثم ذهب إلى دار الضرب ودخل على ابن أبى عامر ، والدراهم المطبوعة بين يديه ، فلما رفع ابن أبى عامر رأسه ، ورأى مولى الخليفة أومأ إليه ، فأخرج اللجام وهو خائف من صرفه لسقوط عياره ، فما نظر إليه ولا عايره ، وراطله باللجام بحدائده وسيوره ، فأخذ ما لم يدر فى وهمه أنه يظفر بمثله ، وعظم ابن أبى عامر فى عينيه ، وقام عنه وحجره ملآن .

وانطلق إلى داره وهو يفكر فى ابن أبى عامر : فأحس حبه يملأ فؤاده : حتى لو دعاه إلى معصية الحكم لما قعد عنه .

* * *

وانشرحت صبيحة لتألق نجم حبيبها ، ورضيت غاية الرضا وما كان يعكر صفوها أحياناً إلا بذور الاتهامات التى كانت تنبت فى صدرها فتقلقها ، كانت تصغى على الرغم منها إلى وسوسات نفسها الخافتة التى كانت توصوص فى أغوارها أن ذلك الاهتمام لا يمكن أن يكون لمجرد التقدير البرىء ، وكانت تهب تدافع عن نفسها فى حرارة ، حتى تقنع نفسها بأنها لا ترعاه إلا لكفايته ، ولكن سرعان ما تعود الوساوس الخافتات إلى صدرها الذى كان يضيق بالاتهامات المفتراة !

كانت صبيحة تحبه ، وكان ذلك الحب يزداد على مر الأيام ، وكان يزيده الحرمان ضراماً ، كانت تعاونه لأنها تهواه ، ولكن كان يروعها أن تعترف لنفسها بذلك الحب الذى ملأ الفؤاد ، بل سيطر على الجوارح والحواس .

وفكر ابن أبى عامر فى أن يهدى إلى الأميرة هدية جليلة ، اعترافاً بفضلها ، فجلب أمهر الصناع ، وعهد إليهم بصنع تحفة فريدة ، تفوق روائع قصر الزهراء ، فراحوا يصنعون من الفضة نموذجاً صغيراً لقصر من قصور الأندلس الرائعة ، فأبدعوا ما شاء لهم الإبداع ، فجاء النموذج آية من آيات الفن والجمال .

ووافى اليوم المرتقب . يوم حمل الهدية النفيسة من دار ابن أبى عامر إلى قصر الزهراء . فاصطف الناس على جانبى الطريق لرؤية التحفة النادرة المثال . وخرج موالى ابن أبى عامر يحملون النموذج الرائع . فنظر الناس وقد بان فى وجوههم الدهش والإعجاب . وسار الموالى حتى دخلوا القصر . فاستقبلتهم الأميرة يحف بها ابن أبى عامر والمصحفى وبعض رجال البلاط .

ونظرت الأميرة إلى الهدية ، فلمعت عيناها ببريق الغبطة ، وتطلق وجهها ، كانت الهدية رائعة غاية فى الروعة ، ولم تستطع أن تكبت سرورها . فالتفتت إلى ابن أبى عامر ، وترجمت عن اغتباطها بأعذب كلمات ، فانقبض صدر المصحفى الذى كان ينقبض إذا ما أزجى إلى غيره الثناء ، وأحس عقارب الغيرة تلسعه فتضنيه ، وخشى أن يفضح وجهه مكنون صدره . فاغتصب ابتسامة كلفته جهداً ما أقساه .

وفطن ابن أبى عامر إلى الأثر الطيب الذى خلفته هديته فى نفس الأميرة فاغتبط ، وشجعه ذلك على أن يفكر فى أن يهدى إليها هدايا أنفس من تلك الهدية التى كلفته كل ما ادخر من مال .

وترادفت هداياه ، فكانت كل هدية تفوق سابقتها روعة وجلالا ، فأشرق وجه الأميرة ، فقد كانت ترى فى تلك الهدايا دليلا على الوفاء ، وكان ذلك الوفاء يبهجها . ولكن الوسوسات الخافتات الهامسات فى أعماق نفسها أن تلك الهدايا دليل على شىء

آخر أعظم من الوفاء . كانت تعكر تلك البهجة ، فما كانت تحب أن تعترف لنفسها صراحة بأن تلك الهدايا دليل على الحب والهيـــام .

وأهم المصحفى عطف الأميرة على كاتبها ، فراح يفكر فى وسيلة يكيد بها لابن أبى عامر ؛ دون أن يسفر عن وجهه ، حتى يأمن غضب صبيحة وحتى لا يكسب عداوة جديدة لا يطيقها .

وراح سيال الفكر ينتقل به من فكرة إلى فكرة ، حتى اطمأن إلى فكرة ، فبيت النية على إنفاذها ، فنى يوم اصطف الناس على جانبى الطريق يشاهدون الهدية الجديدة الفخمة التى يحملها ابن أبى عامر إلى ولية نعمته ، فاندس أعوان المصحفى بين الجماهير ، وقد تأهبوا لتنفيذ الخطة التى رسمها سيدهم .

خرج ركب فاخر من ديار ابن أبى عامر ، كل ما فيه ينطق بالروعة والبذخ والإسراف ، انطلق الركب وقد استحوذ على لب الناس ، وحاز إعجابهم ، ولكن ذلك الإعجاب لم يدم طويلا فسرعان ما شوهه أعوان المصحفى ؛ راحوا يتساءلون فى خبث عن مصدر تلك الأموال التى تنفق دون حساب فألقى الناس إليهم آذاناً مصغية ، وما غاب الركب فى قصر الزهراء ، حتى كان أهل قرطبة يخوضون فيما خاض فيه أعوان المصحفى ، ويتهمون ابن أبى عامر بأنه يأخذ من بيت المـــال ، ليشترى هداياه الغالية التى يقدمها إلى الأميرة مجاملة وتقرباً :

وأوسع المصحفى الأرض إذاعة ، وكانت الاتهامات جديرة بالتصديق فآمن بها الناس ، فما كان ابن أبى عامر الذى أصبحت داره قبلة المحتاجين يملك من الأموال ما يغطى هداياه وعطاياه .

ولمس المصحفى نجاح تدبيره فاغتبط ، وترقب صابراً بلوغ تلك الاتهامات إلى مسامع الخليفة . فيجنى ثمرة ما دبر . ولكن الاتهامات كانت تطوف بالبلاد . حتى إذا بلغت القصر وقفت على بابه لا تجرؤ على الولوج ، فاستاء وانتظر على مضض حتى عيل صبره ، وأخيراً لم يجد مفراً من أن يدس إلى الخليفة من ينقل إليه اتهامات الناس لابن أبى عامر ، وفكر فى ابنه محمد ولكنه لم يطمئن إلى تلك الفكرة ، خشى أن تفطن الأميرة إلى أن ذلك من تدبيره ، فاختار رجلا من المقربين إلى الخليفة ، وبعثه إليه ليخبره خبر الناس .

وأفضى الرجل إلى الخليفة بما يهمس به شعبه : فتغير الخليفة ، وضاق صدره ، وبعث فى طلب المصحفى ، وقد بان فى وجهه الضيق والغضب ، وجاء المصحفى يسعى خفيفاً تداعبه آمال وأحلام ، ومثل بين يدى مولاه ، فقال الخليفة فى ثورة :

— ما هذا الذى يقوله الناس يا جعفر ؟

فقال المصحفى فى دهش متكلف :

— ماذا يا مولاى ؟

— أما بلغك أن الناس يقولون أن كاتب صبيحة ليس أميناً على ما فى عهدته من أموال ؟

وحذر المصحفى أن ما سيقوله سيبلغ الأميرة فقال :

— لعلها وشاية حاسد يا مولاى .

— ومن يدرى ؛ لعلها الحقيقة يا جعفر ، فلنحقق هذه الاتهامات .

— أمــر مولاى .

وخرج المصحفى ليبعث فى طلب ابن أبى عامر راضياً مغتبطاً ؛ فعما قليل يفتضح أمر ذلك الشاب ، ولن تنقضى ساعات حتى ينجح تدبيره ، وجىء بكاتب صبيحة . فقال له الحكم :

— يتهمك الناس يا محمد بتبديد ما فى عهدتك من مال .

فأحس ابن أبى عامر بالأرض تميد به ، وشعر بمطارق هائلة تهوى فوق رأسه ، وكاد ينهار . كان ذلك القول صدمة هائلة لم تكن فى الحساب . ولكنه تجلد ، وحاول أن يخفى ما اعتراه من اضطراب .

ورنا إليه المصحفى ، فرأى الوجه الجميل قد اصفر . وغامت نضارته ، حتى يكاد يحاكى وجوه الموتى ، فأثلج صدره ، فما كان ابن أبى عامر يضطرب كل ذلك الاضطراب ما لم يكن العجز جسيماً لا يجبر .

وقــال الحكم :

— متى تقدم حساباً على ما فى حوزتك ؟

فقال ابن أبى عامر :

— غــداً .

وانصرف وهو يفكر فى تلك الكارثة التى نزلت به ، فقد أنفق دون حساب من أموال الدولة فيما قدم إلى الأميرة من هدايا ، وفيما أعطى للائذين به من أصحاب الحاجات .

وسار فى ردهات القصر . وقد تملكه اليأس . وظل مغموماً حتى إذا غادر القصر ووجد الظلام يلف قرطبة زاد انقباضه ، وانطلق مطأطىء البصر ، ولكن سرعان ما استعاد رباطة جأشه ، وعادت إليه ثقته ، فأقنع نفسه بأن أمامه الليل الطويل يفكر فيه ويدبر ، فطرد اليأس من قلبه . وراح يعمل فكره للخروج من ذلك المأزق الذى لم يخطر له على بال .

ودخل الحكم على صبيحة ، وقد علت وجهه سحائب من الحزن ، وفطنت إلى تغيره فقالت :

— ما بك يا مـــولاى ؟

فقـــال الحكم فى أسى :

— أمر كاتبك يقلقنى .

فاضطربت الأميرة ، وغاص قلبها فى جوفها ، وخشيت أن تكون الوساوس التى تقلقها بذرت بذورها فى صدره ، فقالت فى نبرات قلقة مرتعدة :

— ما به ؟

— اتهمه الناس بأنه مد يده إلى بيت المال ، ليشترى لك هداياه .

فقالت الأميرة فى إنكار :

— فرية من غير شك .

فقال الحكم وهو يمد بصره بعيداً عنها :

— من يدرى ؟ ! غداً يتضح كل شيء .

— غــداً ؟

— أجل يا صبح . فقد وعدنا أن يقدم فى الغد حساباً عما فى عهدته من أموال .

أطرقت الأميرة تفكر ، وقد نزل بها هم ثقيل ، فلو ثبت أن ابن أبى عامر مد يده لبيت المال ليقدم كل تلك الهدايا التى شرحت صدرها ، لنال ذلك من كبريائها ، ولكدرها كدراً شديداً ، وأحست عطفاً عليه ، فتمنت من كل قلبها أن يكون الغد له لا عليه ؛ وأن يخلص مما وجه إليه من اتهامات كما يخلص الثوب من أدرانه ، إذا ماصوه بالماء .

١٥

وطلع النهار ، فتسللت أشعة الشمس إلى مخدع صبيحة ، فنهضت فى تثاقل ، وبان فى وجهها الجهد ، فما ذاقت النوم إلا غراراً ، فقد احتلت قضية كاتبها كل تفكيرها ، ففر النوم مبتعداً ، فما كان يطوف بالمهمومين الذين استولت عليهم تصورات وأفكار وأشباح .

وهرع المصحفى إلى القصر فى البكور ، منشرح الصدر ، متفتح النفس ، فما هى إلا لحظات حتى ينهار صنيعة الأميرة ،

الذي راح يزاحم أولاده وأقاربه وأصهاره . ويجني ثمرة صبره الطويل دون إغضاب الأميرة أو إيغار صدرها عليه .

وأقبل ابن أبي عامر هادىء النفس ، مرفوع الرأس . وانطلق في ردهات القصر ثابت الخطو ، حتى إذا دخل على المصحفي حياه في رقة ، وظل منطلق الوجه ، فعجب المصحفي لذلك الشاب الفولاذي الذي لا يضطرب . وما بينه وبين الفضيحة إلا لحظات .

ودخل المصحفي وابن أبي عامر على الخليفة ، فرمق الحكم الشاب بنظرة فاحصة ، فألفاه ثابت الجنان . وأراد أن يستشف دخيلته من نبرات صوته ، فقال :

— كيف الحال يا محمد ؟

فقال ابن أبي عامر في ثبات واطمئنان :

— على ما يسر مولاي .

فابتسم المصحفي ابتسامة سخرية ، فقد كان على يقين أن الحال لا يسر أحداً غيره ، فالخزائن عبثت بها يد الشاب الذي غره عطف الأميرة عليه .

وقام الخليفة ، وذهب إلى خزائن المـــال ، والمصحفي وابن أبي عامر خلفه ، حتى دخلوا دار الضرب ، فقدم كاتب صبيحة دفاتره ، فإذا بها منسقة منمقة كأحسن ما تكون دفاتر الحسابات ، ثم فتح خزائن المـــال ، وجرد ما بها ، فاربد وجه المصحفي ، فقد أحنقه سلامة مال الدولة ، وساءه انهيار آماله ، وتقوض ما دبر في صبر وأناة .

وعجب المصحفى واشتد عجبه ، إذ كان على يقين من أن خزائن الدولة لم تكن بالأمس على ما يرام ، فكيف نجح ابن أبى عامر فى أن يسوى خزائنه فى ساعات ؟ وفكر ولج فى التفكير ، فلم يهتد إلى الوسيلة التى انتشل الشاب بها نفسه من التردى فى مهاوى الفضيحة والعار ، ولكنه اهتدى إلى أن ابن أبى عامر ليس صيداً يسهل اقتناصه أو إيقاعه فى انشباك .

وأحس الخليفة أنه قد جنى على الشاب التقدير ، وأساء الظن به ، فرأى أن يزجى إليه عبارات التقدير ، ليخفف من وقع الاتهام ، فقال له :

— سرنا يا محمد ما رأينا ، وإننا نقـدر كفايتك وإخلاصك لنا .

فقال الشاب فى حرارة :

— أنا خادمكم الوفى .

وسار الخليفة يفكر فى الشاب العجيب ، وخلفه المصحفى وابن أبى عامر ، وكان صدر المصحفى كمرجل يفور غيظاً ، أما ابن أبى عامر فقد نزلت به السكينة ، وانبسطت أساريره ، ولمعت عيناه .

وأقبلت صبيحة كأنما كانت فى مكان قريب ترقب وفود الخليفة ، ومدت بصرها إلى وجهه واجفة ، فأشرق وجهه بابتسامة حلوة ، نزلت برداً وسلاماً على قلبها ، وشاءت أن تسمع منه براءة كاتبها ، فقالت :

— ماذا وجدت يا مولاى ؟

فالتفت الحكم إلى المصحفى وقال :

— صدق جعفر ، إنها وشاية حاسد يا صبح .

فاغتصب المصحفى ابتسامة . وإن شعر بطعم الصاب فى فيه ، والجفاف فى حلقه . وبوخز شديد فى جوفه .

ودخل الخليفة وصبيحة دار الكتب . وانصرف جعفر وابن أبى عامر ، ومد الحكم يده يتناول كتاباً وهو يقول :

— كاتبك يا صبح جدير بالثقة . فهو شاب نادر المثال .

فدنت صبيحة منه وقالت :

— وبماذا سنكافئه يا مولاى ؟

— هذا ما أفكر فيه يا صبح .

— أرى أن نرفعه ، لنقطع ألسنة المتخرصين .

— إنه كما قلت يا صبح جدير بأرفع مناصب الدولة .

— ماذا يا مولاى لو جعلناه المفتش العام ؟

— هو لها .

ودبر المصحفى ، ودبر الحظ . ففشل تدبير المصحفى ، وراح يجرجر ذيل الخزى ، بينا نجح الحظ فى أن يرفع حليفه على أنقاض الدسيسة التى دبرت فى مهارة ، لتهوى به إلى الحضيض ، وتمرغه فى الأوحال .

* * *

ذهب ابن أبي عامر إلى داره منشرح الصدر ، واضطجع على أريكة بديعة . وأطلق لخياله العنان ، فراح يعرض حوادث الليلة الهائلة فى عجب وإعجاب . واجهه الخليفة بالاتهام ، فهوى عليه كصاعقة قاضية . فخانته الجوارح والحواس . لم يجد لسانه لينفى ذلك الاتهام . وكيف ينفيه وهو أعلم الناس بصدقه ؟ إنه أنفق من بيت المـال الآلاف فى سبيل ما قدم للأميرة من هدايا ، وللناس من عطايا .

تملكه يأس قاتل فى تلك الليلة ، فقنط . وكاد يركن إلى الاستسلام . لولا حسن طالعه الذى حالفه ، وطفق يشد من أزره فى كل آونة وآن . برقت فى ذلك الظلام بارقة أمل ، فأحيت موات نفسه ، فقد قفزت إلى ذهنه فكرة : إنه يستطيع أن يسأل صديقه العزيز ابن جذير أن يعيره تلك الآلاف ، حتى إذا اطمأن الخليفة إلى خزائنه ، أعادها إلى صديقه الوزير ، الذى يحبه ويقدره . واطمأن إلى ذلك الخاطر ، فانطلق فى جوف الليل إلى دار صديقه ، وأفضى إليه بهمومه ، فكان ابن جذير عند حسن ظنه ، فأعطاه ما يجبر ما عنده من عجز .

وحمل الأموال ، وقفل راجعاً إلى القصر ، ووضع فى خزائنه ما استدان من أموال ، ثم انطلق إلى داره ، وبات يرقب طلوع النهار فى اطمئنان ، فقد عمل فى مهارة على أن يبرىء ساحته ، وأن يقف أمام الجميع مرفوع الرأس .

١٦

ساء المصحفى ذلك النجاح السريع الذى أحرزه ابن أبى عامر فما كان يدور فى خلده أن يبلغ ما بلغه فى ثلاث سنين . لقد كان يرى فيه منافساً خطيراً لولديه ، ولكنه لم يكن يشعر نحوه ببغض أو غيرة ، أما وقد وثب تلك الوثبات الواسعة التى يقضى غيره عمره المديد دون أن يبلغها ، فقد أحس نحوه بمقت ممزوج بخوف شديد .

كان هم المصحفى أن يثبت أقدامه ، ويذود عن نفوذه ، وما كان يخشى شيئاً خشيته فقد سلطانه . كان يضايقه أن يبرز سواه ، وكان يرى فى جميع المبرزين منافسين له ، فكان يبذل ما فى طاقته ليخفيهم عن أنظار الخليفة ، وقد نجح فى اقصاء كل منافسيه ، ووافق على خروج غالب إلى مراكش ، وهو يمنى النفس بأن يقتل هناك كما قتل محمد بن القاسم ، ولكن غالباً هزم الحسن بن كنون ، ودوخ الأدارسة ، فازداد نجمه تألقاً ، وزاد حب الخليفة له ، فاغتاظ المصحفى ، ولكنه كظم غيظه ، فقد صار غالب غريماً شديداً يهدد سلطانه بالزوال ؟

وربا حقد المصحفى على غالب ، وأصبحت أمنيته أن تتاح له فرصة التخلص منه ، ولكن تلك الأمنية كانت عسرة المنال ، فالحكم يحب غالباً ويثق فيه ، وما كان المصحفى بقادر على أن ينال من غريمه جهاراً ، فلم يقنط ، وانتظر لعل الأيام تكون عوناً له عليه.

وتقضت الأيام والشهور . ولم يجد المصحفى ثمة ينفذ منها إلى غرضه . فظل يكتم حقده ، ويتواصى بالصبر ؛ ويظهر للحكم وصبيحة ولاءه وإخلاصه . ليدعم مركزه الذى أصبح يخشى عليه كيد الحساد .

وكأنما شاءت الأقدار أن تسخر منه ، وأن تزيد فى قلقه ، فلم تكتف بأن تضع فى طريقه غريماً واحداً يقض مضجعه ويؤرقه بل جاءت له بغريمين . وما كان غريماه كغيرهما من الناس . وإلا لكان سحقهما يسيراً لا يحتاج إلى روية وتدبر وتفكير . ولكنهما كانا فى ظل من العرش ظليل . هذا يحبه الخليفة مولاه وذاك تحدب عليه الأميرة وترعاه . فما كان أمام المصحفى إلا أن يرتدى رداء الدهاء . إذا تحدث عن غالب أمام الخليفة تحدث عنه فى حذر شديد ، حتى لا يكشف عن خبيئة نفسه ، فكان يمدح غالباً ويطريه ، وفى أثناء ذلك يعرض به تلميحاً ، وما كان الحكم يفطن إلى ذلك التجريح المبطن بالرياء ، فكان المصحفى يغتاظ لفشله فى النيل من غريمه بتلك الطريقة الخبيثة المأمونة ، ولكنه لم يقنط أبدا . ولم يعرف اليأس إلى قلبه سبيلا .

وراح المصحفى يبتسم لابن أبى عامر ، ويظهر له عميق حبه وتقديره ، وكان يقاسى من ذلك أشد المقاساة ، ومما زاد فى حنقه عليه أنه لم يكن يجد منفساً لإحساساته الحبيسة فى صدره ، فلم يكن قادراً على أن ينال منه أمام الأميرة ، كما ينال من غالب أمام الخليفة . كان على يقين من أن الخليفة قد يصفح عنه إذا أساء

إلى غالب ، ولطخه بالاتهامات ، أما الأميرة فلن تصفح عنه أبدا إذا خدش الشاب الذى تباركه وترعاه .

١٧

سر الأميرة خروج ابن أبى عامر من محنته موفور الكرامة ، ووجدت فى تبرئته فرصة تنفس فيها عن إعجابها ، فظلت تعدد مناقبه ، حتى صدق الخليفة ما تردده ، ولم تكتف بما ناله كاتبها ، بل عملت جاهدة على أن تقربه من الخليفة ، فطفقت تدعوه ليشاركهما فى أوقات الفراغ ، فكان الشاب الآسر الجذاب يقبل على الخليفة ، يجاذبه أطراف الحديث فى لباقة ، وكان الخليفة يصغى إليه ، كأنما يصغى إلى ساحر يستولى على لبه وحبه ومشاعره .

وبزغ نجمه ، فزاد ذلك فى حقد المصحفى عليه ، فطأطأ بصره ، وراح يقدح زناد فكره ليهتدى إلى وسيلة تخلصه من ذلك المنافس الخطير ، كانت رعاية الأميرة هى العقبة الكأداء التى تتحطم عليها دسائس المصحفى ، فلو أنه نجح فى أن يرفع تلك الرعاية ، لأصبح النفوذ إلى الشاب أمراً يسيراً ، ففكر فى أن يجرح عطف الأميرة على الشاب ، بأن يوحى إلى أبواقه أن تذيع فى البلاد وجود علاقة شائنة بين صبيحة وكاتبها ، حتى إذا بلغت تلك الإذاعة مسامعها ، لم تجد فى نفسها الجرأة على أن تستمر

فى رعاية الشاب . الذى لغط الناس بوجود علاقة آثمة بينها وبينه .

وقلب الفكرة . فوجد أنها خير ما يوصله إلى مأربه . فبعث إلى بعض ثقاته . وطرح عليهم ما استقر عليه عزمه . ثم أوفدهم إلى الناس . ليهمسوا فى آذانهم خبر العلاقة المفتراة بين الأميرة وكاتبها .

وانطلق رسله . فابتسم وفرك يديه سروراً . فعما قليل ترتج قرطبة بحديث الحب الحرام . فما أسرع انتشار أخبار السوء وما أيسر تصديق الناس لتلك الأخبار .

واندس رسل المصحفى بين الناس فى مجالس لهوهم ، وأفضوا إلى جلسائهم فى مهارة نبأ ما بين صبيحة وكاتبها ، ثم انسلوا فى خفة كما ينسل الشيطان بعد أن يوسوس فى صدور الناس .

وراح كل يحدث صاحبه ، هذا يقسم أنه رأى صبيحة تدخل دار ابن أبى عامر ، وذاك يقول ان صديقاً كبيراً من القصر أخبره أنه رأى الأميرة مرتمية فى أحضان كاتبها ، وثالث يروى قصة عجيبة مسبوكة عن كيفية لقاء العاشقين فى ضيعة بعيدة من ضياع الأميرة . ثم يسهب فى وصف ما جرى بين العاشقين ، كأنما كان ثالثهما ، فما أخصب أذهان الجماهير إذا نسجت خيوط فضيحة !

وما تقضت أيام ، حتى كانت مئات القصص المثيرة تروى عن الحب الآثم الذى نما وترعرع فى القصر العتيد !

وبلغ المصحفى بعض ما يتندر به الناس ، وما جادت به

قرائح الشعراء ، فابتسم وفكر فيما يقولون ، فعجب غاية العجب ، كانت سخرياتهم لاذعة . فلو أنه فكر ودبر وحده . لما وصل إلى ما بلغه الناس .

وعلمته تجاريبه أن الاتهامات لا تبلغ أصحابها إلا أخيراً . وهو ما أطلق تلك الترهات إلا لتبلغ الأميرة ، وخطر له أن يذهب إليها ، ويرفع إلى مسامعها حديث الناس ، ثم ينفذ إلى غرضه ، وهم بتنفيذ ذلك ، ولكن حرصه غلبه ، فاستدعى وصيفة الأميرة ، وقد عزم على أن يفضى إليها فى إشفاق بحديث ذلك الحب الذى طاف بالمدينة .

ودخلت الوصيفة عليه ، فتظاهر بالارتباك والحيرة ، وقال :

ــ والله لا أدرى كيف أبدأ حديثى .

فقالت الوصيفة فى لهفة :

ــ أى حديث ؟

فقال المصحفى فى صوت خفيض ، وقد نكس رأسه :

ــ حديث افك جديد .

ــ ماذا تعنى ؟

ــ أما بلغك ما يذيع الناس ؟

ــ وماذا يقولون ؟

فقطب المصحفى جبينه وقال :

ــ والله لا أدرى ماذا أقول . . . إن الناس يهرفون بأن الأميرة تعشق كاتبها .

ـ خســئوا .

فقال المصحفى فى إشفاق :

ـ هذا الأمر يقلقنى ، وإنى أفكر فيما يقطع دابر تلك التخرصات .

فأطرقت الوصيفة مهمومة ، ثم قالت :

ـ فلنستعن بالأميرة .

فقال حاجب الدولة فى خبث :

ـ لا . ينبغى ألا نفضى إلى الأميرة بذلك الحديث الشائن ، فما استدعيتك إلا لأن ذلك الخبر أهمنى وأقلقنى ، ففكرت فيمن أفضى به إليه ليشاركنى فى قلقى وتدبيرى ، فلم أجد سواك ، فما أنا بمستطيع أن أفضى به إلى الخليفة أو الأميرة أو ابن أبى عامر .

فقالت الوصيفة فى حيرة :

ـ وما يمكننا أن نفعل ؟

فأطرق المصحفى قليلا ، ثم رفع رأسه ، وقال :

ـ فكرى وسأفكر .

وخرجت الوصيفة ، والمصحفى يشيعها ببصره ، ويفرك يديه سروراً ، ويبتسم فى خبث ، فهو على يقين من أنها ستقص ما جرى على الأميرة ، فما وجدت المرأة التى تستطيع أن تطوى صدرها على سر .

ومرت أيام ، والوصيفة تكتم ما أفضى به المصحفى إليها ، ولكنها كانت تعانى قلقاً وحيرة ، كانت تحس رغبة ملحة

فى أن تبلغ الأميرة ما يقول عنها الناس . ولكنها كانت تعود فتكبح تلك الرغبة . وأصبحت فريسة لصراع شب فى جوفها . فتبدل حالها ، واستولى عليها اضطراب ، وفطنت الأميرة إلى اضطرابها ، فجعلت ترقبها . فلاحظت أنها كانت تدنو منها ، وتهم بأن تقول لها شيئاً ، ثم تغير رأيها فجأة ، وتبتعد كأن قوة هائلة تدفع بها بعيداً ، فاقتربت الأميرة منها . وقالت لها فى رفق وحنان :

— ماذا يقلق خاطرك ؟ أراك مضطربة حائرة منذ أيام !

— لا شىء يا مولاتى .

وترقرق الدمع فى مقلتيها ، فأشاحت بوجهها عن الأميرة . فقالت صبيحة :

— لا تخفى عنى شيئاً ، فقد أستطيع أن أخفف عنك .

— والله يا مولاتى إنى فى حيرة ، إنى كالغريق الذى لا يدرى ماذا يفعل .

— أفضى بما يقلقك . فكلنا فى حاجة إلى من نفضى إليه بهمومنا .

— أقلقنى حديث مفترى .

— أى حديث ؟

— حديث بهتان ذاع بين الناس .

— ما هو ؟

— قال الشانئون ان مولاتى تحب كاتبها .

وأحست صبيحة قلبها يقفز فى صدرها فى ثورة ، حتى ليكاد يفر من فيها ، وصدرها ينقبض ، ودمها يتدفق حاراً إلى وجهها ، وغصة فى حلقها ، وساءها ذلك الاتهام ، فشعرت بكرامتها تدمى ، وشاءت أن تتجلد أمام وصيفتها ، فقالت فى أسى ومرارة :

ـ ما أيسر أن يخوض الناس فى أحاديث الأفك .

ولم تقدر على أن تملك عواطفها طويلا ، فطغت ثورتها ، فطفرت دمعة ساخنة من عينها ، فقالت لها وصيفتها مواسية :

ـ جفنى دمعك يا مولاتى ، فما يستحق ذلك البهتان أن تذرف دموعك الغالية .

ـ ما أقسى أن يلطخ برىء باتهامات فاجرة .

وانسلت الوصيفة من الغرفة ، وبقيت صبيحة وحيدة . منقبضة الصدر ، وقد خنقتها عبراتها ، وأطرقت تفكر ، فجسمت أفكارها الأمر ، فربا ضيقها ، وطغى حنقها ، وزاد فى غضبها صيرورتها مضغة فى أفواه الجماهير ، فارتمت فى فراشها تبكى وتنتحب :

١٨

راح المصحفى يرنو إلى وجه صبيحة بعينه الفاحصة ، يستشف منه حالتها النفسية ، فكان يرى هدوءاً وطمأنينة ؛ فيتريث : فالوصيفة لم تفض إليها بعد بسرها ، وفى يوم رأى فى وجهها شحوباً وقلقاً : فانشرح ، فقد تيقن أن الوصيفة باحت لها بسرها .

وفكر فى أن يفاتحها فى أمر ذلك الحب الذى ذاع أمره بين الناس ، وأن ينفذ من ذلك الحديث إلى ما دبر ، ولكنه خشى إن هو تسرع وفاتحها فى ذلك الأمر ، أن تثور لكرامتها ، فتتحدى فى رعونة تخرصات الناس ، فيفشل تدبيره فرأى أن يتركها لأفكارها تقلقها وتدك مقاومتها ، حتى إذا انهارت تقدم ليقودها مسلوبة الإرادة إلى حيث يشاء .

وتريث أياماً ، فزاد قلقها ، وزاد اضطرابها : وطفق يرصدها كلما دنت من ابن أبى عامر ، أو دنا منها ، فكان يلمح اضطرابها وتلك الرهبة التى كانت تعتريها . أصبحت تخشى أن تبدى له ما كانت تبدى من ود ، حتى لا تأتى بما يزيد همسات الناس توكيداً .

وضعفت صبيحة ، حتى فكرت فى أن تشكو إلى المصحفى ما تقاسى من ذلك الاتهام الجائر ، ما دامت لا تستطيع أن تشكو إلى ابن أبى عامر أو الخليفة ، ولكنها لم تفعل لأنها كانت تشعر بأن فى ذلك إهداراً لكرامتها . . . . . .

وحزر المصحفى أنها انهارت . وأن خير لحظة لتنفيذ مأربه قد وافت . فدنا منها ، وقد قطب جبينه ، وقال :

ــ أقلقنى يا مولاتى ذلك الحديث المفترى .

فقالت صبيحة فى حزن :

ــ أوبلغك يا جعفر ؟

فقال المصحفى وهو يهز رأسه إشفاقاً :

ــ بلغنى وأطار النوم من عينى .

فقالت الأميرة متلهفة :

ــ وماذا نفعل يا جعفر ؟

ــ فكرت ودبرت ، وأعيانى الفكر والتدبير ، فلم أجد يا مولاتى سوى حل واحد .

ــ وما هو ؟

ــ إبعاد ابن أبى عامر عن قرطبة .

ــ لا يا جعفر ، فى إبعاده اعتراف منا بأنه اقترف ما يستحق الإبعـــاد .

ــ لن ننجح فى كتم أنفاس تلك الفرية إلا بإبعاده .

ــ وما ذنبه ؟

ــ وما ذنبك أنت ؟ فكرى يا مولاتى فى أن ذلك الحديث قد يبلغ مولاى ، فما نقول له ؟

ــ نقول له : إنه حديث مفترى .

ــ قد يترك ذلك الحديث فى نفسه شيئاً ، فيتكدر صفو العيش.

— مولاى أحكم من ذلك .

— الزوج المحب غيور ، تقلقه الأوهام ، فما بالك يا مولاتى بحديث يتناقله الناس ؟

وتضايقت صبيحة ، فراحت تذرع الغرفة ثائرة كلبؤة حبست فى قفص ، ثم قالت :

— والله لا أدرى ماذا دهانى ، وما هذه الحيرة التى استولت على ؟ تشتتت أفكارى حتى صرت لا أدرى ماذا أفعل .

— ليس لنا الخيار يا مولاتى ، إبعاده هو المخرج ، وليس لنا مخرج سواه .

فقالت الأميرة فى استسلام :

— وأين نبعثه ؟

— إلى أى مكان ، ما أوسع الدولة !

— إنه المفتش العام .

— وسيكون قاضى أشبيلية ، الحاكم المطلق لها .

فنظرت إليه الأميرة وقالت :

— كأنك يا جعفر فكرت فى الأمر ، وأعددت لكل شىء عدته !

فقال وهو يفرك يديه سروراً :

— وهل أنا هنا يا مولاتى إلا لأفكر ، وأبعد كيد الحاسدين !

وسمعت صبيحة لمشيئة المصحفى ، فوافقت على أن يذهب ابن أبى‌عامر إلى أشبيلية ، وما كان أمامها إلا أن تخضع ،

أقلقتها تلك الفرية . وباتت تخشى أن تصل إلى الخليفة . فيشوب ثقته شائبة تحط قدرها ، وتخفضها عن عليائها .

وساعدها على سرعة استجابتها للمصحفى ، ما كانت تقاسيه من ذلك الصوت المنبعث من جوفها يعاتبها ويلومها ، فقد هب يتهمها بأنها تحب كاتبها ، وأن كل تصرفاتها حياله تسفر عن ذلك الحب ، حتى أن الناس فطنوا إليه ، ورتبوا عليه ما أسعفهم به خيالهم .

وضعفت أمام اتهام نفسها . حتى لم تجد أثراً لتلك القوة الغاضبة التى كانت تهب فى جوفها ، ولا تستقر حتى تقضى على ذلك الاتهام كلما نبت فى صدرها ، فلم تجد مفراً من إقصاء ابن أبى عامر ، لتقطع ألسنة الناس ، ولتستريح من ذلك الاتهام الكامن فى أعماقها تحت رماد من الطمأنينة الزائفة ، فإذا هبت رياح الشك ذرت الرماد ، فاندلعت ألسنة الاتهامات تحرقها بنارها .

وعلم ابن أبى عامر أنه أصبح قاضى أشبيلية ، فلم يغتبط ، فطن بذكائه إلى أن الهدف الأول من ذلك التنصيب هو إقصاؤه عن القصر ، وفى إقصائه إزاحته عن طريقه المعبدة التى قطع أغلبها ، ولم يبق فيها إلا القليل ليبلغ أقصى ما يتمناه طموح .

وتجهز ابن أبى عامر . ولم يبق إلا الرحيل ، فانطلق فى ردهات القصر حزيناً ، وذهب إلى الأميرة يودعها قبل خروجه من قرطبة . فأحس غصة فى حلقه ، وبلغ جناحها فأصلح من هندامه ، وأراد أن يبدو هادئاً ، فاغتصب ابتسامة ، ولكن عينيه كانتا تفصحان عن الحزن العميق .

ودخل عنها فخفق قلبه . وأفعم صدره بمشاعر متباينة .
كان يشعر بقلق ورهبة . ويحس ضعفاً لم يحسه من قبل . ونظر
إليها فأرهفت حواسه . وخشي أن تخونه عواطفه ، فخفض
بصره ، وقال فى صوت متهدج :

— إنى راحل يا مولاتى .

فرنت إليه صبيحة فى حنان . وهفت إليه نفسها . حتى
خطر لها أن تضمه إلى صدرها . لعل القلب الثائر فى جوفها يهدأ
ولعل نار الشوق التى ترعى فى صدرها تنطفىء . ولكنها أحجمت
وقالت فى نبرات تنم عما تكابد من وجد واضطراب :

— فى رعاية الله يا محمد .

وشعر برغبة فى أن يقول لها : « الوداع يا صبح » ولكنه
لم يجرؤ على إنفاذ تلك الرغبة . فقال فى صوت مخنوق :

— الوداع يا مولاتى .

فانقبض قلبها ، كأن يداً قوية تهصره . وترقرق الدمع
فى عينيها ، فقالت وهى تمد له يدها :

— الوداع يا محمد .

فصافح ابن أبى عامر اليد الكريمة ، وانحنى فى إجلال ،
ثم دار على عقبيه ، وذهب لا يلوى على شيء وقلبه فى صدره
يدوى دوياً ، ورمقته صبيحة من خلال دموعها حتى اختفى عن
ناظريها ، فلم تستطع أن تكبت عواطفها ، فسالت عبراتها
على خديها .

١٩

خرج ابن أبي عامر من عند الأميرة ، والحزن يهصر فؤاده فما خطر له على قلب أن سيأتي يوم يطرد فيه من القصر ، وسار يتلفت فى قلق ، وقد غشى وجهه إظلام ، وانقبضت نفسه ، فقد كان يشعر بأنه أصبح غريباً . كان ينطلق بالأمس فى القصر ثابت الخطو ، وقد ملىء ثقة وأملا ، وإذا به اليوم يخرج منه خافض الرأس ، يحس نفسه ضئيلا .

ولمحه أصدقاؤه الذين غمرهم بعطفه ، فهرعوا إليه يودعونه مظهرين حزنهم على فراق الشاب الذى أسر قلوبهم ، وحتى ذانك المملوكان السلافيان فائق وجؤذر ، اللذان ما كانا يحبان أحداً فى القصر ، تقدما إليه وودعاه فى حرارة ، وترجما عما يحسان من أسى لبعاده .

وامتطى جواده ، وركب مواليه جيادهم ، وانطلق الركب الصغير يغادر قرطبة ، ووقف المصحفى فى شرفة من شرفات القصر يرقب الشاب الذى خرج مهيض الجناح ، فأحس كأن ينابيع السعادة تتفجر فى جوفه ، ففرك يديه سروراً . نجح تدبيره أخيراً ، وأضحت قرطبة له وحده ، لا ينازع سلطانه فيها سلطان .

وسار ركب ابن أبي عامر فى طرفات قرطبة ، فرفع الناس وجوههم الأسيفة ، ليتطلعوا إلى الشاب الذى نجح فى اجتذاب

قلوبهم إليه . وأحزنهم مغادرته للبلاد كسير الفؤاد . وساءهم أفول ذلك النجم الذى تألق فى قرطبة أعواماً . حتى كاد ضياؤه يبهر ضياء ما عداه من شموس وأقمار .

وأغذ الركب السير ، حتى إذا وفد الليل كانوا قد بلغوا نزلا فى الطريق ، فنزلوا فيه ، وخلا ابن أبى عامر بنفسه ، فأخذ يفكر . وحاول أن يرسم لنفسه منهاجاً يسير عليه فى أشبيلية ولكنه لم يجد من نفسه ترحيباً : كانت نفسه تحن إلى التفكير فى الماضى ، واجترار حوادثه الحبيبة .

رأى نفسه فى حانوته وحوله أصحابه ، ورأى نفسه فى متنزه بجهة الناعورة وهو يقول لرفاقه : « سأكون حاكم هذه الدولة يوماً ما ، تمنوا على ، وليختر كل واحد منكم خطة أوليه إياها ، إذا أفضى إلى الأمر » . ورأى نفسه فى قصر الزهراء مرموقاً ، وصبيحة ، سيدة البلاد ، تحدب عليه وترعاه ، ورأى المصحفى وهو يتودد إليه لما رأى عطف الأميرة عليه ، فابتسم فى مرارة ، فما كان حاجب الدولة مخلصاً فيما يبدى من ود ، فلطالما تركه الساعات ينتظر فى دهليز قصره ، إمعاناً فى تحقيره ، فلما لمس رعاية صبيحة له ، أظهر له الحب إرضاء للأميرة .

وطفق ينظر إلى المصحفى من زاوية جديدة ، فبدا أمام عينيه عارياً من ريائه ، فاهتدى بتفكيره ، إلى أنه هو الذى شكك الخليفة فيه ، رماه بتبديد ما فى عهدته من أموال ، فلما فشل تدبيره ، أذاع نبأ العلاقة المفتراة بينه وبين الأميرة .

وهتف به يأسه أنه قد انتهى . وأنه لن يستطيع أن يرد صفعة المصحفى صفعات . ولكنه سخر من يأسه : وراح يقول لنفسه : إن ما أصابه إن هو إلا سحابة كدر فى سماء سعده لن تدوم طويلا .

وانتقل به سيال الفكر إلى الأميرة : فرأى أنها قد أرغمت على التخلى عنه ، فقد أحكم المصحفى مؤامرته ، وجعلها طرفاً فى الجريمة . فصارت مغلولة اليدين ، كل همها أن تدفع عن نفسها تهمة شنيعة ، لا أن تدافع عن شريك فى الاتهام ، قد يضرها الدفاع عنه ، ويؤكد حديث الافك الذى كان يغذيه آلاف الأذهان ، التى تتفتح دواماً لرواية وقائع مختلفة ، تثبت الفرية وترفعها إلى مرتبة الحقيقة .

كانت الأميرة فى عونه دواماً ، فإذا كانت قد تخلت عنه مضطرة ، فليس معنى ذلك أن يقطع ما بينه وبينها من أسباب . بل عليه أن يجعل حبل الوداد موصولا . أصبح على يقين من أن حظه السعيد ساقها إليه ، لترفعه إلى ما هيأه له قدره ، فإذا كانت الأيام قد فرقت بينهما ، فإنه يستطيع أن يكون منها قريباً ؛ يستطيع برسائله أن ينقل إليها أخباره وإحساساته ، فتنفعل لأنبائه وتحس وجوده .

واستأنف ركب ابن أبى عامر سيره ، حتى دخل أشبيلية ، فاستقبل الناس حاكمهم الجديد ، وقد ارتسم فى وجوههم العجب ، كان شاباً جميل الصورة ، لم يتجاوز الثلاثين ، وما اعتادوا أن يروا شباناً فى مثل تلك المراكز العريضة .

ودخل ابن أبى عامر قصر الحاكم : شارد اللب ، كان يفكر فى رسالة يبعث بها إلى الأميرة ، ودخل جناحه ، وخلا بنفسه وجعل يكتب ما تجمع فى ذهنه من أفكار ، ويترجم عما احتشد فى صدره من مشاعر ، فلما انتهى من رسالته الأولى استدعى بريده ، ودفع بها إليه ، وأمره أن ينطلق إلى قرطبة ليحمل إلى قصر الزهراء ذوب نفسه ، التى تهفو إلى الأيام الخالية السعيدة .

٢٠

أراح المصحفى خروج ابن أبى عامر من قرطبة ، ولم تدم غبطته طويلا ، فقد ترادفت أنباء انتصارات غالب ، ودحره الأدارسة وتضييقه الحصار على الحسن بن كنون ، فتضايق المصحفى لارتفاع ذكر منافسه ، وربما من حنقه سرور الخليفة بتلك الانتصارات الباهرة ، وثناؤه على قائده أطيب الثناء .

وأخذ المصحفى يرقب فعال غالب ، مفتوح العينين ، وهو يأمل أن يسقط غريمه فى خطأ من الأخطاء ، أو يرتكب ما يمكنه من استغلاله فى إيغار صدر الخليفة عليه ، ليصفو له وجهه وحده ، وحتى لا يرتفع إلى مرتبته رجل آخر ، من ذوى الحظوة والنفوذ .

وراح يرصد كتب غالب ، ويدرسها فى إمعان ، منقباً

عن نواحى الضعف فيه . ولكنها كانت تحمل دواماً أنباء الانتصارات . فكان يطوى صدره على غيظه . وفى ذات يوم ، وقعت فى يده رسالة يذكر فيها غالب ما أنفق فى استمالة زعماء البربر ، فأخذ يدرسها بقلبه المريض ، وطبعه الشحيح ، فهاله كثرة ما أنفق فى تلك السبيل ، فأخذ الرسالة ودخل بها على الحكم . ودفعها إليه . وهو يقول :

— لقد تجاوز غالب يا مولاى الحدود المقدرة .

وجعل الخليفة يقرأ رسالة قائده ، وحاجبه يقول :

— هذه نفقات ضخمة . نفقات ترهق بيت المال .

فرفع الخليفة رأسه وقال :

— إنى أذكر وصيتى له عند مسيره ، قلت له : « لا تشح بالمال ، وابسط يدك به يتبعك الناس » لقد نفذ وصيتى .

— ينبغى يا مولاى أن يكون القائد أميناً عند تنفيذ وصية مولاه ، فلا يسرف فى الانفاق .

ونظر الخليفة فى الرسالة ثانية ، وقال :

— نفقة كبيرة ولا ريب .

فشجع ذلك المصحفى على أن يلقى بذور الشك فى صدر الخليفة ، فقال فى إشفاق :

— أخشى أن تكون تلك النفقات قد دخلت جيوب القواد .

وتسرب الشك إلى نفس الخليفة فغمغم :

— أخشى ذلك يا جعفر .

فقال المصحفى فى صوت خافض ، أقرب إلى الهمس :
— أصبح الأمر فى حاجة إلى التفكير .
فقال الحكم فى عزم :
— سنفكر فى الأمر .
وخرج المصحفى من عند الخليفة وقد انداحت السعادة فى صدره فغمرته ، ولم يكتف بذلك النجاح ، بل أراد أن يغض من قدر غالب عند الناس ، فدس أعوانه بينهم لإذاعة أنباء الأموال الطائلة التى دخلت جيوب القواد .

* * *

غادر ابن أبى عامر قرطبة ، واستقر بأشبيلية ، ولكن الناس لم ينسوا محبوبهم سريعاً ، فقد كانوا يرددون مآثره ، ويذكرون مناقبه . وطفق أعوان المصحفى ينقلون إليه آراء الناس فيحس نار الحقد تأكل صدره ؛ فبات يخشى أن يغرى ذلك العطف صبيحة على التفكير فى إعادة الشاب إلى القصر ، فيتكدر صفوه الذى لم يهنأ به طويلا .
وقر رأيه على أن يقضى على الأثر الطيب الذى خلفه ابن أبى عامر وأن يمحوه من أذهان الناس ، فبث دعاته بين الشعب ، ليختلقوا على الشاب الأكاذيب ، ويلطخوه بالاتهامات حتى ينفروا الجماهير عنه ، ويسلبوه ما بقى له من تقدير .
وأذاع أعوان المصحفى أن ابن أبى عامر خرج من قرطبة طريداً ، فقد عاش فى القصر عربيداً ، ويسر له شبابه وجماله

حياة التهتك والمجون . وأنفق عن سعة على شهواته . حتى إذا ما نضب ما فى يده . مدها إلى أموال الدولة ، وما أيسر ذلك على من كانت تحت يده خزائن المال . فلما فاحت رائحته الخبيثة . وبلغت أنف الخليفة . أخرجه من عاصمة البلاد ، وبعثه بعيداً . حتى إذا ما خبت فضائحه ؛ طرده من خدمته دون أن يثير ضجة لا يحب أن تثار .

وبلغ صبيحة خبر ما يذيعه أعداء الشاب الذى ترعاه ، فتضايقت وفكرت فى وسيلة توقف بها تيار تلك الإذاعات ؛ فرأت أن خير وسيلة هى تجريد حملة من الأعوان لمحاربة الشائعات بالشائعات . فبثت الرجال بين الناس ؛ ليذيعوا أن الخليفة قد بعث ابن أبى عامر ليجوب البلاد ، يدرس أحوالها ، وأنه فى طريقه إلى مراكش ليحاسب غالباً على ما حمل من أموال .

وأخذت قرطبة تتلقى الإذاعات المتناقضة عن ابن أبى عامر ، هذه ترفع شأنه . وتلك تحط من قدره ، وأصبحت العاصمة ميداناً لدعايات معسكرين متنافرين ، معسكر المصحفى الذى يعلم مصدر الشائعات الطيبة . ومعسكر الأميرة التى ما كانت تدرى على وجه التحديد لصالح من تنطلق دعايات السوء .

وفكر المصحفى على عادته أن يستفيد مما تذيع الأميرة ، إنها توحى لأبواقها بادعاء أن ابن أبى عامر ذاهب إلى مراكش ليراجع غالباً ويحاسبه على ما تحت يده من أموال ، فلو أن تلك الإذاعة بلغت غالباً لكدرته ، ولنالت من كبريائه ، وهو

لا يتمنى شيئاً أكثر من أن ينال من غالب ويقضى عليه ؛ فليس له منافس فى الدولة سواه ، وفكر فى وسيلة ينقل بها إليه تلك الإذاعة التى تخدش كبرياءه ، فطأطأ بصره ، وأطلق لخياله العنان .

وفكر ، وأمعن فى التفكير ، فاهتدى إلى أن نقل الإشاعة التى سرت فى قرطبة إلى غالب قد يسوءه ؛ وقد يغضبه . ولكنه لن يستطيع أن يثور أو يعلن غضبه لمجرد ذيوع إشاعة . إن خير ما يفعله لتكدير غالب هو إيفاد ابن أبى عامر إلى مراكش .

لو ذهب ابن أبى عامر ، ذلك الشاب الحدث ، إلى مراكش لمراجعة غالب الناصرى ؛ القائد العظيم الذى عقد على هامته إكليل النصر ، لأوغر ذلك صدر القائد المظفر ، ولثار ، ولأعلن بتمرده ، ولتمادى فى غضبه ؛ فينتهز هو تلك السانحة ليزعزع ثقة الخليفة فى الرجل الذى يحبه . ومن يدرى فقد تتولد عداوة بين غالب وابن أبى عامر ، وستتولد حتماً إذا ما ذهب الشاب إلى مراكش ، سيتنازعان ؛ ويشتد تنازعهما حتى ينال منهما الوهن ، ولن يستفيد من ذلك سواه : فسيقضى عليهما جميعاً .

واستراح لأفكاره . فانطلق إلى الأميرة ، وقال وهو يبتسم :

— سرت فى المدينة إشاعة . فلما بلغتنى وجدت أن الناس يسبقوننا أحياناً إلى ما فيه الخير .

— وما تلك الإشاعة ؟

— قال الناس : إن مولانا الخليفة قد بعث ابن أبى عامر ليجوب البلاد ، وإنه ذاهب إلى مراكش .

— وأى خير فى ذلك ؟

— فكرت فى تلك الإشاعة فوجدت فيها الخير كل الخير ، فلو أن ابن أبى عامر قد ذهب إلى مراكش ، لأدى للبلاد خدمات جليلة ، لقد أظهر مقدرة أثنى عليها مولاى يوم كان أميناً على خزائن المـــال ، فلو راجع قدير مثله غالباً فيما حمل معه من أموال ، لهدأ القلق الذى يساورنا عما آلت إليه تلك الأموال .

ودخلت صبيحة والمصحفى على الحكم ، وزينا له بعث ابن أبى عامر إلى مراكش ، لمحاسبة غالب ، فوافق على ذلك ، وعينه كبيراً لقضاة المغرب الأقصى ، وأمر المصحفى أن يكتب إلى قواده أن يستشيروا ابن أبى عامر فى أمورهم وألا يقطعوا فى أمر دون رأيه .

وطفق المصحفى يحرر أمر الخليفة ، وهو نشوان ، فقد دبر وها هو تدبيره قد أفلح ، وما بينه وبين جنى ثماره إلا أن يتريث إرصاداً لمرور حليفه الزمان !

وشعرت صبيحة بنشوة ، فقد حسبت أن إذاعتها قد محقت إذاعات السوء ، وثبتت فى الأذهان ، حتى أنها وجدت صدى فى نفس المصحفى ، وما دار بخلدها أن المصحفى قد تصيد تلك الإشاعة ، لأنه وجد فى تحقيقها توهيناً لغريمين قويين يقفان له بالمرصـــاد .

٢١

كانت الشمس تنحدر نحو المغيب ، والهدوء يسيطر على قصر الزهراء ، فقد غادر الموظفون القصر ، واختلى الخليفة بكتبه ، ودخلت الأميرة مخدعها تستريح بعد عناء اليوم ، وتستجم قبل سهرات الليل .

وأقبلت وصيفة من الوصيفات . ووقفت أمام باب الأميرة تدقه فى لطف ، فقامت الأميرة من فراشها تتمطى . وما أن فتحت الباب حتى قالت لها الوصيفة :

— مولاى عبد الرحمن يطلب مولاتى .

فقالت صبيحة فى لهفة :

— ماذا جرى ؟

— يحس وعكة .

فاضطربت الأميرة ، وهرعت إلى ابنها ، وما أن دخلت عليه حتى قالت فى لهفة :

— ماذا بك يا حبيبى ؟

فقال الصبى فى صوت خافت :

— أحس ضيقاً .

فمدت يدها ومررتها على جبينه ، وجسته ثم ابتسمت وهى ، تقول :

— لا بأس عليك ، إنك بخير .

— أحس كأنى أختنق »

فأدارت عينيها فى المكان ، وقالت وهى تنهض :

ـ الشبابيك مغلقة ، سأفتح لك الشبابيك .

وذهبت إلى نافذة ، وهرولت الوصيفات إلى النوافذ الأخرى فهبت نسائم لطيفة من حدائق الزهراء ، داعبت السجف ، فقالت صبيحة وهى مقبلة عليه :

ـ سينعشك هذا النسيم .

وجلست على حافة فراشه ، ومررت يدها على جبهته وجسته ثم نظرت إلى وجهه ، فشعرت بقلق ، فقد كان وجهه مصفراً ، ولكنها جعلته يطمئن نفسها بأن ما يشعر به إن هو إلا وعكة خفيفة ، لا تلبث أن تنقشع .

وفكرت فى استدعاء الطبيب ، ولكنها نبذت تلك الفكرة فما كان قلبها يطاوعها على أن يعترف بأن عبد الرحمن مريض . وساءها أن ترى ابنها ممدداً فى فراشه ، فخطر لها أن تأخذه إلى الحديقة لتسرى عنه ، فقد ينعشه الهواء النقى ، فيرد له رواءه ويجدد نشاطه ، فقالت له :

ـ دع هذا الكسل ، وهيا نهبط إلى الحدائق ننعم بالحياة .

ومالت عليه تساعده على النهوض ، فقام وسار يتحامل على نفسه ، ويحاول أن يخفى ما به ليرضى أمه القلقة ، وانطلقا ، حتى إذا ما بلغا الحدائق جلسا على أريكة تحت خميلة ، والتفتت صبيحة إلى ابنها ، فألفته شاحب اللون ، فشعرت بقلبها يغوص ، ولكنها تجلدت وقالت وهى تغتصب ابتسامة لترفه عنه :

— الآن حزرت كل شيء ، إنك تخفى عنى سرك ، وهل يخفى الابن عن أمه سره ؟

فقال الصبي فى صوت خافت :

— أى سر ؟

— إنك تحب .

وابتسمت ابتسامة شاحبة ، ولم ينبس بكلمة : فقلقت صبيحة ، ولم تشأ أن تبدى قلقها ، فقالت :

— ما دمت تحب فسأسمعك أغانى العاشقين .

وهمت بالغناء ، وهى ترنو إليه ، فهالها شحوبه ، فلفت ذراعها حوله ، وقالت : هيا نعد .

وسارا صامتين ، وكان ولى العهد يحس وهناً ، وصبيحة تشعر بقلق وخوف ، فابنها مريض ، وما كان لها أن تخرج به إلى حدائق القصر ، بل كان عليها أن تستدعى الطبيب ، ولكنها أرادت أن تسكن الطمأنينة قلبها ، بأن توهم نفسها بأنه معافى ، وأن ما يحسه إن هو إلا خمول تطرده نسمات الأصيل .

ودخلا حجرته ، فمددته فى فراشه ، وبعثت فى طلب الخليفة والطبيب ، وجاء الحكم ؛ وأسرع إلى فراش ابنه خافق القلب ، فلما رأى اصفراره انقبض ، والتفت إلى صبيحة ، فألفاها ساهمة مهمومة ، فزاد انقباضه وطفق يذرع الغرفة فى قلق ؛ وأقبل الطبيب فتعلقت به عيون صبيحة والخليفة وآمالهما .

وفحص الطبيب عنه فى إمعان ، فلاح عليه الاهتمام ، وجاء

المملوكان فائق وجؤذر ووقفا ينظران ، ولما أتم الطبيب الفحص عنه ، دنا منه الحكم ، وقال :

— كيف رأيته ؟

فقال الطبيب وهو عابس الوجه :

— يحتاج إلى عناية يا مولاى .

فتقلص وجه الحكم ، وشعر بجفاف فى حلقه ، ونظر إلى ابنه المسجى فى الفراش ، فغامت عيناه بالدموع ، فأشاح بوجهه ، وذهب بعيداً حتى لا تقع عينا عبد الرحمن على دموع أبيه التى ترقرقت فى مقلتيه .

وغادر الطبيب الغرفة ، فانسل فائق خلفه ، ولحق به فى ردهات القصر ، وقال له :

— كيف وجدته ؟

فلوى الطبيب شفته السفلى ، وأشار بيده إشارة يأس ، فتركه فائق ، وقفل عائداً إلى جناح ولى العهد ، وجعل يتحين الفرص ليختلى بزميله جؤذر ، فلما تلاقت عيونهما رمز له بعينه فانسلا من الغرفة ، وتقابلا بعيداً يتناجيان ، ثم سار فائق وغادر القصر ، وجعل يضرب فى طرقات قرطبة متستراً بالظلام ، حتى بلغ قصر المغيرة .

ودخل القصر ، فداعب أذنيه همس النغم ، وتقدم فاتضحت الأصـــوات ، وارتفعت الأنغام ، وسمع قهقهات وضحكات ناعمة ، ووقف على باب القاعة التى اجتمع فيها المغيرة بندمائه ،

فرآه قد جلس ، وأمامه الشراب وحوله الصحاب ، وغانيات أندلسيات فى غلائل رقيقة هفهافة ، تفضح جمال الأجسام العاجية ، وتبرز الفتنة والإغراء ، وراحت جارية رائعة الجمال ترسل النغم العذب الجذاب .

وتقدم فائق إليه ، ثم انحنى ، وهمس فى أذنه كلمات ، فأشرق وجه المغيرة ثم ابتسم ، فقد كان المملوك الصقلبي الذى يحكم ألف مملوك من خدم قصر الزهراء ، يسر إليه خبر سقوط ولى العهد فريسة لمرض عضال .

٢٢

قدر أهالى أشبيلية حاكمهم الجميل ، فما استبد كما استبد من سبقه ، ولا طغى ولا بغى ، بل أظهر للشعب وده ، وعمل على راحته ورفاهيته ، فكان خير سفير لخليفة عادل أحبه شعبه ، واطمأن فى ظله الظليل .

وأخذ ذلك التقدير يتطور على مر الزمان إلى إعجاب ، وكان ابن أبى عامر جديراً بذلك الإعجاب ، فقد أسر القلوب على الرغم من همومه ومشاكله ، كان كثيراً ما يعيش فى أشبيلية بجسمه ، أما روحه فكانت تهيم فى جنبات قصر الزهراء .

كان يحلم بالعودة إلى قرطبة ، فصار أمله أن يرجع إلى قصر الزهراء ، ليستأنف سيره فى طريق المجد التى قطع فيها

أشواطاً ، فراح يرقب تحقيق ذلك الحلم صابراً ، وكان يقول لنفسه في اللحظات التي ينفد الصبر فيها ، إنه قادر على أن يتألق في أشبيلية ، وأن ينطلق حتى يبلغ هدفه ، ولكنه كان يشك في قرارة نفسه في ذلك ، كان على يقين من أن القصر أقصر طريق لبلوغه مجده ، وعلى الأخص إذا كانت هناك من ترعاه وتبارك خطـــاه .

كان يحس أن صبيحة تحبه حباً جارفاً ، على الرغم من محاولاتها المبذولة لإخماد أنفاس مشاعرها التي تفضح ذلك الحب ، فهي لن تطيق بعده طويلا ، فإذا كانت قد أرغمت على نبذه ، فستتريث حتى تهدأ العاصفة ، ثم تسخر ذكاءها ولباقتها لتبرير استدعائه ، ولن تعدم أسباباً لذلك ؛ وما أيسر الأسباب إذا شاءت صبيحة .

وعاش في أشبيلية على ذلك الأمل ، يراسل الأميرة ليؤجج نار حبها ، ويرصد بريد قرطبة لعله يحمل إليه أمنيته التي تتراءى له دواماً . وجاء بريد العاصمة ، فخفق قلبه ، وتناوله في لهفة ، وأخذ يفض أختامه ويتفحصه في عجل ، كان يبحث عن كتاب بعيـــنه .

وقرأ ما جاء من العاصمة فاغتم ، فقد جاءه أنه أصبح كبير قضاة المغرب الأقصى ، وأن عليه أن يعبر إلى مراكش ، ليراجع غالباً ويحاسبه ، كان يرقب كتاباً يدنيه من قرطبة ، فإذا بكتاب يأتيه ليبعده عنها ، ويجعل بينه وبينها بحراً .

ونشر الكتاب ثانية ، وقرأه فأطل له من بين السطور وجه المصحفى ، إن ذلك تدبيره ، فما اكتفى بأن يخرجه من القصر ؛ ولم يقنع بإبعاده ، بل أخذ يطارده ، ويجعل بينه وبين العودة إلى القصر سداً .

وفكر فيما دفع المصحفى إلى إيفاده إلى مراكش . فحذر كل شىء ؛ إن المصحفى لا يحب غالباً ويغار منه . فهو منافسه الأوحد فى الدولة ، وهو يبغض منافسيه كل البغض ، فإذا ما بعثه إلى مراكش ، فإنما يضرب عصفورين بحجر ، يبعده عن قرطبة ويشغله بغالب ، وينال فى نفس الوقت من كبرياء غريمه ، فما كان لقائد عظيم أن يقبل أن يوفد إليه شاب يراجعه ويحاسبه .

وخرج ابن أبى عامر من أشبيلية مهيض الجناح ، كما خرج من قرطبة ، كان يأمل أن يخرج منها إلى مهوى الفؤاد ، فإذا به يخرج إلى أرض لم تطأها قدماه ، لا يدرى ما يخبئه له القدر فيها من مفاجآت وأحداث .

وبلغ ابن أبى عامر وحاشيته جبل طارق ، فركبوا البحر ليعبروا إلى مراكش ، وشرد ذهن الشاب ، فرأى أن هذه الرحلة إن هى إلا فرصة طيبة أتاحها له قدره ، إنه عاش فى القصر ، فأسر من فيه ، وعرف الوزراء ، فكسب ثقتهم ، واحتك بالشعب ، فأحبه الناس ، وها هو ينطلق إلى رجال الجيش ليخلب ألبابهم ، ويستولى على إعجابهم ، ويصطفى منهم طبقة .

وفكر فيما ينتهجه ليحبط تدبير المصحفي : فما بعثه إلا ليوغر صدر غالب ويضايقه ، فوطن النفس على ألا يأتي ما يغضب غالباً بل عزم على أن يتودد إليه : وأن يتقرب منه ، حتى يكتسب ثقته ، ليقفا في وجه المصحفي جنباً إلى جنب .

٢٢

جاء المغيرة إلى القصر ليعود ولى العهد ، فسار يتبختر في زهو ، ودخل غرفة المريض ، فرأى عبد الرحمن مسجى في الفراش ، وقد غاض لونه وبدا عليه الهزال ، ولمح صبيحة بجواره ، تحنو عليه ، وفي عينيها آثار الألم العميق ، فحياها متطلق الوجه ، فأحست كأن سكيناً تغوص في قلبها ، وزاد انقباضها ، واشتد حزنها ، فما كانت تحب أن يراها المغيرة على تلك الحال من الانكسار .

كانت تمقت المغيرة بغريزتها ، فكانت تحس في أعماقها أنه يبغض ولديها ، ويتمنى موتهما ، فما جاءا إلا ليحولا بينه وبين الخلافة ، فإذا ما انزاحا من طريقه تجددت آماله في احتمال تحقيق أحلامه ، التي داعبته سنوات ، كان يعد نفسه الوريث للخلافة بعد أخيه ، قبل أن يقابل الحكم صبيحة ، فلما ساق القدر المغنية الجميلة إلى الخليفة ، وأنجب منها غلامين ، انهارت صروح أمانيه .

وغاب المغيرة عن قصر الزهراء ، فما كان يزوره إلا فى المناسبات ، وتفرغ للهو والشراب فأرضى ذلك القنوط صبيحة . وسرها استسلام المغيرة لما هو كائن . وطفق يعب كئوس اللذات ، ولكن ما أن مرض عبد الرحمن حتى ظهر فى القصر مستبشراً ، كأنما أحيا ذلك فى نفسه ميت الآمال .

وغادر المغيرة غرفة ولى العهد ، فخرجت صبيحة خلفه . وانطلقا معاً فى ردهات القصر ، المغيرة فى زهوه . والأميرة فى حزنها وحقدها الشديد ، حتى إذا بلغا خزانة الكتب دلفا إليها فوجدا الحكم جالساً ، وقد ضم إليه ابنه هشاما فى حنان .

وبدا فى عين الحكم القلق والاضطراب ، وحاول أن يتجلد ويبدو هادئاً أمام أخيه ، فقاسى كثيراً ليظهر الرضا ، والاطمئنان . وحزرت صبيحة ما يقاسيه ، فزاد حزنها وانقباضها ومقتها للشاب الذى جاء ليزيد ضرام نار الحزن المتأججة فى الأكباد .

وفتح المغيرة ذراعيه لهشام ، فذهب الغلام ، وارتمى فى أحضان عمه ، فضمه الشاب إليه ، فخيل لصبيحة أن ذراعى المغيرة أفعيان لفتا حول ابنها الصغير ، فجزعت ولو طاوعت نفسها لقامت وانتزعت ابنها انتزاعاً من أحضان العدو البغيض ، ولكنها كظمت ما بها ، وبقيت ترقب انصراف المغيرة فى تبرم وضيق .

وتبادل الشقيقان كلمات مقتضبة ، ثم ساد السكون ، فأحس المغيرة أن مكثه قد طال ، وأن وجوده يضايق الزوجين

فاستأذن فى الانصراف ، ثم خرج يزهو كالطاووس .

والتفت الحكم إلى زوجه وقال فى قلق :

— كيف هو الآن ؟

فغامت عينا صبيحة بالدموع ، وقالت فى نبرات حزينة مرتجفة :

— يخبو كما يخبو السراج .

فأطرق الحكم ، وعلت وجهه سحائب من الحزن ، وأطرقت صبيحة تسح الدموع . ثم جففت عبراتها ونهضت فقال لها الحكم :

— إلى أين ؟

— إليه ، تعال لتراه .

فقال فى ألم :

— لا أطيق أن أراه فى محنته .

وذهبت صبيحة إلى ابنها المريض ، فألفته يلفظ أنفاسه فى جهد ، كأنما يتنفس من ثقب ابرة ، وقد شرد بصره ، فظهر بياض العينين ، واختفى السواد تحت الجفون ، فارتجفت وشعرت بقلبها يغوص ، وبصدرها يضيق ، وبيد قوية تكتم أنفاسها ، فانتفضت فى فزع ، وهتفت فى لهفة :

— الطبيب . . . الطبيب .

فهرع الموالى لاستدعاء الطبيب ، وبقيت صبيحة تنظر إلى ابنها فى وله ؛ كان صدره يرتفع وينخفض ككير حداد ، وراحت حركته تخف ، وأنفاسه تخمد ، فاتسعت حدقتاها ، وأحست كأن إسفنجة فى حلقها ، وانهارت قواها ، فزادت رهبتها وفزعها .

وجاء الطبيب ونظر فى وجه ولى العهد ، فوجده يجود بآخر أنفاسه ، فأطرق وقد ارتسم فى وجهه الأسى العميق ، فصرخت صبيحة :

ـ الخليفة ، أين الخليفة ؟

فجرى الموالى إلى حيث كان الحكم ، وأنبئوه أن الأميرة تلتمس حضوره ، ففطن إلى ما جرى ، وشعر بسكين تمزق قلبه وبالحزن يلفه ويستولى عليه ، وانطلق وهو مذهول ، حتى إذا بلغ حجرة ابنه رأى الطبيب يخرج منكس الرأس ، وجرت دموعه على خديه ، فأحس كأن روحه انسلت من جنبيه ، وراح ينظر إلى الطبيب وهو مشدوه ، فتقدم إليه الطبيب ، وفى وجهه حزن وحيرة ، ثم قال فى صوت أسيف :

ـ عوضكم الله منه يا مولاى ما عوضه الله منكم ، وأبقى الله لكم هشاما ، وبارك لكم فيه .

وبقى الحكم فى مكانه ثابتاً لا يريم ، وتحجرت الدموع ، وظل ينظر إلى باب غرفة ابنه دون أن يتقدم ، وفتح الباب ، وخرجت صبيحة وقد شرقت بدموعها ، والتقت عيناها بعينيه وصاحت فى صوت مخنوق :

ـ ذهب عبد الرحمن .

فسالت العبرات ، وجرت على الخدود .

٢٤

عبر ابن أبي عامر إلى مراكش ، وهو مشغول بغالب : فقد رآه في القصر مراراً ، ولكنه لم يعرفه عن قرب ، وسمع عنه أنه قائد محنك ، وإدارى بارع ، ورجل شديد المراس ؛ وهو لا يدرى ماذا يكون حاله معه ، فقد عزم على مهادنته ومحالفته ، ولكن هل ييسر له غالب ذلك ؟

وظل يفكر في غالب والقواد والجنود ، ولم يقلقه فكره ، فقد كان على ثقة من نفسه ، فهو قادر على أن يطويهم ، ويكسبهم إلى جانبه ، عزز تلك الثقة ماضيه ، وقدرته على مصادقة الخليفة وإحراز تقديره .

وهبط أرض أفريقية فأسرع إليه بعض كبار الدولة يستقبلونه باسم غالب ، ويحتفون به ، فأثلجت تلك المظاهر صدره ، فقد كانت دليلا على تقدير غالب له ، وترحيبه بمقدمه .

وانطلق الركب إلى القصر الذى نزل به غالب ، فسار ابن أبي عامر مشرق الوجه ، مطمئن القلب ، يتلفت حوله في هدوء ، كان الاستهلال يبشر ببلوغه ما فكر فيه ، بعد أن اقتنع بأن ذلك الإبعاد من تدبير المصحفى .

ودخل على غالب ، وقد أرهفت منه الحواس ، وأخذ يعد عليه حركاته وسكناته ، ويفحص عنه بنظره الثاقب ، فألفاه رجلا تبدو عليه صرامة القواد ، ولكنه ينعم بقلب كبير ،

وبذهن متوقد . إنه عسكرى فى حركاته ، عسكرى فى أوامره رقيق فى مناجاته ، فقد جعل محادثه حديثاً أرق من النسيم .

وتحدث ابن أبى عامر ، وتألق فى حديثه ، وسيطرت شخصيته الآسرة الطاغية ، فبهر غالباً ، واستولى على لبه ، وأدهشه ذلك الشاب الناضج ، الذى يتمتع بذهن صاف جبار .

ووافى ميعاد الغداء ، فنهض الجميع للطعام ؛ وأخذ غالب وابن أبى عامر يهمسان ويتناجيان ، كأنما قد تعارفا من زمان ، وطفقا يتحدثان ، حتى إذا انتهى الغداء كان كل منهما قد استراح إلى رفيقه ، واطمأن إليه .

وراح غالب ينصت إلى الشاب ، وقد تفتح له قلبه ، وأقبل عليه . وتقضى الوقت لطيفاً ، حتى إذا استأذن ابن أبى عامر نهض غالب وودعه فى حرارة واشتياق .

وانصرف ابن أبى عامر إلى أسواق مراكش ، وأخذ يجوس خلالها ، ينقب عن تحفة نادرة تليق بالأميرة ، حتى إذا وجد هدية فاخرة حملها ، وانطلق إلى الدار الجميلة ، التى أعدها له غالب ، وراح كبير قضاة المغرب الأقصى يكتب رسالة إلى الأميرة ، يصف لها فيها رحلته إلى مراكش ، وما يأمله فى تلك الرحلة من نجاح .

وجلس غاب يفكر فى ذلك الشاب الساحر ، الذى اكتسب ثقته فى لحظات . إنه شاب لبق جذاب ، راجح العقل ، حلو الحديث ، ولكن ما كان ذلك كله بكاف ليمنحه ثقته فى

خطئات . إن به شيئاً غامضاً لا يدريه ؛ وجعل غالب يعصر ذهنه ليهتدى إلى ذلك الشيء الغريب الذى جذبه إليه ، ولكن ذهنه لم يستطع توضيح ذلك الشيء ، ولو فتش فى ثنايا نفسه لوجد ذلك الشيء ؛ إن ابن أبى عامر هو الشاب المثالى الذى يحلم به غالب ليكون زوجاً لابنته أسماء .

* * *

زار ابن أبى عامر الجنود ، وتعرف بالقواد ؛ وأعجب بجنود البربر ، وراح يزور غالبا كل يوم ، فقد توطدت بينهما صداقة متينة ، وفى ذات يوم لمحت أسماء من شرفة من شرفات القصر الشاب الجذاب ، فخفق له قلبها البكر ، وأحست إحساسات لذيذة ما كان لها بها عهد ؛ أحست نفسها تتفتح ، وذاتها ترق ، وروحها تهيم فى دنيا سعيدة ، كأنما ولدت من جديد .

وباتت أسماء ترصد طلوع النهار ، لتهرع إلى شرفتها ، تنتظر وفود ابن أبى عامر ، لتسعد باجتلاء طلعته ، فقد أصبحت أسيرة قوة طاغية حبيبة ، تدفعها إلى الشرفة دفعاً ، وترغمها على المكث بها ، حتى يهدأ القلب الذى شغل بالزائر الغريب .

وقفت أسماء فى شرفتها ، وهى تتلفت فى خفة ، كانت فى الثالثة عشرة ، وكانت حلوة التقاطيع ، باهرة الحسن ، واسعة العينين ، يبدو عليها ذلك الضعف المحبب ، الذى يصرخ بالرجل أنه فى حاجة إلى حمايته ، فإذا استجاب إلى ندائه ،

كبله بخيوطـــه الدقيقة ، التى تبدو واهية أوهى من خيوط العنكبوت ، وإن كانت أقوى من أسلاك الفولاذ .

وكانت فى ثوب سماوى ستر فتنة الجسم ، وأبرز فتنة الروح فكانت كطيف رقيق ، ولمحت ابن أبى عامر مقبلا ، فشعرت بنشوة ، وبقلبها يرفرف فى صدرها كجناح حمامة . وبدمها الحار يصعد إلى وجهها ، فيضرج وجنتيها بحمرة تزيد من فتنتها ، وباضطراب لذيذ يكتنفها . وظلت تتبعه بنظرها الولهان ، حتى غاب فى القصر ، فبقيت مدة فى غمرة السعادة . وخطرت لها فكرة ، وما شغلت ذهنها ، حتى ارتجفت رعباً ، وحاولت أن تئد تلك الفكرة النزقة ، ولكنها غلبتها وسيطرت عليها . فهبطت إلى حدائق القصر قلقة ، وراحت ترقب الباب الذى دخل منه ابن أبى عامر واجفة القلب إرصاداً لخروجه ، وشعرت برهبة مزيجة برجاء تدغدغ حواسها .

وخلا ابن أبى عامر بغالب ، وطفقا يتحدثان ، حتى إذا جاء ذكر المصحفى ، قال الشاب فى سخرية :

— إنه رجل مخلص شديد الوفاء .

فارتسم العجب فى وجه غالب الصارم ، فما كان يفطن إلى تلك السخريات ، إنه تعود أن يقول ما يحب فى صراحة ، دون لف أو دوران ، وفطن ابن أبى عامر إلى ما اعترى غالبا من دهشة واستنكار ، فقال وهو يبتسم :

— إنه مخلص لنفسه ، شديد الوفاء لأهل بيته .

فانبسطت أسارير الرجل ، وإن لم يبتسم ؛ فقلما يبتسم غالب القائد الذى خاض غمار معارك رهيبة ، وعاين الأهوال !

وظلت أسماء تجوب الحديقة ، وترصد الباب الذى دلف منه ابن أبى عامر ، ولاحت عليها الحيرة ، وتباطأ الزمن ، وبقيت تترجح بين التريث لتنفيذ الخاطر المجنون الذى يلح عليها ، وبين حيائها الذى يهيب بها أن تعود إلى القصر ، وأن تقنع بالنظر إلى سالب الفؤاد .

ولمحت الشاب يخرج من الباب الداخلى ، وينطلق فى حدائق الدار ، فأحست رعدة تسرى فى بدنها ، وخوراً يدب فى أوصالها فكادت تثبت فى مكانها ، ولكن رغبتها فى أن تعترض طريق الشاب ، لتلفت نظره إليها ، راحت تدفعها لتنفيذ الخاطر الذى استولى على تفكيرها ، فجعلت تتقدم صوب ابن أبى عامر مسلوبة الإرادة ، وقلبها فى صدرها يدوى دوياً .

وأصبحت منه على قيد خطوات ، فأهت أهة خافتة فيها دهشة وإنكار ، كأنما بوغتت بشىء لم تحسب له حساباً ، فالتفت ابن أبى عامر صوب الصوت ، وتلاقت العيون ، فأسرعت أسماء تسدل على وجهها النقاب ، فى خفر ودلال ، فأشرق وجه ابن أبى عامر بابتسامة حلوة ، أحست حلاوتها فى القلب المفتون .

وانطلق ابن أبى عامر فى طريقه ، واستأنف ما كان يفكر فيه ، وكان يفكر فى قرطبة وقصر الزهراء ، أما أسماء فقد جفلت وهرولت خفيفة ، كأنما تطير بجناحين ، وعادت إلى غرفتها

جذلى ، وتمددت فى فراشها ، وأسبلت عينيها تستحضر فى مخيلتها صورته الجميلة ، وترى بعين خيالها عينيه الساحرتين ، وأخذت تتذكر ما حدث ، وقد هزها الطرب ، وتشيد على ابتسامته العابرة قصوراً جميلة من الأماني والأوهام .

٢٥

كانت صبيحة تمضى سحابة يومها فى قصر الزهراء عابسة حزينة ، فقد غاضت بشاشتها غب موت ابنها ، وزاد فى ضيقها بعد ابن أبى عامر عنها ، فلو أنه كان إلى جوارها فى محنتها لخفف من وقع المصاب ، ولوجدت فى قربه بعض العزاء ، ولشغلت بالتفكير فى إحساساتها نحوه عن تلك الأفكار السود التى تركزت حول الفراق ؛ فراق الحبيب الذى غيبه الثرى ، وفراق الحبيب الذى أبعدته النوى .

وراح حزنها على ابنها يبلى على الأيام ؛ أما حبها لابن أبى عامر فأخذ يتكشف ويسفر عن وجهه ، كانت تنفر من مجرد التفكير فى أنها تهواه ، وما إن بعد عنها ، وترادفت رسائله وهداياه ، حتى اعترفت لنفسها بأنها تحبه ، وتحن إلى لقياه .

كانت ترصد كتبه فى لهفة وشوق ، فإذا جاءها منه كتاب أخذت تقرؤه خافقة القلب ، مكروبة الأنفاس ، كعذراء تسلمت أول رسالة من آسر الفؤاد ؛ وكانت هداياه تجلو عن

صدرها الأحزان ، فينتعش القلب ويخفق خفقات ، فتدب فى الروح الحزينة الحياة ، وتتدفق الأفكار البهيجة إلى الرأس الذى سئم قاتم الأفكار .

كانت رسائله تنكأ جرح قلبها ، وتحرك شجونها ، فكانت كلما قرأت له رسالة فكرت ولجت فى التفكير ، فكان يقودها الفكر إلى وجوب استدعائه ، وكان فؤادها الملهوف يؤازر ذهنها المشغول ، ويلح فى التعجيل بذلك الاستدعاء ، فكانت تهم بمفاتحة الخليفة فى ذلك ؛ ولكنها كانت تحجم خشية ألسنة الناس .

وغلبها شوقها ، فوطنت العزم على محادثة الحكم ، كانت تهفو إلى كاتبها الحبيب ، وتشتاق إلى رؤياه ، وتشعر بالبوار تمشى إليها كلما كبتت تلك العواطف الطاغية المذخورة ، فقررت ألا تأبه لكلام الناس .

وذهبت إلى الخليفة ، وقد لملمت أطراف شجاعتها ، لتحادثه فى أمر عودة كاتبها إلى قرطبة ، وفيما هى فى طريقها إليه قفزت إلى رأسها فكرة ، جعلتها تخفف من خطوها ، ثم تدور على عقبيها ، وتقفل عائدة إلى جناحها ؛ لقد صبرت على بعاده طويلا ، فماذا لو صبرت أسابيع قليلة أخرى ، وبثت دعاتها بين الناس للتمهيد لتلك العودة ؟ واستراحت لتلك الفكرة ، فبعثت إلى بعض ثقاتها من أصحاب ابن أبى عامر .

وأصبحت قرطبة وإذا بأناس يتحدثون عن ابن أبى عامر ، وما أدى للدولة من خدمات فى أشبيلية ومراكش ، وذكروا

فضله ، وعبروا عن حبهم له ، وتكلموا فى وجوب عودته إلى حاضرة البلاد ، ليستأنف إصلاحاته التى كان يهدف من ورائها إلى الأخذ بيد الشعب ، والعمل على رفاهيته .

ووصل إلى المصحفى ما ذاع فى البلاد ، فعلم أن الأميرة نهضت لتهيئة الجو لعودة كاتبها ، فاستاء ، وهب لتعكير الجو الذى راحت صبيحة تبذل كل ما فى طاقتها لتنقيته .

وانتشر أعوان المصحفى فى البلاد ، وراحوا يذكرون الناس بفضائح ابن أبى عامر ، ويختلقون القصص التى تنفرهم منه ولكن الناس أعرضوا عنهم ، وتصدوا للدفاع عن الشاب الذى أسرهم ، فالجماهير يعطفون دواماً على كل من ينحى عن النفوذ والسلطان ، فذهبت محاولات المصحفى أدراج الرياح .

واطمأنت صبيحة إلى الشعب ، فجعلت تمهد لعودته بين رجال القصر ، فأشارت على أصحابه أن يلتمسوا من الخليفة عودته ، وأن يذكروا له أن قرطبة فى حاجة إليه أكبر من أشبيلية ، أو مراكش ، أو أية مدينة أخرى من مدن البلاد .

وطفق أصحاب ابن أبى عامر يذكرونه بالخير أمام الخليفة ، وينتهزون الفرص ليشيروا عليه باستدعائه ، وكثر الحديث عن عودته ، حتى اقتنع الجميع أن أوبته إلى قصر الزهراء باتت أمراً مفروغاً منه .

رأت صبيحة أن كل شىء صار مهيئاً لعودة كاتبها ، وأن الأمر لم يعد فى حاجة إلا إلى إشارة منها ، فوقفت أمام

مرآتها تتزين وتبرز فتنتها ، حتى إذا اطمأنت إلى روعتها ، ذهبت إلى الحكم تغريه باستدعاء حبيبها الذى هفا إليه الفؤاد .

ودخلت على الحكم تزهو بجمالها ، وكانت تقدر حسنها ، وتعرف تأثيره فى زوجها ، كان يسلبه إرادته ، فيطلق لها مقاليد نفسه ، تقوده حيث تشاء . كان الحكم عظيماً مهاباً ، فطناً لبقاً ، وكانت ناحية الضعف فيه حبه الشديد لزوجته ، كان يذوب أمامها كما يذوب الشمع إذا سلطت عليه النار .

ورنت إلى زوجها بعينيها الجذابتين ، فتطلع إليها فى وله ، وقالت متكلفة الحيرة :

— شغلتنى إدارة أملاك هشام .

— لماذا يا صبح ؟

— فكرت فيمن نعينه وكيلا لهشام ، فأعيانى الفكر .

— عندك عثمان بن جعفر المصحفى .

— ليس بالرجل الذى يصلح لذلك .

وأطرقت صبيحة ، وصمت الحكم يفكر ، وساد السكون برهة ، ثم قالت الأميرة فى صوت أقرب إلى الهمس :

— والله ما كان لذلك إلا ابن أبى عامر .

ورمقت زوجها من طرف عينها ، فوجدته لم يتبدل ، فاطمأنت . وترقبت ما يقول فى لهفة ، فقال :

— فليكن ابن أبى عامر وكيلا لهشام .

فأثلج صدر الأميرة ، وبانت الغبطة فى مقلتيها ، وقالت :
— وأين ابن أبى عامر الآن !
— فلنبعث فى طلبه ، اكتبى إليه يا صبح أن يشد إلينا الرحال.
وخرجت صبيحة من عند الحكم تحس نشوة عارمة ، فقد نجح تدبيرها ، وعما قليل يقبل كاتبها ، ليطفىء نار الشوق التى تتلظى فى جوفها . وغمرتها السعادة وملأت جوانحها ، فراحت تضغط صدرها ، وأرادت تلك السعادة أن تنطلق ، وأن تجد لها متنفساً ، فشعرت صبيحة لأول مرة بعد موت ابنها بشوق إلى الغناء ، فغنت فى فرح ، وأطلقت نفسها تهيم فى دنيا البهجة والخيــال .

٢٦

أخذت أسماء تعيش فى عالم حالم ، سعيدة بدنياها الرحيمة التى كانت من خلق خيالها . كانت ترقب ابن أبى عامر من شرفتها فى غدوه ورواحه ، ثم تخلو بنفسها ، لتنعم بأبهج الرؤى والتصورات ، لطالما ناجت طيفه ، وأجرت بينها وبينه أعذب الحوار ، فأصبحت لها ذكريات عزيزة ، تولدت فى دنيا الخيال كانت تعيش بروحها فى أحلام يقظتها ، فآمنت بحوادث الأوهام .
عادت عقب أن اعترضت طريقه فى حديقة القصر إلى غرفتها وقلبها يرقص طرباً ، وراح خيالها يحلق بجناحين من البهجة

فى دنيا تتألق بالحب والصفاء ؛ رأته يتقدم إليها ، ويمد إليها ذراعيه ، ويتناول يدها فى يديه ، وينظر إلى عينيها بعينيه اللتين داعبتا وتر قلبها ، فقفز فى سرور الهيمان ، وأحست لذة لتلك التخيلات ، فلجت فى التصورات ، فسمعته يهمس فى أذنيها بحديث الغرام ، فسرت فى صدرها نشوة واندمجت فى تصوراتها حتى كادت تنسى نفسها ، ولكنها أفاقت على صوت همس الغرام ، فقد كان الهمس ترجيعاً لصوتها ، إنها لم تسمعه يتحدث فعجز خيالها عن أن يستحضر صوتاً لم يسمعه ، ولم يترك فيه الأثر الذى يتركه ما يألفه من أصوات .

وباتت ليلتها تسعد برؤى اليقظة وبهجة الأحلام ، حتى إذا ما أشرقت الشمس ، ودبت الحياة فى الكون ، هرعت إلى مرآتها تصفف شعرها السبط ، وترنو إلى وجهها الدقيق الجميل ، فلما استراحت إلى طلعتها هرولت إلى الشرفة ترقب وفود الحبيب :

وأخذت ترصد الطريق فى قلق ورجاء ، كان خيالها يوحى إليها أنه سيقبل متطلق الوجه ، ثم يرفع بصره إليها ، ويحييها بابتسامة رقيقة ، وانحناءة خفيفة من الرأس الجميل ، وصدقت وحى الخيال .

وأقبل ابن أبى عامر ، فخفق قلب أسماء ، واتسعت حدقتاها ومدت رأسها فى اهتمام ، إرصاداً لما قد يأتيه سالب القلب من حركات ، وسار نحو الشرفة فزاد نبضها ، وزاد اهتمامها ، ولكنه انطلق دون أن يرفع رأسه إليها ، أو يحنيه تحية لها ،

فانقبضت وبقيت فى شرفتها قلقة حائرة ، حتى إذا غادر القصر دخلت غرفتها ، لتنفرد بخياله ، تعاتبه على ما صدر منه من صد وإعراض .

وباتت ليلتها وقد خنقتها رؤى اليقظة وقسوة الأحلام ، فلما أشرقت الشمس ودبت الحياة فى الكون ، خرجت إلى الشرفة تنتظر وفود ابن أبى عامر وقد عزمت على أن تبادله إعراضاً بإعراض .

وجاء ابن أبى عامر ، وسار ثابت الخطو ، فقفز قلب أسماء فى صدرها ، وارتفع نبضها ، وأحست رغبة فى أن تقبل عليه بروحها ، ولكنها عزمت على أن تبدى له الصد ، فاستدارت فى غضب ومنحته ظهرها ، ولكنها لم تطق أن تصرف عنه بصرها فجعلت ترنو إليه من فوق كتفها ، حتى إذا غاب فى القصر أحست راحة ، فقد أعرضت عنه كما أعرض عنها .

وراحت أسماء ترقب ابن أبى عامر كل يوم خافقة الفؤاد ، وكانت تعيش معه فى خيالها ، تناجيه يوماً ، وتبثه غرامها يوماً ، وتعاتبه يوماً ، وتصده يوماً ، وتخاصمه يوماً ، وتصالحه أياماً ، وكانت فى حبها وصدها وهجرها ومخاصمتها سعيدة غاية السعادة ، كانت تعيش فى دنيا أرحب من دنياها التى كانت لا تزيد على جناح فى القصر المحوط بجنود مدججين بالسلاح ، وأسوار عالية وعين غالب التى لا تنام .

وعلمت أسماء أن ابن أبي عامر مقبل اليوم إلى القصر ليودع أباها قبل أوبته إلى قرطبة ، فشعرت بحزن عميق ، ومشى اليأس إليها ، وشعرت بانقباض . كانت تحيا بالأمل ، وكان الرجاء يمد لها فى حبل الخيال ، وكانت ترجو أن يأتى يوم تجذب بصر ابن أبي عامر إليها فيحبها : وها هو ذا ابن أبي عامر يغادر مراكش فتتقوض قصور الأوهام .

لو كان الأمر بيدها لنزعت ذلك الحب الفاشل من قلبها ، وألقت به بعيداً ، ولكن هيهات ! كان قلبها يهفو إليه ، يخفق بحبه ، يتمناه ، وإن حالت بينها وبينه الحوائل ، وإن قامت فى سبيل ذلك الحب عقبات :

وبقيت فى شرفتها حزينة الفؤاد ، تنتظر أن تتزود ممن أحبت آخر النظرات ، وأقبل ابن أبي عامر متهلل الوجه ، فشعرت بجفاف فى حلقها ، وبقلبها يغوص فى جوفها ، وبصدرها يضيق ، وبرغبة فى البكاء ، وغاب حبيبها فى القصر ، فكادت نفسها تذهب شعاعاً .

ودخل الشاب على غالب ليودعه ، فبان التأثر فى وجه الشيخ الجاف ، ولم يحاول أن يكبت عواطفه ، فقال فى نبرات حزينة :

— يعز علينا فراقك يا محمد :

ومد الشاب يده يصافح الرجل الذى قدره وأحبه ، فقال غالب :

— فى حفظ الله ، الوداع !

فقال الشاب فى ثقة :

— بل إلى اللقاء ، إلى اللقاء فى قرطبة ، فى قصر الزهراء .

وانصرف ابن أبى عامر ، وانطلق فى طريقه إلى باب القصر الخارجى ، فراحت أسماء تتبعه بنظرات والهة ، وغام وجهها الجميل بسحائب من الأسى ، وابتعد الحبيب ، فأحست سكيناً تمزق أحشاءها ، وروحها تنساب من جنبيها ، وابتلعه الأفق البعيد فغاب عن عينيها ، فانهملت دموع الحزن على الحب الذى نما وترعرع فى الخيال ، وكفن فى القلب قبل أن يرى نور الحياة .

٢٧

انطلق ابن أبى عامر يطوى الأرض ، وهو يتمنى أن يغمض عينيه فيرى نفسه فى القصر الحبيب ، انطلق مشرق النفس ، متفتح الآمال ، يشعر بقوة واعتزاز ، فقد كان يعود إلى حاضرة البلاد مرفوع الرأس ، ليستأنف سيره فى طريق سعده ، ليحقق حلمه الذى آمن به من كل قلبه .

انطلق يفكر ، فراح سيال فكره يبعث الماضى الدابر ، ويخلق المستقبل المرجو ، فيرى نفسه فى متنزه الناعورة بين رفاقه وهو يقول لهم إنه سيكون يوماً حاكم هذه الدولة ، ثم لا يلبث أن يرى نفسه فى قصر فاخر عجيب ، وقد جلس على سرير الملك والناس يدنون منه خاشعين ، وظل فكره يترجح بين صور الماضى تبهجه . وأمنيات المستقبل تسعده .

ودنا من الجبل المطل على قرطبة ، فأغذ السير ، حتى إذا أشرف على المدينة النائمة عند سفح الجبل ، نظر إليها خافق القلب ومد بصره إلى الجامع العظيم ، والقصر الجميل ، والقنطرة الرائعة والمدينة الهاجعة ، فهفت إليها نفسه ، ووقف يرقبها وهو نشوان .

وتذكر أحلام يقظته . إنه سيصدر أحكامه يوماً من تلك المدينة الجميلة إلى سائر مدن البلاد ، وتملكه زهوه ، فخيل إليه أن قرطبة بقصورها وحدائقها ، وروائع عمائرها ساجدة عند أقدامه ، تقدم له فروض الطاعة والولاء .

وانحدر إلى المدينة ، وانساب فى طرقاتها ، وما أن رآه الناس حتى خفوا لاستقباله ، وهرعوا إليه يحيونه ، ويظهرون سرورهم بمقدمه . كان من حسن حظه ، أن وفدت قبل قدومه بقليل ، أنباء انتصارات غالب ، وأسره الحسن بن كنون ، فلما أقبل هو من المغرب ، ميدان الانتصارات الجديدة ، أطلق الناس إحساسات الفرح المذخورة ، فراح يشق طريقه بين الجموع المهللة المكبرة ، وسار وقد امتلأ صدره بمشاعر فياضة من السرور ، فقد استقبل استقبال الغزاة الفاتحين .

وبلغ ميدان القصر فرقص قلبه فى صدره ، وربا سروره ، ولم يقدر على أن يملك شعوره ، فطفرت دموع الفرح من عينيه ، فقد عاد إلى الزهراء منصوراً ، ودخل إلى القصر على صهوة جواده ، حتى إذا بلغ باب السدة وترجل ، ألفى أصدقاءه يرحبون به ، ويحتفلون بقدومه .

ودخل على المصحفى ، فقام صاحب الدولة يصافحه ، وقد افتر ثغره عن ابتسامة ترحيب ؛ فابتسم ابن أبي عامر ابتسامة حلوة ، وإن كانت قد انتشرت فى صدره ابتسامة ساخرة عريضة .

وعلمت صبيحة بمجىء ابن أبي عامر ، فخفق قلبها ، وسرت فى بدنها قشعريرة ، وراحت تقطع الغرفة فى قلق جيئة وذهوباً . كانت تتمنى أن يقبل على عجل ، حتى يقضى على ذلك الاضطراب الذى استولى عليها ، فراحت ترصد الباب متلهفة ، وهى تصلح بيدها شعرها السبط المتهدل ، وثوبها الرائع الفتان .

وفكرت فيما تفعله عند مجيئه ، فرأت أن تبسط ذراعيها ، فإذا ارتمى فى أحضانها ضمته إلى صدرها الملهوف ، ولم تثر على تلك الفكرة ، ولم تحاول أن تطردها من مخيلتها ، بل استمرأت التفكير فيها ، فما عادت تخشى أن تعترف لنفسها بأنها تحبه ، فبعاده أثبت لها أنها تهواه ، ورسائله دعمت ذلك الغرام .

ومر الوقت وئيداً ، وأخيراً جاء من يلتمس منها الإذن لكاتبها بالمثول بين يديها ، فأذنت له بالدخول عليها ، وقد ثار قلبها ، فراح يقفز ثم يغوص ، ليعود ليقفز ثم يغوص ، وتدفق دمها حاراً فى عروقها ، ومشت الرهبة فى صدرها ، وغمرها اضطراب لذيذ ، وتعلقت بالباب عيناها الواسعتان الآسرتان .

ودخل ابن أبي عامر إلى غرفة الأميرة متطلق الوجه ، فرنت إليه صبيحة فى وله ، وأشرق وجهه بابتسامة عذبة جذابة

وهمت بأن تتقدم إليه ، ولكنها ألفت قوة طاغية تشدها إلى الأرض :
وقال الشاب فى صوت خافض أقرب إلى الهمس :

— مولاتى .

فقالت صبيحة فى صوت حلو ، فيه رنة فرح :

— حمداً لله على سلامتك يا محمد .

فقال الشاب فى رضا واغتباط :

— شكراً لك يا مولاتى .

ولم تجرؤ صبيحة على أن تبسط ذراعيها لتستقبل حبيبها الذى أضناها بعاده ، ولتضمه إلى صدرها الملهوف ، ليهدأ القلب الثائر المفتون .

٢٨

وعاد ابن أبى عامر إلى القصر ، فعادت إليه ثقته بنفسه ، ولو أنها لم تتخل عنه يوماً ، فقد اعتورها بعض الوهن لما طالت غيبته عن قرطبة ، وسار فى ردهات القصر ثابت الخطو ، راضى النفس ، متفتح الصدر ، فقد كان يؤمن فى تلك اللحظة بدنوه من أهدافه التى يحلم بها ، أكثر من أى وقت مضى ، كان يرى فى أوبته إلى قصر الزهراء دليلا على محالفة القدر له ، فما عاد إليه إلا ليرقى المجد حتى يتسنم الذروة ويبسط سلطانه على الجميع .

وفكر فى السياسة التى ينتهجها لتبلغه آماله ، فهداه فكره

إلى ضرورة عودة غالب إلى قرطبة . ليستعين به على إضعاف المصحفى ، وخضد شوكته ، فانطلق إلى الخليفة وقد عزم على أن يزين له ضرورة استدعاء قائده .

دخل على الحكم والمصحفى عنده ، وراح يثنى على غالب أعطر الثناء ، وهو يرنو إلى المصحفى بطرف عينه ، فيلمح ما يعتوره من تبدل وحنق ، فيشعر براحة ، كان يغبطه ما يسوء المصحفى ، وكان يرجو من كل قلبه أن تتاح له الفرصة التى يذل فيها حاجب الدولة ، فهو يحس نحوه مقتاً شديداً ، ولكنه ما كان بقادر على أن يسفر عن ذلك المقت ، فلا زال المصحفى قوياً .

وفكر فى أن يستغل جميع القوى ، حتى قوة المصحفى ، فى تحقيق مأربه ، فى مقدوره أن يلين جانبه للمصحفى وأن يتودد إليه حتى يكسب ثقته ، ويستغل نفوذ عدوه فى محق قوى أخرى قد تعترض سبيله يوماً .

ورأى من الحكمة ألا يبدى عداوته للمصحفى حتى يشتد ساعده ، ويحين الحين الذى يصبح فى طاقته أن يداعبه مداعبة القط لفريسته ، فأحجم عما كان قد بيت النية عليه ، كان قد رأى أن يلتمس من الخليفة استدعاء غالب من المغرب الأقصى فى حضرة المصحفى ، إذلالا له ، ولكنه رأى من الأصوب أن يفضى بذلك إلى الخليفة فى غيبة حاجب الدولة ، الذى يخشى على سلطانه من القائد الذى سار النصر فى ركابه .

وخلا ابن أبى عامر بالخليفة يوماً ، وقال له :

— لو تكرم مولاى وبعث إلى غالب بأن يفد إلينا وهو يسوق أمامه الحسن بن كنون وأهل بيته ومن أسر معه : لأعاد مولاى إلى البلاد يوماً من أيام أمجادها الحربية .

فطأطأ الخليفة رأسه . وشرد ذهنه ، وعادت به الذكريات إلى أيام كان ولياً للعهد ، فرأى نفسه شاباً على صهوة جواد كريم عائداً إلى قرطبة من حرب الإفرنج والأسرى بين يديه ، فانبسطت أساريره ، ولمح ابن أبى عامر انشراح الخليفة ، فشجعه ذلك ، فقال :

— أصبح وجود غالب فى قرطبة ألزم من بقائه فى المغرب الأقصى ، فقد هزم الأدارسة وقضى الأمر ، فماتت ثورتهم ، واستتب الأمن والسلام ، فإذا وفد إلى قرطبة بعد تلك الانتصارات رفع من روح الشعب ، وخلع قلوب الأعداء .

وصمت الشاب ، فنظر الخليفة إليه وفى عينيه رضا ، وقال :

— سنستدعيه يا محمد ، فهو خير قوادنا ورجل الملمات .

وخرج ابن أبى عامر من لدن الخليفة وقد أثلج صدره ، فسيعود غالب إلى قرطبة بفضل سعيه ، وسيعلم غالب ذلك ولا ريب ، وسيحفظ له تلك المكرمة ، وستزداد ثقته به ، فيسهل عليه تحريكه للقضاء على المصحفى ، وما أيسر ذلك ، فغالب يكره حاجب الدولة ، ولا يراه كفؤاً لما بلغه من مكانة .

وجاء المصحفى يعرض على الخليفة شئون البلاد ، فقال له الحكم :

— ابعث يا جعفر إلى غالب أن ينصرف إلينا . وأن يحمل معه الحسن بن كنون وزعماء الأدارسة .

فشعر المصحفى بمطرقة تهوى على رأسه . فقد حسب أن غالباً سيستقر بالمغرب الأقصى يدير شئونه ، وما حسب أنه سيخرج من قرطبة ليعود إليها متوجاً بالفخار ، وساءه أوبة غريمه لينازعه السلطان ، فقال ليثنى الخليفة عن عزمه :

— ولمن ندع المغرب الأقصى القائم على فوهة بركان يا مولاى؟

— لقد خمد البركان يا جعفر .

— أخشى يا مولاى أن يجمع العلويون فلولهم ، ثم يهبوا لاسترداد البلاد ، والله يا مولاى ما للمغرب الأقصى غير غالب .

— دك غالب معاقلهم ، وأخرجهم من البلاد ، وفرق فيها العمال .

— أرى يا مولاى أن ندع غالباً هناك .

فمد الخليفة بصره إلى لا شيء ، ورأى بعين خياله قائده وقد عاد إلى قرطبة ويحمل معه الحسن بن كنون وزعماء الأدارسة فقال فى حزم :

— اكتب يا جعفر إلى غالب أن ينصرف إلينا ، وأن يحمل معه الحسن بن كنون ومن معه .

فانقبض صدر المصحفى ، وأحس رأسه يدور ، ولم يستطع أن يعاود الاعتراض ، حتى لا يفضح خبيئة نفسه ، فقال فى خشوع :

— أوامر مولاى .

٢٩

طوت أسماء قلبها على حبها بعد مغادرة ابن أبي عامر المغرب الأقصى ، فقد صارت بينها وبينه بلاد ، وقر رأيها على أن تنتزع من فؤادها ذلك الغرام الذى بنى على الأوهام ، وآزرها فى تقرير ذلك أنها فشلت فى أن تلفت إليها نظره ، وما كان بينه وبينها أكثر من أشبار ، فكيف بها وقد صار بينهما فيافى وبحار ومروج ووديان ؟ وركنت إلى اليأس ، فهدأ قلبها واستقر استقرار العليل الذى خفت فيه نبض الحياة .

ودارت عجلة الزمن ، وأسماء تحيا فى دنيا الواقع المحسوس كما يحيا الناس ، تستقبل النهار دون احتفاء ، فما صار يعنيها أيقبل أم يدبر ، أيطول أم يقصر ، وتعيش فى الليل كما تحيا فى النهار ، فما عادت تسمع همس الليل الأخاذ بأحاديث السحر ، وما عادت نجومه توحى بأعذب المشاعر ، وأرق الإحساسات . لقد هيض جناح خيال أسماء ، فالتصقت بالأرض بعد أن عاشت فى أبراج الخيال ؛

وذاع فى قصر غالب نبأ الرسالة التى وردت من الخليفة ، وما إن بلغ أسماء أنهم منطلقون إلى قرطبة ، إلى البلدة التى فيها من جرح الفؤاد ، حتى ردت إلى طبعها الحالم ، وفكت عقال خيالها ، فخلقت لنفسها دنيا فسيحة ، أخذت تجوس خلالها حرة طليقة ، فغمرتها السعادة ؛ كانت تهنأ بالعالم الذى تهيئه لنفسها بنفسها ، أكثر من هناءتها بعالمها الذى يحده جدران .

رأت نفسها تدخل قرطبة فى ثياب حليت بزخارف بديعة ، وتهاويل رائعة ، وقد أسدلت نقاباً كثيفاً على وجهها ، ووقف ابن أبى عامر يتلفت فى لهفة إرصاداً لقدومها ؛ حتى إذا لمحها ، تقدم إليها متهلل الأسارير ؛ ومد يده ورفع نقابها ، ووضع يده فى يدها ، وسارا فى طريق مفروشة بالورود ، تعرج إلى السماء ، حتى بلغا قصراً شيد فى السحاب . وظلت أسماء تحلق صاعدة بأفكارها ، فقد كانت ملاكاً لا يطيب له العيش إلا فى السماء .

وتجهز غالب ، وحمل معه الحسن بن كنون وجميع ملوك الأدارسة ، وانطلق الركب الهائل إلى سبتة ؛ ليركب منها البحر ، ووقف الناس يشاهدون عودة القائد العظيم إلى بلاده . وهو يسوق بين يديه أعداءه ، فاعتملت فى صدورهم مشاعر متباينة ؛ هذا مغتبط لانتصار غالب ، وذاك مشفق على أسراه ، كل حسب هواه .

وتلفتت أسماء فوقع بصرها على الحشود الهائلة التى اصطفت على جانبى الطريق ، فصور لها وهمها أن تلك الجموع الزاخرة ما جاءت إلا لتوديعها ومشاركتها فى غبطتها لانطلاقها إلى بلد الحبيب.

واستمر الركب فى سيره ، يتعاقب عليه الليل والنهار ، حتى وصل إلى سبتة ، وركب منها البحر ، ولجت أسماء فى التصورات ، فما كانت تمد بصرها إلى شىء حتى تحيله رؤى وأحلاماً ، وشاركها طيف الحبيب تلك الرحلة التى جعلها خيالها أبهج رحلة فى الوجود .

واستقر غالب بالجزيرة الخضراء ، وكتب إلى الخليفة كتاباً يلتمس فيه الإذن بالدخول إلى قرطبة ، وبعث رسولا إلى قصر الزهراء ، وما إن وصل الكتاب إلى الحكم ، حتى كتب إلى قائده أن يقدم من فوره بمن معه .

وفتحت أبواب القصر ، وخرج الجند والعبيد والرماة يحملون التراس الملونة ، والأسلحة المزينة ، والسيوف المشهورة ، وانسابت فى طرقات قرطبة ، وركب الخليفة يحف به وزراؤه وقضاته ورجال دولته ، وخرج للقاء قائده الذى يعود متوجاً بأكاليل النصر والفخار .

رأى المصحفى قرطبة ، وقد خرجت لاستقبال غالب ، فأحس أبخرة الحسد تنتشر فى صدره فتضيقه ، حتى تكاد تخنقه ، وشعر بعقارب الغيرة تلسعه ، ولم ينجح فى كبت مشاعره فران على وجهه الحزن ، ولاح فيه الغيظ العميق ، ورنا ابن أبى عامر إليه ، فحرز ما يقاسيه من كرب ، فابتسم فى شماتة ، وراح يختلس النظر إليه وهو مسرور .

لمح غالب الخليفة ومن خرج معه لاستقباله ، فترجل عن جواده وتقدم فى خشوع ، حتى إذا دنا من الحكم حياه فى إجلال ، فمد الخليفة له يده ، وصافحه فى حرارة وقد افتر ثغره عن ابتسامة تقدير ، كان لها وقع فى قلب المصحفى أقسى من طعنة سكين .

وتقدم الحسن بن كنون مطأطىء الرأس ، حتى إذا بلغ الخليفة ، انحنى فى ذل ، وقال فى خضوع :

— السلام عليكم يا أمير المؤمنين .

وساد صمت رهيب ، وأرهفت الآذان ، واتسعت العيون ترى هل يرد الخليفة السلام ، فيكون فى ذلك الأمان للحسن ومن معه ؟ وقال الخليفة فى صوت هادئ :

— وعليك السلام يا بن كنون .

ومدت أسماء يدها تزيح ستر هودجها ، وتقلب بصرها فى الجموع تنقب عن حبيبها خافقة القلب ، ولمحته بالقرب من الخليفة فاضطربت وسرت فيها مشاعر لذيذة ، وخيل إليها أنه ينظر إليها ويبتسم ، ففاضت سعادتها ، وربا سرورها ، وسار الجميع فى طرقات قرطبة التى كانت تموج بالجماهير ، وشعر الناس بحرارة فى صدورهم ، وطغت حماستهم ، فانطلقت هتافات مدوية تشق عنان السماء ، وبقيت أسماء تشيد قصوراً فى الهواء على البسمة التى خلقها الخيال ، وترجمها وهمها إلى ما يرضى القلب العاشق الولهان .

٣٠

ذهبت صبيحة إلى جناح زوجها خافضة الرأس ، شاردة اللب ، وبان فى صفحة وجهها الجميل آيات النصب ، فقد أصاب الحكم فالج فلزم فراشه ، وسقطت الأميرة فريسة لأفكارها التى راحت تعذبها وتضنيها ؛ فكرت فى حالها إذا مات زوجها فهالها ما ينتظرها ، فالخليفة الجديد سينزل بقصر الزهراء ،

مقر الخلافة ، فعليها أن تدع القصر بعد ذهاب زوجها ، وأن تهجر أبهة الحكم . وأن تقبع فى قصر من القصور المبعثرة فى قرطبة مهملة فى زوايا النسيان .

وأفزعها أفول نجمها بعد تألقه ، وسلب السلطة منها بعد أن اعتادت أن تجمع فى يدها السلطان ، فقر رأيها على أن تتشبث بالحكم . وأن تغرى الحكم على نقل الخلافة إلى ابنها هشام ، فلو أنها نجحت فى ذلك لأبقت على نفوذها ، ولظلت تحكم الأندلس من وراء ستار . إن ابنها فى الحادية عشرة من عمره ، فإذا اعتلى عرش البلاد استمر الحكم فى يدها ، كما هو الآن .

وفكرت فى أن الأمة قد لا تقبل خلافة غلام ، فما جلس على عرش الأندلس خليفة لم يبلغ الحلم ، فكدرتها تلك الفكرة ولكنها رأت أن تبذل كل ما فى طاقتها من حكمة ودهاء ، لإقرار ذلك النظام ، ففيه وحده بقاؤها ودوام حكمها للبلاد .

وفكرت فى أن الشعب يحب الحكم ، ويضمر له الولاء ، فرأت أن تستغل ذلك الحب فى نقل الخلافة إلى ابنه هشام ، فلو أن الحكم بادر إلى أخذ البيعة لابنه ، لما اختلف عليه أحد ، واستراحت إلى تدبيرها ، فذهبت إلى زوجها ، لتخرج أفكارها إلى عالم الوجود .

دخلت على زوجها ، فألفت الوهن قد دب فى جسمه ، وذبلت عيناه ، وتكسر جفناه ، فقالت له وهى تنتزع ابتسامة :

— كيف أنت الآن يا مولاى ؟

فقال فى صوت خفيض :

ــ ثقل على المرض يا صبح .

ــ أنت بخير يا مولاى .

ــ لا ، يا صبح ، دنا يومى ، وحان أجلى ، والله يا صبح ما يقلقنى إلا مصير هذه البلاد .

وصمت الحكم قليلا ، ثم قال :

ــ إن ما تكهن به ذلك الكاهن يرن فى أذنى آناء الليل وأطراف النهار ، إن صوته يهتف بى ويصيح دواماً : « لا يزال ملك بنى أمية بالأندلس فى إقبال ودوام ما توارثه الأبناء عن الآباء ، فإذا انتقل إلى الإخوة وتوارثوه فيما بينهم ، أدبر وانصرم » إنى أومن يا صبح بحقيقة ذلك كل الإيمان .

ورأت صبيحة الفرصة قد سنحت لتنفيذ تدبيرها ، فقالت :

ــ وما الذى يقعد بك عن إنقاذ ملك آبائك ؟

ــ وماذا أفعل يا صبح ؟

ــ خذ البيعة لابنك هشام .

ــ هيهات !

ــ لماذا يا مولاى ؟

ــ سيحجم الشعب عن مبايعته ، وسيقاوم المغيرة تلك البيعة .

ــ لا يا مولاى ، إن شعبك يحبك ، وسيبايع عن رضا إكراماً لك ، أما المغيرة فلن يجرؤ على إعلان الخلاف .

ــ حبك لهشام يهون عليك الأمر .

— الأمر هين لو أقدم مولاى .

— لطالما فكرت يا صبح فى ذلك . ولطالما أحجمت بعد طول روية وتدبير .

— أقدم يا مولاى إنقاذاً لملك آبائك .

وساد الصمت برهة ، ثم قال الحكم فى عزم :

— سأفعل يا صبح لأحفظ ملك بنى أمية من الزوال .

وسرت راحة فى صدر صبح ، وصفا ذهنها المكدود ، وقال الحكم وقد أسبل عينيه ، وشرد بذهنه قليلا :

— إننا يا صبح مقبلون على عمل جسيم ، عمل جد خطير .

— وما وجه الخطورة فيه ؟

— أن يثور الناس .

— لن يثور أحد ، اطمئن يا مولاى .

فقال الخليفة فى نبرات ساخرة :

— ما أيسر الاطمئنان .

وقفزت إلى رأس صبيحة فكرة ، فما كانت تستطيع أن تنسى حبيبها ابن أبى عامر حتى فى تلك اللحظة فقالت :

— فلنأخذ الحيطة يا مولاى ، لو كان صاحب الشرطة من خلصائنا الأوفياء لأمنا سلوك الناس .

— هذا حق يا صبح .

— فلنختر لذلك أحد رجالنا المخلصين .

— من يا صبح ؟

وأطرقت صبيحة ، متظاهرة بالتفكير ، ثم رفعت رأسها ، وقالت :

ـ ماذا يا مولاى لو جعلنا ابن أبى عامر صاحب الشرطة فى البلاد ؟

فقال الحكم فى رضا :

ـ اختيار موفق يا صبح ، أفكارك اليوم صائبة كما هى على الدوام .

* * *

وأهم مرض الخليفة الصقلبيين الخصيين فائق وجؤذر ، كان الحكم يدنيهما منه ، ويصفح عن إساءاتهما ، فقد كانا أمينيه وثقتيه على الحريم ، فكان يلين لهما ، ويترفق فى معاملتهما ، وما كانا يدريان ما يكون نصيبهما إذا مات الحكم .

كانا صاحبى نفوذ فى القصر ، فتحتهما ألف من الصقالبة العبيد ، الذين لا يعصون لهما أمراً ، وكانا يتحكمان فى قوة كبيرة لا يستهان بها ، قوة لها جلالها وخطرها .

وكانا يمقتان المصحفى ، لصلفه وبخله الشديد ، وقد استمالهما المغيرة إليه بهداياه ، فأصبح لهما الضياع الواسعة ، فما أن اشتد المرض على الخليفة حتى اجتمعا ، وجعلا يتشاوران فيم ينتهجان من سياسة إذا قضى الحكم .

وفكرا ودبرا ، فرأيا أن يناديا بالمغيرة خليفة على الأندلس بعد موت أخيه ، لأنهما إذا فعلا ذلك كان لهما الفضل على الخليفة

فيمكن لهما فى الدولة ، ويقوى نفوذهما ، وفى اعتلاء المغيرة قضاء على المصحفى الذى يمقتانه أشد المقت ، وأخذا يرقبان ما يجرى فى القصر ، وينتظران موت الحكم ليأتيا بالمغيرة ، ليتربع على عرش آبائه الكرام .

٣١

دبت فى قصر الزهراء حركة غير مألوفة ، فقد تدفق عليه أعيان الدولة ، ووجوه الناس ، ولاح فى وجوه الجميع أمارات التساؤل ، فما كانوا يدرون فيمم استدعاهم الخليفة المحبوب الذى طال رقاده .

واصطف الجنود على جانبى الطريق المؤدى إلى بيت المنام ، فالخليفة راقد هناك لا يستطيع حراكاً ، وانطلق أكابر الأندلس إلى حيث كان الحكم ، فما إن أقبلوا على المجلس الشرقى ، حتى فتحوا أفواههم من الدهش ، فقد رأوا تماثيل رائعة غاية فى الروعة ، كانت من الذهب الأحمر ، مرصعة بأنفس الدرر ؛ كانت أسداً رابضاً ، وغزالا قائماً ، وتمساحاً فاغراً فاه ، وفى قبالتها انتصب ثعبان وعقاب وفيل ، وفى المجنبتين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحدأة ونسر ، وراحت جميعاً تنفث الماء من أفواهها فى هيئة رائعة تأخذ بالألباب .

ودخل الجميع على الحكم الممدد فى فراشه ، وانحنوا حتى

كادت جباههم تلمس الأرض . ثم أخذوا أماكنهم وقد التزموا جانب الصمت ، ودخل المغيرة يتبختر فى خيلاء . واتجه إلى أخيه وانحنى يحييه ثم جلس بالقرب منه .

ووقفت صبيحة خلف ستار . ترصد ما يجرى فى مكان الاجتماع فى قلق واهتمام ، وقد أرهفت حواسها جميعاً ، كانت تعلم خطورة ذلك الاجتماع ، ففيه سيكتب لها السعادة ، أو يحكم عليها بالشقاء ، وجعلت تقلب ناظريها فى الموجودين خافقة الفؤاد حتى إذا وقعت عيناها على المغيرة زاد وجيب قلبها . وشعرت بالمقت يتحرك فى صدرها . فالمغيرة مصدر قلقها ، فما كانت تخشى أن يشق عصا الطاعة سواه .

ووقف بالقرب من فراش المريض المصحفى حاجب الدولة وخلفه ابن أبى عامر وكيل هشام ولى العهد ، وصاحب الشرطة فى البلاد ، وما إن التأم عقد المجتمعين حتى نشر المصحفى صحيفة كانت مطوية فى يده ، وراح يقرؤها على الجميع .

أطرق الأعيان والأشراف وذوو النفوذ فى الأندلس ، وقد أعاروا المصحفى سمعهم ، وبان عليهم الاهتمام الشديد ، فالخليفة يعرض عليهم أن يبايعوا لابنه هشام من بعده ، وأخذت صبيحة تجيل عينيها فى وجوه الجميع ، محاولة استشفاف ما تكنه صدورهم ، وثبت بصرها على المغيرة ، خيل إليها أن لونه غاض ووجهه اكفهر ، فأحست رجفة تعتريها ، وانقبض صدرها كما ينقبض لنائبة حلت بها ، وتدثرت بالقلق الرهيب .

واستمر المصحفى فى القراءة ، ولجت صبيحة فى القلق والرهبة حتى إذا انتهى من قراءته دفع بالصحيفة إلى الناس ليوقعوها إقراراً منهم بأنهم قد بايعوا لهشام ، وقبلوه خليفة للأندلسيين .

وسارع الناس بالتوقيع دون روية وتدبير ، كانوا يحبون الحكم ، فرأوا أن يلبوا رجاءه ، وأن يحققوا أمنيته ، ولم ير المغيرة بداً من التوقيع ، فما كان يجترىء على الخلاف فى حضرة الخليفة الذى أمده مرضه بقوة طاغية فقد أسر مرضه قلوب الجميع .

وقام وجوه الناس وأعيان الأندلس ، وانصرفوا مشكورين ونهض المغيرة وانصرف وهو يبتسم ، وإن كان يحس مرارة فى فمه ، وخرج المصحفى وابن أبى عامر فى ركابه ، ليبلغاه حتى باب القصر الخارجى .

وغمرت السعادة صبيحة ، فلم تطق أن تصبر خلف الستار فأزاحته فى نشوة وهرعت إلى الحكم وقد افتر ثغرها عن اللؤلؤ النضيد ، وشعت عيناها الرائعتان ببريق الفرح ، وارتمت على صدره ، وجعلت تقبله هنا وهناك فى غبطة وجنون .

وانبسط الوجه الشاحب ، وابتسم الفم الذابل ، وتفتحت العينان المنكسرتان ، وهمس الحكم فى صوت خافض :

— ها قد نجح تدبيرك يا صبح .

— بل هزم إقدامك إحجامك يا مولاى .

— والله يا صبح ما أدرى ماذا كانت تساوى حياتى لو خلت منك ؟ !

فقالت صبيحة وطبعت قبلة شكر على فم زوجها ، ورنت إليه فى صفاء . وأقبل المصحفى وخلفه ابن أبى عامر ، فالتفتت الأميرة إليهما ، ورنت إلى الشاب ، وما كانت رنوتها إليه كتلك الرنوة التى منحتها الخليفة المريض ، بل كانت نظرة شحنت اشتهاء .

وقامت إلى المصحفى ، وتناولت الصحيفة ، وأخذت تتطلع إليها فى انشراح ، ثم استدعت خادمها ميسوراً ، وأمرته أن يحرر وثائق ، لتبعث بها إلى مختلف بلاد الأندلس والمغرب الأقصى ، ليوقعها الناس .

وأخذ ابن أبى عامر ، صاحب الشرطة فى البلاد ، تلك الوثائق ، وانطلق يجوس خلال الديار ، ثم عاد بها وقد وقعها الناس ، حباً فى إظهار إخلاصهم لخليفتهم الذى سادهم بالمحبة والوداد .

وأحست صبيحة أنها لم تعد تطيق بعد ابن أبى عامر عنها ، فقررت فى نفسها أن تبقيه بقربها على الدوام ، فدخلت على الخليفة ، وقالت له :

— أظهر ابن أبى عامر ولاء عظيماً لهشام ، وأرى أن نجعله بقربه ، فما ندرى ما تأتى به الأيام .

فهمس الخليفة :

— إنه وكيله يا صبح .

— أريد يا مولاى أن يكون معه فى القصر على الدوام ، يحرسه ويرعاه .

فأسبل الخليفة عينيه ولم ينبس ، وقالت صبيحة :

ـ فلنكلفه بالنظر فى الحشم ، فنتاح له فرصة السهر على هشام .

فغمغم الخليفة :

ـ افعلى يا صبح .

وأصبح ابن أبى عامر المفتش العام للقصر ، فصار الجميع فى قبضة يده ، بفضل حب صبيحة له ، وهيامها به .

٣٢

وبلغ أمراء الإفرنج مرض الخليفة ، فوسوست لهم نفوسهم بأن يستغلوا انشغال الدولة بمرض راعيها ، ويفجئوا الثغور بهجومهم ، فيضعوا أيديهم عليها ، وكانوا يعلمون أن الأندلسيين قد أهملوا تحصين المدن القريبة منهم ، بعد أن اطمأنوا لمعاهدة شنجة للناصر ، ومعاهدة أردون للحكم .

جمع أمراء الإفرنج الجموع ، وبعثوا سراياهم لمناوشة المدن الشمالية ، وتريثوا ليروا ما تخبئه قرطبة لهم ، ولكن قرطبة كانت غارقة فى سباتها .

لم يكن المصحفى رجل سيف ، فما كان يدرى ما يعقب المناوشة من مباغتة ، فلم يهتم كثيراً بتلك المناوشات ، ولم تقض منه المضاجع ، كان همه الأكبر أن يحيا حياته الرتيبة ، يبعد عنه منافسيه ، ويكدس خزائنه وخزائن الدولة بالأموال .

وكان ابن أبى عامر قد اطمأن إلى مكانته فى القصر ، فقر رأيه على أن يبدأ فى مهاجمة المصحفى فى الخفاء ، ليزعزع أركانه ، فما إن بلغه نبأ إغارة الإفرنج على الحدود ، حتى دخل على الأميرة وقد بيت النية على أن يوغر صدرها على حاجب الدولة ويرميه بالضعف والقصور .

التفت ابن أبى عامر إلى صبيحة ، وبرقت عيناه ببريق العزم ، وقال :

— إن ضعف المصحفى يرهبنى يا مولاتى ، وأخشى أن تجلب لنا استكانته للإفرنج المتاعب ، فإذا لم يهب الآن ليخضد من شوكتهم قبل أن يشتد ساعدهم ، فسنضطر إلى أن نخوض بحاراً من الدماء قبل أن نستعيد هيبتنا .

فأطرقت الأميرة تفكر ، فقفزت إلى رأسها صورة المغيرة ، كانت ترى فيه عدوها الأول ، كانت تريد أن تؤيد ابن أبى عامر فى رأيه الصائب ، ولكن كانت تخشى أن تبعث الجيوش لقتال الإفرنج ، فيثور أعوان المغيرة فى الداخل ، ويستولوا على البلاد .

ورفعت رأسها الجميل ، والتفتت إلى حبيبها بعينيها الرائعتين وقالت :

— هذا هو الرأى يا محمد ، ولكن . . .

وصمتت ، فلم تشأ أن تبثه مخاوفها ، فقال لها وهو يدنو منها :

— ولكن ماذا يا مولاتى ؟

ـ ولكن من الحكمة أن نتريث .

ـ الأناة لا تحمد يا مولاى ، إذا هب عدو يقرع أبواب الديار .

ـ والعجلة فى ملاقاة عدو طارىء لا تحمد ، إذا كان هناك أعداء رابضون فى عقر الدار .

وحزر ابن أبى عامر ما ترمى إليه فسكت ، وقد أرضاه أنه بدأ يبذر فى صدرها بذور الشك فى قدرة المصحفى ، وعاهد نفسه على أن يتولى تلك البذور ، حتى يأتى اليوم الذى يهون فيه حاجب الدولة ، فيسهل عليه زحزحته من مكانه ، وإزالته من طريقه .

وكان الحكم قد عفا عن الحسن بن كنون ومن معه من ملوك الأدارسة ، وأنزلهم قرطبة ، وأثبتهم فى ديوان العطاء ، فلما مرض الحكم وصـار الأمر فى يد المصحفى ، رأى بعينه الشحيحة أن الحسن والأدارسة السبعمائة الذين قطنوا قرطبة ، وأجرى عليهم العطاء ، يكلفون الدولة أموالا ضخمة ، ففكر فى أن يردهم إلى المغرب ، ليتخفف من نفقتهم ، ولما كان كل همه صيانة الأموال وتكديسها ، أقر تلك الفكرة ، ووجدها رشيدة كل الرشد ، فمشى إلى الحسن بن كنون ، واتفق معه على أن يرده وملوك الأدارسة ومن جاء معه إلى مراكش ، فوافق الحسن ، وخرج إلى المغرب الأقصى ، فاغتبط المصحفى لذلك الاقتصاد .

ولم يدم فرح المصحفى طويلا ، فما استقر الحسن بن كنون

بالمغرب ، بل ذهب إلى مصر ، ونزل على الخليفة الفاطمي ابن المعز لدين الله ، والتمس منه النصرة ، ومعاونته على الأخذ بثأره ، فوعده الخليفة الفاطمي خيراً ، فاغتم المصحفي : وبات يوجس خيفة .

وعلم ابن أبي عامر ، وكان يرصد فعاله ، ويحصي سقطاته ، بغلطته هذه ، فدخل على الأميرة يجسم لها ما ارتكبه حاجب الدولة من خطل الرأي ، ويهول لها فيما قد يترتب عن خطل رأيه من نتائج ، قد تعود على الدولة بأوخم العواقب ، وأفدح الأضرار .

٣٣

اشتدت وطأة المرض على الخليفة ، فكان يغيب عن الوجود ساعات ، ثم يفتح عينيه ويتلفت بنظره الشارد ، فإذا وقع على وجه صبيحة استقر قليلا ، وسرعان ما يسبل جفنيه ليروح في غيبوبة طويلة . كان الحكم يمضي آخر ساعاته على الأرض ، قبل أن يرحل إلى ملكوت السماء .

وكانت صبيحة تمضي الساعات بجواره ، تحنو عليه وترعاه وكانت تطرق برأسها وتترك لخيالها الحبل على الغارب ، فتفكر فيما ينتظرها من أحداث . كانت ترى نفسها محاطة بالأخطار ، فالإفرنج قد قرعوا طبول الحرب ، وأغاروا على الثغور ومدن الشمال ، وأعوان المغيرة يرصدون الحوادث ، ليثبوا في الوقت المناسب لانتزاع السلطان .

وأهمها فكرها ، ورأت ضخامة المسئولية الملقاة على عاتقها ، فارتجفت رهبة ، فأى تهاون منها قد يقود البلاد إلى حرب أهلية فيغرى ذلك العدو الخارجى بأن يوغل فى تقدمه ، حتى يطعن حاضرة البلاد ، ورأت أن مستقبلها ومستقبل ابنها ومستقبل الديار رهن بحسن تصرفها ، فعزمت على أن تعمل فى حيطة وحذر وأن تستغل كل مواهبها ، وكل ما منحتها الطبيعة من أسلحة ، لتخرج من هذه المعركة المرتقبة ظافرة .

وانقضى النهار ، وجاء الليل، وبدا أن هذه آخر ليلة للخليفة فى الوجود ، فبعثت إلى الخصيين فائق وجؤذر ، وأمرتهما أن يمكثا مع الخليفة ، وذهبت إلى مخدع قريب ، لتريح جسدها المكدود ، وتصرم الوقت ، وغلبها النوم فراحت فى سبات .

وهبت صبيحة من نومها مفزوعة على صوت طرق على الباب ، فحزرت كل شىء ، علمت أن الخليفة قد قضى ، وخلف لها ملكه وولده وديعتين بين يديها . وسارت إلى حيث كان الحكم ، وقد سرت فى جسمها قشعريرة ، وحلت الرهبة بصدرها ، ووقفت بالقرب من زوجها المسجى ، وأطرقت وقد غام وجهها حزناً ، ولكنها لم تجزع ولم تصرخ ، فقد رأت أن تكتم ما بها ، حتى تنفذ ما استقر عليه عزمها فى صمت ، ودنت من فائق وجؤذر ، وقالت لهما :

— ينبغى ألا يعلم أحد بموت الخليفة .

وفطنا إلى ما تهدف إليه من ذلك ، كانت تريد أن تدبر

أمر المناداة بابنها خليفة على الأندلس ، قبل أن تعلن خبر وفاة أبيه
ولما كان ذلك يقوض تدبيرهما ، نظر كل منهما إلى رفيقه .
وتسللا من الغرفة ، وتركا الأميرة وزوجها الهامد ، الذى أصبح
لا حول له ولا سلطان .

وذهبا يتناجيان ، فها هى ذى الفرصة قد سنحت ليناديا
بالمغيرة خليفة على الأندلسيين ، وليتخلصا من نفوذ المصحفى
البغيض . فلو أن هشاماً جاء بعد أبيه لظل المصحفى الشحيح جاثماً
فوقهما ، واستمرا يتحادثان فيما يتخذانه من خطوات ، ليقلدا
الخلافة المغيرة .

وبقيت صبيحة تفكر وتدبر ، ووجدت أن ما ينتظرها أكبر
من أن تقوم به وحدها ، فبعثت فى استدعاء المصحفى وابن أبى
عامر ، ليتعاونوا جميعاً على استخلاص العرش مما يحدق به
من أخطار ، وظلت ترقب مجيئهما نافدة الصبر ، وما دار بخلدها
أن المؤامرة على العرش تحاك فى قصرها ، وعلى يد غلمانها ،
وعلى قيد خطوات منها !

التفت جؤذر إلى فائق وقال فى حزم :

— ينبغى أن نحضر جعفر بن عثمان الحاجب ، ونضرب عنقه
فبذلك يتم أمرنا .

ولاح فى وجه فائق الاستنكار ، وقال :

— سبحان الله يا أخى ! تشير بقتل كاتب مولانا ، وشيخ
من مشيختنا دون ذنب ، ولعله لا يخالفنا فيما نريده مع افتتاحنا
الأمر بسفك الدماء .

ـ هو والله ما أقول لك .

ولمحا المصحفى مقبلا يغذ السير ، فذهبا إليه وقالا له :

ـ مات مولانا الساعة .

فقال المصحفى وهو ينقل بصره إلى وجهيهما ، يحاول أن يستشف ما يخفيان :

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله .

وقال جؤذر :

ـ إن هشاماً لا زال غلاماً ، وقد رأينا أن نقلد الخلافة أميراً أكبر منه سناً ، وأنضج تجربة ، وقد وقع اختيارنا على المغيرة .

وشعر المصحفى بجفاف فى حلقه ، كان أمام مؤامرة دبرت بليل ، وأيقن أنه لو عارضهما لكان فى ذلك حتفه ، فى القصر ألف مملوك من الصقالبة الشداد ، يسايرهما ، فقال لهما :

ـ هذا هو الرأى .

ـ وقد رأينا أن يقر ابن أخيه هشاماً على العهد بعده .

ـ راى سديد .

ـ وسندعو الناس الآن إلى مبايعة المغيرة الرشيد ، فما رأيك أنت ؟

فقال المصحفى فى حرارة :

ـ هذا والله أسد رأى ، وأوفق عمل ، والأمر أمركما ، وأنا وغيرى فيه تبع لكما ، فاعزما على ما أردتما ، وأنا أسير إلى الباب ، فأضبطه بنفسى ، وأنفذ أمركما إلى بما شئتما .

وسار المصحفى إلى باب القصر ليضبطة ، وفكره يعمل ، فقد وقع فى ورطة لا يدرى كيف الخلاص منها : كان يرى فى تقليد الخلافة المغيرة هلاكه ، وفى إظهار الخلاف أو إتيان أى حركة مريبة هلاكه ، فلا زال الحصيان الرهيبان فى القصر ، ومن يدرى ، فلعلهما يصدران الآن أوامرهما إلى أتباعهما بإطاحة رأس كل من توسوس له نفسه الخروج عليهما .

٣٤

وخف ابن أبى عامر إلى حيث كانت الأميرة ، وانتظر مجىء المصحفى ، ومر الوقت وئيداً وئيداً ، فأظهرت صبيحة تبرمها من ذلك التأخير ، إن كل لحظة تمر دون عمل قد يكون فيها إضاعة للخلافة ، وتسرب الأمر من أيديهم .

ولاحظ ابن أبى عامر قلقها ونفاد صبرها ، فقال لها :

— إنى ذاهب لأنقب عنه فى القصر يا مولاتى .

وهم بالتحرك ، فقالت له :

— مهلا ، إنى ذاهبة معك .

وانطلقا يجوسان خلال القصر ، حتى إذا اقتربا من بابه ، سمعا لغطاً ، فأرهفا السمع ، وقد تدثرا بالخوف ، حسباً أن هناك مؤامرة تدبر ، وتقدما على حذر ، حتى صك آذانهما صوت المصحفى وهو يقول :

— لقد نكث الصقالبة بيعة هشام ، وإن فائقاً وجؤذر يريدان أن يقلدا الخلافة المغيرة .

فأحست صبيحة يداً قوية تعصر قلبها ، ودمها يثور فى عروقها ، وفكر ابن أبى عامر فيما سمع ، فوجد أن هناك عدواً آخر لم يحسب له حساباً ، عدواً ينبغى القضاء عليه قبل أن يناصب المصحفى العداء . فقرر أن يهادن المصحفى ، حتى يقطع دابر الصقالبة العتاة .

وسارا ، صبيحة وابن أبى عامر ، حتى أشرفا على الجمع ، فقد نجح حاجب الدولة فى إحضار بعض أصحابه وأقاربه وبطانته من الجند وبعض القواد ، فاشتد بهم ساعده ، وراح يبثهم مخاوفه فأخذ يقول :

— إن أبقينا على ابن مولانا ، وحبسنا عليه الدولة ، أمنا على أنفسنا ، وصارت الدنيا فى أيدينا ، وإن انتقلت إلى المغيرة ، استبدل بنا ، وطلب شفاء أحقاده .

وارتفع صوت صبيحة تحرضهم على مناوئيها فى الملك ، فقالت فى صرامة آمرة :

— ينبغى قتل المغيرة قبل أن يبلغه موت أخيه :

فارتفعت أصوات المجتمعين :

— أجل ينبغى قتله ، لابد من قتله .

فقال جعفر المصحفى :

— هذا هو الرأى ومن يتولى كبره ؟

فساد السكون ، ولم يتقدم أحد لإنفاذ الاقتراح الذى وافق عليه الجميع ، حتى القواد ورجال السيف أطرقوا رؤوسهم ، ولاذوا بالصمت العميق ، فما أيسر أن يقرر الفئران تعليق الجرس فى رقبة القط ، وما أصعب التنفيذ .

وساء صبيحة ما رأت من نكوص ، ولكنها لم تيأس فقد بقى لها ابن أبى عامر الحبيب ، فنظرت إليه بعينيها الساحرتين ، كأنما تسأله أن يتقدم ، وأن يقتل المغيرة إكراماً لعينيها ، وما إن لمح ابن أبى عامر نظراتها ، حتى فطن إلى ما تلتمسه منه ، فقال :

— أنا أتحمل ذلك عنكم .

وردت الحياة إلى المجتمعين ، كان كل منهم يهاب أن يلطخ يديه بدم المغيرة ، فيكسب عداوة أنصاره الكثيرين ، وهدأت أنفاسهم المكروبة ، وراحوا يعاودون الحديث ، وما أهون الحديث ، فقالوا له فى راحة :

— أنت أحق بتولى كبره لخاصتك بالخليفة هشام ، ومحلك من الدولة .

وانطلق ابن أبى عامر إلى المغيرة ، وانطلق معه مائة غلام من غلمان الحكم ، فلما بلغوا قصره ؛ ألفوا كل شىء هادئاً ، فأحاط الغلمان بالقصر ، واندفع ابن أبى عامر داخلا لا يلوى على شىء ، حتى ألفى نفسه أمام المغيرة وجهاً لوجه .

كان المغيرة مطمئناً فى جلسته ، فما كان يدرى ما يجرى

خارج قصره . فلما رأى ابن أبى عامر منتصباً أمامه ، تطلع إليه فى دهش ، ونظر إليه فى استغراب ، كأنما يسأله عما جاء به الساعة ، وفطن ابن أبى عامر إلى الانفعالات التى ارتسمت على وجهه ، فدنا منه وقال :

— مات الخليفة .

— لا حول ولا قوة إلا بالله .

— وتقلد الخلافة ابنه هشام .

— أسأل الله أن يجعل أيامه كلها سعادة وأمناً .

فرنا إليه ابن أبى عامر وقال :

— وقد خشى الوزراء خلافك ، فأنفذونى لأعرف رأيك .

فاتسعت عينا المغيرة ، وبان فيهما الهلع ، فقد فطن إلى ما يرمى إليه كاتب صبيحة ، فقال فى تخاذل :

— سبق أن بايعت لهشام فى أيام أخى رحمه الله .

— ولكن الصقالبة نقضوا بيعتهم .

فقال المغيرة فى جزع :

— ومالى والصقالبة ؟

— أرادوا أن يقلدوك الخلافة .

— لا مطمع لى فيها .

— والله ما بعثونى إلا لقتلك .

فارتجف المغيرة ، واشتد ذعره ، وقال وهو يرتعد هلعاً :

— إنى سامع مطيع ، موف ببيعتى ، فتوثقوا منى كيف شئتم .

فقال ابن أبى عامر فى رثاء :

— نفذ السهم ، وحم القضاء .

— لن تجنوا شيئاً إذا أهرقتم دمى ، إنى سامع مطيع ، إنى سامع مطيع .

— لن نجرع إلا كأس المنون .

فقال المغيرة والدموع تطفر من عينيه :

— أناشدك الله يا محمد فى دمى ، وألتمس منك أن تراجعهم فى أمرى ، فما أظهرت خلافاً ، ولا شققت عصا الجماعة ، إنى سامع مطيع . . إنى سامع مطيع .

وأثر توسل الأمير فى نفس ابن أبى عامر ، فأشفق عليه ، ورق له قلبه ، فقال له :

— سأراجعهم فى أمرك .

وراح يكتب إلى المصحفى ، يصف له ما عاينه من المغيرة من الطمأنينة ، والجنوح إلى المسالمة ، ويسأله رأيه ، وبعث إليه بكتابه ، وانتظر ورود كتاب المصحفى .

وأخذ الوقت يمر ثقيلا ، وغاض لون المغيرة ، واضطربت أنفاسه ، واستولى عليه جزع شديد ، حتى كاد يقضى من الروع . وأخيراً عاد الرسول بكتاب المصحفى ، ودفعه إلى ابن أبى عامر فقرأه ، ثم دفع به إلى المغيرة ، فنظر إليه بعيون زائغة ، وما انتهى من قراءته حتى جعل ينوء من الإعياء ، فالمصحفى لم يقبل شفاعة ابن أبى عامر ، بل أخذ يلومه على التأخير ، وخرج ابن أبى عامر

وقد أطرق مهموماً ، فما كان يحب أن يلوث يديه بدم أمير أظهر جنوحه إلى المسالمة والرضا بخلافة ابن أخيه ، وما إن خرج ابن أبي عامر حتى دخل الجند على المغيرة .

وسار ابن أبي عامر مطأطىء البصر ، وما ابتعد خطوات حتى صك أذنيه صوت المغيرة المفزوع ، وأخذ الصوت يخفت ويخفت حتى زال من الوجود ، وخرج الجند يزعمون أن المغيرة قد خنق نفسه ، لما أكرهوه على الركوب لابن أخيه .

٣٥

بلغ صبيحة مقتل المغيرة ، فهدأت نفسها ، ومشت إليها الطمأنينة ، فدثرتها بدثارها ، وانتشت روحها ، فقد انزاح من طريقها عدوها الألد ، الذى كانت تمقته من كل قلبها ، وترى فيه الخطر الدائم الذى يهددها ، كانت تكرهه كرهاً بغيضاً ، كرهاً ليس يبرره إلا وساوسها ومخاوفها ، فما حاول المغيرة يوماً أن ينازعها سلطانها ، وما أبدى استياءه لاستبعاده عن الخلافة . لعله تمنى يوماً أن يكون خليفة للأندلسيين ، وإن من حقه أن يتمنى ، فما جلس على عرش البلاد حدث قبل هشام ، ولكن ما كان من حق صبيحة أن تجرعه المنون لمجرد وساوس وتخيلات .

حاول فائق وجؤذر أن يقلداه الخلافة ، لأنهما وجداه أنضج من هشام ، ولأنهما شاءا أن يطوقا جيده بجميلهما ،

فيمكن لهما فى الحكم ، ويبسط من نفوذهما . كانت مؤامرة الخصيين الصقلبيين لحسابهما ، ولكنها كانت وبالا على الأمير الشاب.

ولف السرور صبيحة ؛ فراحت تفكر وتهيم فى متاهات الخيال ؛ فرأت الجو قد صفا لها ، وأنها ستحكم الأندلس سافرة بعد أن كانت تحكمها من عشر سنين خلت من وراء ستار ؛ أصبحت الوصية على الخليفة ، فهشام لا يزال فى الحادية عشرة ؛ فصارت لها الكلمة العليا فى البلاد .

وفكرت فى ابن أبى عامر ، حبيبها الذى أظهر لها غاية الإخلاص ، وقتل المغيرة ، ليمكن لها فى الأرض ، فرأت أن تكافىء وفاءه ، بأن تشركه معها فى إدارة دفة الأمور . إنها تقدر فيه ولاءه ، وتعترف بذكائه ، وتحب بقاءه إلى جوارها دواماً ؛ وتستريح إليه ، فذلك القرب ينعش روحها ، ويبهج فؤادها .

ولجت فى التفكير ، فحملها فكرها بعيداً ، وراحت تحاول أن تهتك حجب الغيب ، لترى ما يكون حالها إذا كبر هشام ؛ فرأت بعين خيالها ابنها ، وقد تربع على العرش ، وجمع السلطة فى يديه ، وتركها فى القصر فى بيت النسيان ، فجزعت ، فما كانت تحب أن ترى نفسها مقصية عن الحكم وقد تعودت لذة السيادة والسيطرة ، إنها لا تطيق أن ترى غيرها يأمر ويسود ، وإن كان ابنها الوحيد .

وخطر لصبيحة أن تكلف مربيه أن يشغله بأمور الدين ؛

يلهيه بآثار الصالحين ، حتى إذا شب وجد ما يلهيه عن التطلع إلى ممارسة الحكم الذى تقوم هى بأعبائه نيابة عنه ، واستراحت إلى ذلك الخاطر ، فجلبت لابنها معلماً ينفذ سياستها ، وتركت ابنها بين يديه مهملا فى زاوية من زوايا القصر الهائل الفسيح .

ووفد ابن أبى عامر إلى القصر بعد مقتل المغيرة ساهماً ، ممعناً فى التفكير ، وقد بدت عليه أمارات الضيق . إنه استجاب إلى نظرات صبيحة ، لأنه حسب أن المغيرة قد حاك تلك المؤامرة التى قام بها الخصيان ، وذهب ليغتاله على اعتبار أنه شريك نقض بيعته ، ولكنه ما اقتحم عليه داره ، حتى ألفاه هادئاً ، خالى البال لا يدرى شيئاً عما يجرى فى قصر الزهراء . إنه اقتنع بكل جوارحه أنه بعيد عن دسائس فائق وجؤذر ، وقد كتب إلى المصحفى بما رأى ، وكان يطمع فى أن يعفيه حاجب الدولة من إراقة دم شاب برىء ، ولكن المصحفى كتب له فى سخرية مريرة : « غررتنا من نفسك ، فانفذ لشأنك ، أو فانصرف نرسل سواك » فلم يكن أمامه إلا التنفيذ .

وفكر فى أن دم المغيرة فى عنق صبيحة ، فهى التى أشارت بقتله لتنقذ العرش ، ولكنه التمس لها العذر ، فقد فوجئت بالمؤامرة التى دبرت بليل ، فظنت أنها من تدبير المغيرة ، كما ظن هو فى بادىء الأمر ، ولكنه لم يستطع أن يلتمس المعاذير للمصحفى ، فقد كتب له يوضح حال الشاب ، فلم يقتنع ، وأصر على اغتياله

كأنما شاء أن يظهر ابن أبي عامر أمام الملأ سفاكاً ، يهوى الولوغ في دماء الأبرياء .

واغتاظ ابن أبي عامر ، وحنق على المصحفي ، ولكنه اضطر إلى أن يكظم غيظه ، وأن يدارى حنقه : فقد رأى أن الوقت لم يعد صالحاً لإظهار عداوته للمصحفي ، فهناك علو جديد ينبغى استئصاله قبل أن يناصب حاجب الدولة العداء ، لقد انكشف لعينه خطر الصقالبة ، فقر رأيه على أن يتخلص منهم أولا . وعلى أن يسخر قوى المصحفي في القضاء عليهم .

وعلم فائق وجؤذر ما أصاب المغيرة ، فاغتما ، ونزل بهما هم ثقيل ، وأيقنا أنه لم يعد لهما مأمل في النجاة إلا بالاعتذار عما بدر منهما ، وطمأنهما أنهما كانا يعلمان مبلغ سطوتهما ، فتحت إمرتهما ألف مملوك من الصقالبة ، لا يعصون لهما أمراً ، وأن المصحفي يرهب جانبهما ، ويخشى بأسهما .

والتفت جؤذر إلى فائق ، وقال في عتاب وهما منطلقان إلى المصحفي :

— قد نصحت لك فلم تسمع مني ، فلو أننا ضربنا عنقه لما حدث ما جرى .

فقال فائق في استخفاف :

— هون عليك ، فما زال بيننا وبينهم حروب طوال .

ودخلا على المصحفي ، ونكسا رأسيهما إظهاراً للندم ، وقال فائق :

— جئنا نلتمس الصفح عما بدر منا . إننا ما إن رأينا مولانا — طيب الله ثراه — يجود بأنفاسه بين أيدينا ، حتى طاش عقلنا .

وقال جؤذر فى نبرات حاول أن توحى بالندم :

— إن الجزع أذهلنا عما أرشدك الله إليه ، فجزاك الله عن ابن مولانا خيراً ، وعن دولتنا وعن المسلمين .

ورنا المصحفى إليهما ، وفى عينيه سخرية ، ولكنه ما كان بقادر على أن يعمل لهما شيئاً ، كان يعلم أنه إذا بادرهما بالعقاب أحدث فى القصر ثورة ، فرأى أن يتريث ، فقال لهما :

— إن من خطل الرأى أن يبادر الإنسان بتنفيذ أول خاطر يقفز إلى رأسه ، لقد كان تصرفكما جريمة فى حق الخلافة ، ولكننا سنعفو عنكما ، اذهبا ، لا بأس عليكما .

وخرج فائق وجؤذر ، ودخل ابن أبى عامر ، ليعلن عن إخلاصه للمصحفى ، ويحذره من الصقالبة العبيد ويوغر عليهم صدره .

٢٦

عفا المصحفى عن فائق وجؤذر مرغماً ، فقد كانت الحوادث أقوى منه ؛ وخشى أن يؤلبا عليه دولة الصقالبة ، التى تسيطر على القصر ، وما كان يدرى بعد أصدقاءه من أعدائه ، فقتل المغيرة ملأ نفوساً بالبغض للسلطة الجديدة ، وما أعلنت تلك النفوس بعد عما تخفى من حقد ، فخاف إن هو بادر الخصيين

القويين بالعداء ، أن يثب الموتورون وثبتهم ، منتهزين فرصة انشغاله باستئصال الصقالبة الذين تكشفت نياتهم .

وقبلت صبيحة توبة المملوكين ، على الرغم من وهن عذرهما وافتضاح غدرهما ، فهما حرس الحريم ، وصاحبا النفوذ الكبير فى القصر ، فى قيادتهما كثير من الغلمان والعبيد ، وقد اعتادت صبيحة أن ترى إغضاء الخليفة الراحل عن كثير من إساءاتهما ، فرأت أن تفتتح عهدها بالعفو الكريم .

ولم يأسرهما ذلك العفو ، ولم يلطف من بغضهما للحكم الجديد ما أبدته صبيحة نحوهما من عطف ، على الرغم من ضخامة جرمهما ، فقد ساءهما قتل المغيرة وأوغر صدريهما ، وزاد من حقدهما إخفاق ما بيتا من تدبير .

واندس الخصيان وأعوانهما بين الناس ، وراحوا يقدحون فيمن اغتالوا الأمير البرىء ، ولجوا فى ذم المصحفى ، واتهموا صبيحة بأنها دبرت ذلك الانقلاب ، ليخلو لها الجو ، فما أصبح الأمر أمر الخليفة الغلام ، ولكنه بات أمر صبيحة ، وأذاعوا لتحريك النفور فى الصدور أن الأندلس جميعها صارت ألعوبة فى يد امرأة .

وانشغل الصقالبة فى إذكاء نار الثورة فى صدور الناس ، فانطلقوا يجوسون خلال الأسواق والبلاد ، ولم يهتموا بمن فى القصر ؛ كانوا مطمئنين إلى من فيه ، فهم غالبية غلمانه ، والمنوط بهم ضبط بابه . ولم يغب عن ابن أبى عامر نشاط الصقالبة

فلم يجزع . ولم يهب لمنازلتهم فى الأسواق والبلاد ؛ ولكنه رأى بعقله الراجح أن ينازلهم فى معتقلهم ؛ فإذا نجح فى أن يزلزل أقدامهم فى القصر نفسه . صار القضاء عليهم أمراً تافهاً لا يشغل البال .

وراح ابن أبى عامر يعمل على طريقته ، جاهداً فى استمالة الغلمان إلى جانبه . فكان يكسب قلوبهم بالألفاظ المعسولة ، وكثرة البذل والعطاء . ونجح فى استمالة كثير منهم : فاطمأن إلى من فى القصر ؛ وبدأ يفكر فى القضاء على ما بذره الصقالبة فى صدور الناس .

كان الصقالبة ملئوا الأرض إذاعة بأن هشاماً المؤيـــد بالله حبيس القصر ، وأنه ستار يختفى خلفه الحكام الحقيقيون ؛ المصحفى وصبيحة وعشيقها . وظلوا يؤلبون الناس وينفخون فى نار نقمتهم ، حتى تغيرت النفوس . ومما عاون على تبرم الجماهير احتجاب الخليفة ، فقد اعتادوا أن يروا خلفاءهم بينهم بين آن وآخر . كان الحكم يخرج إليهم ، ويذهب إلى الجامع الكبير . أما هشام فلم يره الناس منذ قلد الخلافة ، فقد اعتكف فى القصر ، وتوارى عن الأنظار .

ووجد ابن أبى عامر أن خير وسيلة للقضاء على إذاعات الناقمين ، أن يظهر الخليفة للشعب ، فدخل على الأميرة وقال لها :

— إن الفتنة قد أخرجت خطمها وعينها ، ولم يبق إلا أن تثب .

فأطرقت صبيحة برأسها ، ثم قالت :

— ماذا دهى الناس ؟

— سرت النقمة فيهم . وبدت بوادر التذمر والاستياء .

— وماذا ترى يا محمد ؟

— أرى أن نرهبهم ونخفف عنهم . وأن نشغلهم عما يذيع الناقمون .

— وكيف نرهبهم ونخفف عنهم فى آن ؟

— أن نقوم بعرض الجند . إظهاراً لهيبة الدولة . وإرهاباً لأهل الخلاف ، وأن نسقط إحدى الضرائب التى يبغضها الناس .

فرنت إليه صبيحة فى إعجاب . وقالت :

— هذا هو الرأى .

وقال ابن أبى عامر وقد سره رضاء الأميرة :

— وأرى يا مولاتى أن يخرج الخليفة للشعب ، فالجماهير كالأطفال يلهيهم أتفه شىء . إذا خرج الخليفة الصغير للناس ، تفتحت له أفئدتهم ، وتحركت عواطفهم ، فنزل فى سويداء قلوبهم . إن حداثته ستعمل عمل السحر فى نفوس الناس . ستعبث بالقلوب ، وتغسل من الصدور الأحقاد .

وتألقت عينا صبيحة الجذابتان ببريق الغبطة . والتفتت إلى ابن أبى عامر ، وقالت :

— سيخرج هشام للشعب اليوم ، وستخرج يا محمد بين يديه .

وانسحب ابن أبى عامر ليتأهب للخروج بين يدى مولاه ، وبقيت صبيحة تفكر فى أمر ذلك الشاب العجيب الذى تهواه ،

ويخفق له فؤادها . إنه راجح العقل داهية من الدهاة ، شديد الإخلاص ، إنه يستحق أن يصبح وزيراً يعتمد عليه . واستولت عليها تلك الفكرة ، فأصدرت الأوامر بأن ينتظم ابن أبى عامر فى سلك الوزارة ، ولم تكتف بذلك ، بل بعثت إلى المصحفى حاجب الدولة ألا ينفرد عن ابن أبى عامر برأى . وتدفقت الجند من القصر كالسيل ، واصطفت على جانبى الطرق فى قرطبة ، فذاع بين الناس أن الخليفة خارج لشعبه ، فأقبلت الجماهير من كل حدب وصوب ، فاكتظت الشوارع بالأجسام ، وتكدس الناس فوق الأسطح ، وانطلق ركب الخليفة الهائل فى شوارع قرطبة ، ومحمد بن أبى عامر بين يديه . وما أن وقعت الأبصار على الخليفة الغلام حتى خفقت القلوب ، وانطلقت الهتافات ، وظل الركب يطوف بقرطبة وإحساسات الفرح تمور فى الصدور .

وعاد الخليفة إلى الزهراء ، وما إن بلغ القصر ، حتى أمر بإسقاط ضريبة الزيتون ، وعلم الناس بأمر تلك الضريبة التى أسقطت عن كاهلهم ففرحوا ، وفاض فرحهم ، فأخذوا يطوفون بقرطبة يهتفون للخليفة العادل .

ورأى ابن أبى عامر سرور الشعب لرفع تلك الضريبة ، وثناءه على الخليفة ، فطمع فى أن ينال رضا الناس وحبهم له ، فدس بينهم أعوانه يذيعون أن رفع تلك الضريبة كان من تدبيره فأصغت الجماهير إلى ما يذاع وقد امتلأت قلوبهم حباً للوزير ، الذى عرف بعطفه وحدبه على الشعب .

٣٧

تفتحت أسماء . ونهد صدرها . واكتملت أنوثتها . فقد أنضجتها السنون ، وترقرق الدم فى وجنتيها ، وتألقت عيناها ببريق حلو ، فازدادت نضارتها ، ونبضت الحياة فيها دافقة قوية ، وعلى الرغم من تلك الحيوية ؛ ظلت مسحة الضعف المحببة إلى قلوب الرجال تكسو وجهها الجميل ، فتزيد حلاوتها . كانت تلك المسحة كنقاب شفاف أسدل على وجه رائع الحسن ، فيشوق النفوس إلى الرنو إلى الوجه العارى المستور ، والتحديق فيه لاستجلاء ما يحجب النقاب من مفاتن .

تبدلت هيئة أسماء ، فقد امتلأ جسمها قليلا ، وربا جمالها ، وطغت روعتها ، ولكن لم تتبدل روحها الهفهافة السابحة فى سموات الخيال دواماً ، فما نجح كر السنين فى إهاضة أجنحة خيالها فهبط لتعيش على الأرض كما يعيش الناس ، بل ظلت على حالها هائمة فى دنياها الحالمة ، التى كانت تخلقها فى نفسها .

كان رأسها يتسع لعالمها البهيج الذى تتخيله ، فكانت تحيا حياتها الجميلة ، تتصور ما تشتهى من أحداث ، وتنفعل لما يجرى فى مسرح خيالها ، فتغمرها النشوة ، وتستولى عليها مشاعر حالمة لذيذة .

وظلت أسماء تفكر فى ابن أبى عامر ، فما أوهن ترادف السنين ما تشعر به نحوه ، بل إن كثرة تفكيرها فيه جعله قريباً منها

أقرب من غالب أبيها الذى تجمع بينها وبينه دار واحدة . أصبح طيفه قطب تفكيرها ؛ والمحور الذى تدور حوله دنياها .

وكان يؤجج نار صبابتها كثرة رؤيتها ابن أبى عامر ، كان يفد إلى دارهم ليزور أباها ، فكانت ترصد إقباله وإدباره واجفة القلب ، مكروبة الأنفاس ، حتى إذا غاب عن عينيها ، خلت بنفسها لتحضره فى خيالها ، فتنعم بقربه ، وتهنأ بحديثه ، وتحيا معه فى دنيا الأحلام .

وترامى إلى سمعها أن حبيبها خارج بين يدى الخليفة فى موكبه العظيم ، وقد أنهض إلى خطة الوزارة فانتشت روحها ، وشاعت البهجة فى صدرها ، وتدثرت بالفرح ، فقد سرها رفعة حبيبها ؛ ولم تطق أن تمكث فى الدار دون أن تكتحل عيناها برؤية فارسها فانطلقت إلى أبيها تلتمس منه أن يأذن لها فى الذهاب إلى دار إحدى صويحباتها لتشاهد موكب الخليفة الصغير .

ووقفت تطل على الطريق الذى ازدحم بالجند والجماهير ؛ وقد شملتها رهبة لذيذة ، وقلق خفيف . وما إن أقبل الركب حتى أخذ قلبها يرقص فى جوفها ، ووقعت عيناها على ابن أبى عامر ، وقد ارتدى الخز والديباج ، فشعرت بقلبها يكاد يفر من فيها ، وثارت مشاعرها ، وهفت نفسها إلى الرجل الذى احتل فكرها وفؤادها ، وأدامت النظر إليه ، وقد استولت عليها مشاعر غامضة شهية ؛ مشاعر يحسها المحب إذا لاقى الحبيب .

وعاد الناس إلى دورهم ، وعادت أسماء إلى دارها ، وقد

اختفى الموكب الهائل فى جوف القصر العظيم ؛ ولكنه لم يختف من خيالها ، وبقى به لا يريم . وفكرت فى ابن أبى عامر فأحست به فى تلك اللحظة قريباً منها قرباً غريباً . وهمس فى أغوار نفسها هامس ، راح يوحى إليها أن تعلقها به ما كان عبثاً . وأن القدر ما ساقه إليها ليضنيها ، واستراحت إلى ذلك الهاتف المجهول ، فاسترخت فى مقعدها لتجتر ما خلقته بنفسها لنفسها من ذكريات .

وغرقت أسماء فى أفكارها ، وغرق أبوها فى أفكاره ، فقد كان غالب ، قائد الحكم المجرب ، يفكر فيما وقع بعد أوبته من المغرب الأقصى منصوراً ، كان يأمل أن يوليه الحكم حجابته ولكن جعفر المصحفى ظل فى وظيفته ، فزاد حقده عليه ، فما كان يرى المصحفى كفئاً ليدير دفة البلاد ؛ إنه لا يصلح إلا ليدبج العبارات وينظم القصائد فى مدح الخليفة .

ومات الحكم وبويع ابنه بالخلافة ، فأمل غالب فى أن يستدعى ليتقلد الوزارة ، فالإفرنج قد عبئوا جيوشهم . وهجموا على الثغور فاحتلوها ، فما عاد يصلح للوزارة سوى رجل سيف . وما كان فى الأندلس رجل سيف ينافسه .

وقوى من أمل غالب وجود ابن أبى عامر بالقرب من صبيحة كان يعلم أن الأمر أصبح أمرها ، وأنها تثق بكاتبها ، وتسترشد بآرائه ، وتهتدى بهديه ، وكان قد اتفق وابن أبى عامر على أن يخلعا المصحفى ، ولكن هشاماً المؤيد بالله قد قلد المصحفى حجابته وأنهض ابن أبى عامر إلى خطة الوزارة ؛ فضعف أمله فى تحقيق أمنيته ، وحقد على الدولة .

وفكر فى جيوش الإفرنج التى انتهزت فرصة ما وقع فى البلاد من اضطرابات بعد موت الحكم . وزحفت على المدن الشمالية ، فرأى أن ليس فى الدولة قوة تستطيع أن تقف تيار زحفها غير ما تحت يده من قوة . فعزم على ألا يتحرك لملاقاة الأعداء ، وعلى أن يتحصن فى مدينته ، يرقب الأحداث فى حذر ، وينتظر ضغط الحوادث التى سترغم القصر على استدعائه ، لصد تيار الإفرنج الجارف . ويومها سيعرف كيف يحقق أمنيته التى تتراءى له فى اليقظة وفى المنام .

كان غالب يتمنى من كل قلبه أن يصبح حاجب الدولة ، وما كان فى قرارة نفسه يحفل كثيراً أعم الخير البلاد أم سادها الخراب .

٣٨

ذهب فائق إلى بياسة ، وقابل درى أميرها ، وكان فتى يدين بالولاء للصقالبة . فما إن اجتمع بالخصى الموتور ، حتى راح يعد عدته لمناوأة المصحفى ، فبسط لسانه فيه ، وجعل ينقد سياسته ، ويحاول إيغار صدور الناس عليه ، تمهيداً لتمرده عليه فقد كان الخصيان الصقلبيان يتأهبان لقلب نظام الحكم ، الذى مكن لعدوهما الألد فى البلاد .

وظل فائق وجؤذر يدبران المؤامرات ولكن تدبيرهما ما كان يخفى على أحد . فالمصحفى قد أذكى عليهما العيون ، وابن أبى

عامر يرصد حركاتهما ، فلما فطن إلى أن الفتنة توشك أن تطل برأسها ، رأى الفرصة قد سنحت لتحريك المصحفى للقضاء على الصقالبة ، فدخل عليه ، وقال له :

— ما زال الصقالبة يجتمعون بالقصر يدبرون على الدولة .

— عندى علم ذلك يا محمد . وأعلم أنهم يحاولون تأليب الأمراء علينا .

— وهل نتركهم يحيكون شباكهم حولنا ، حتى نصحو يوماً ونحن أسرى نخبط فى شباكهم ؟

— أفكر فى وسيلة أقضى بها عليهم دون أن أعلنها حرباً شعواء قد تقضى علينا قبل أن تقضى عليهم .

— تركهم هكذا خطر يهدد البلاد .

— والتضييق عليهم وحجر حرياتهم أشد خطراً .

— نستطيع أن نضعهم تحت الرقابة ، دون أن يقدروا على إعلان سخطهم .

فنظر المصحفى إلى ابن أبى عامر فى اهتمام دون أن ينبس بكلمة ، واستمر ابن أبى عامر فى حديثه :

— إنهم يضبطون باب الحديد ، فيدخلون منه ويخرجون دون رقيب ، فإذا سددنا ذلك الباب ، وصار الدخول من باب السدة ، أصبحوا تحت عيوننا .

وأعجب المصحفى بالفكرة ، فأمر بإنفاذها ، فأصبح دخول فائق وجؤذر وأعوانهما من باب السدة ، فجعلوا يتحركون فى

حذر . وتضايقوا من وطأة المراقبة . وزاد فى حنقهم تودد ابن أبى عامر إلى غلمان القصر وميلهم إليه ، فاجتمعوا ليضعوا حداً لتلك المضايقات .

فكروا ، وأجالوا قداح الرأى بينهم ، فلم يجدوا فى جعبتهم إلا سهماً واحداً ، فعزموا على إطلاقه . إن جؤذر يتمتع بنفوذ كبير فى القصر ، فالخليفة لا يمكن أن يستغنى عنه ، فلو أنه قدم استقالته لما قبلها ولاستبقاه . وعندئذ تتاح له فرصة إملاء شروطه وتوطيد نفوذ الصقالبة المهدد بالزوال .

وكتب جؤذر استقالته ورفعها إلى هشام ، وبلغ ابن أبى عامر ذلك فاستبشر ، ودخل على صبيحة يشير عليها بقبول تلك الاستقالة فى قبولها إنقاذ البلاد من شر الصقالبة ، الذين استفحل أمرهم حتى بات يهدد الخلافة .

وتأهب جؤذر لملاقاة الخليفة لبسط قضيته ، وعرض مطالبه فما دار فى خلده أن هشاماً يقبل استقالته ، ولكن ما إن بلغه استغناء القصر عنه ، حتى اغتم ، واشتد حقده ، وما كان فى قدرته أن يفعل شيئاً سوى الخروج إلى داره مطأطىء الرأس ، يحس طعم الهزيمة المرير .

وفار مرجل غضب الصقالبة لقبول استقالة جؤذر ، وما كان غلمان القصر بقادرين على أن يبدوا إحساساتهم ، فقد ضيق ابن أبى عامر عليهم ، ولكن أمراءهم أظهروا استياءهم ، وكان درى أشدهم غضباً واستياء .

وضايق المصحفى تهجم درى عليه . وحزر ابن أبى عامر ذلك ، فراح يهون عليه أمره ، ويذكر له أنه سيضع حداً لوقاحته ، وكان ابن أبى عامر صادقاً فى قوله . فقد بيت النية على القضاء عليه فى هزيمته تقليم أظافر الصقالبة ، وقد صار هدفه محقهم . قبل أن يسفر عن حقيقة شعوره نحو حاجب الدولة .

وشد ابن أبى عامر الرحال إلى بياسة ، وراح يستقصى أخبار درى ، وينقب عن سوءاته . فلما علم أن الناس ناقمون عليه ، لظلمه وطغيانه ، جعل يبحث عن أشد الناس عداوة له . فلما اهتدى إليهم ، أشار عليهم بتقديم الشكوى منه إلى الخليفة ، ووعدهم باستغلال نفوذه فى راحتهم من أميرهم الجائر .

وعاد ابن أبى عامر إلى القصر ، ودفع بالشكوى إلى المصحفى فرفعها إلى الأميرة ، واستدعت صبيحة ابن أبى عامر ، لتتداول معه فى أمر تلك الشكوى ، فأشار عليها بالجمع بين درى وبين مقدميها .

وبعث الخليفة إلى درى يأمره بالحضور إلى بيت الوزراء ، فجاء مطمئن البال ، ولكن ما إن بلغ الدار ، ورأى خصومه الذين أمر الخليفة بالجمع بينه وبينهم ، حتى انقبض صدره ، وأوجس خيفة ، فهم بالعودة من حيث جاء ، ولمحه ابن أبى عامر وهو ينكص على عقبيه ، فخف إليه ، وحاول أن يقبض عليه ، ولكنه دفع ابن أبى عامر فى شدة ، فهجم عليه ابن أبى عامر وتلاحم الرجلان .

ولمح الجند المعركة الدائرة بين الرجلين ، فوقفوا مشدوهين لا يبدون حراكاً ، كانوا يخشون بأس درى ، وبطش الصقالبة ، وجاء بعض الجند من أعوان ابن أبى عامر فهجموا على درى وأوسعوه ضرباً : وجاءته ضربة سيف شديدة على رأسه ، فسقط ينوء من جراحه ، وحملوه بين الموت والحياة .

وعلمت صبيحة ما وقع بين ابن أبى عامر ودرى ، فحنقت على الصقالبة أشد الحنق ، فأصدرت أوامرها إلى فائق وكبار الصقالبة بمغادرة القصر ، فخرجوا إلى ديارهم ، مغلوبين على أمرهم ، وفى صدورهم ثورة ، وبين جوانحهم حقد يتأجج ، وزاد من حنقهم موت درى فى جوف الليل ، فما خفى عليهم أنه عوجل بالقتل .

وغضبوا على صبيحة غاية الغضب ، وكرهوا ابن أبى عامر كل الكره ، فراحوا يحدثون الناس عن العلاقة الآثمة بين الأميرة وكاتبها ، ولم يكتفوا بإذاعاتهم بل حرضوا شعراءهم على أن يهجوا ابن أبى عامر .

وضاعت جهود الصقالبة هباء ، فما نجحوا بادعاءاتهم أن يزعزعوا ثقة الناس فى الأميرة ، وما استطاعوا انتزاع حبهم لابن أبى عامر وأخفقوا فى كسب عطفهم ، فقد تنفس الناس الصعداء يوم دالت دولتهم ، وذهبت أدراج الرياح .

٣٩

تقدمت رايات الإفرنج ، وأوغلت فى التقدم حتى أصبحت ترى حصون قرطبة ، وبقى المصحفى فى دار الوزارة يدير شئون البلاد ، لا يحفل بالجيوش المتقدمة ، كأنما هى تهدد بلاداً غير بلاده ، وما كان ثبات المصحفى عن ثقة بقوته ؛ بل عن قصر نظر وجهل بفنون القتال .

وبعثت قلعة من القلاع تطلب من العاصمة العون ، فأرسل إليها أن تقطع سد النهر : لتحجز العدو عنها ، وما هب لجمع الجموع ليذود عن الحياض ، فطبعه الشحيح جعله يتقاعس عن تجييش الجيوش ، فبى الحروب تذوب الأموال ، وكان يفضل أن ينام على الهوان على أن يرى خواء خزائن المال .

وكان ابن أبى عامر يرقب تصرفاته ، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة زراية واستخفاف ، فلما استفحل الأمر ، وجد الفرصة قد سنحت ليتقدم نحو غاياته ، فاستكانة المصحفى تتيح له القدح فى كفايته ، والتهوين من شأنه ، وتقدم الأعداء يبلبل الخواطر ، ويرهف الحواس ، ويجعل الناس يتلفتون ملهوفين ، ينقبون عن البطل الذى يهب لينقذ الديار :

قضى ابن أبى عامر على الصقالبة ، وجاء أوان القضاء على المصحفى والسيطرة على جيش البلاد ، فدخل على صبيحة يقول لها :

— أصبحت أعلام الإفرنج خفاقة فوق حصوننا ، وأخشى

إن سرنا على سياسة التخاذل التى انتهجها المصحفى ، أن يغريهم ذلك بالتقدم حتى تسقط البلاد غنيمة باردة فى أيديهم .

فأطرقت صبيحة ، وغام وجهها بسحائب من الهم ، فقد كانت ترى ضرورة النهوض لقتال الإفرنج ، ولكن المصحفى كان يخوفها مغبة القتال ؛ وكان يقول لها إنه يخشى أن يشجع اشتباك الدولة فى حروب مع الإفرنج العناصر المناوئة للخلافة على القيام بثورة جائحة ، تقتلع من بيت الحكم السلطان . ونظر ابن أبى عامر إليها ملياً ، وكأنما فطن إلى ما يعتمل فى رأسها من أفكار ، فقال :

— وأخشى يا مولاتى أن يثور الشعب على من يقبل هذا الهوان ، إننا إذا جمعنا الجيوش خضدنا شوكة الإفرنج ، وأنزلنا الرعب فى قلوب الخونة الذين توسوس لهم نفوسهم الانتفاض علينا .

فرفعت صبيحة رأسها ، وقالت فى مرارة :

— إن غالباً قد جمع الجيوش ، وتحصن فى مدينته ، ولم يهب ليقف تيار الأعداء الجارف ، الذى يوشك أن يغرق البلاد .

— فلندع غالباً الآن ، إننا أهملنا شأنه يا مولاتى بعد موت مولانا ، فكدره ذلك ، وجرح كبرياءه .

— ومن يقود جيوشنا يا محمد ؟

— سأخرج بنفسى للجهاد .

ورمقته فى إعجاب ، وتألقت عيناها ببريق فضح ما يعتمل فى صدرها من مشاعر الهيام . ولم يفطن إلى ما اعتراها من تبدل ،

كان مشغولاً بنفسه ، إنه دبر أن يتقلد قيادة الجيوش لتصبح الدولة فى قبضته ، وها قد أوشك أن يجنى الثمار ، ورأى أن يستوثق من معاضدتها له ، فقال :

— كل ما أرجوه مؤازرة مولاتى .

فقالت فى رقة :

— سأشد من أزرك ، وسأبارك خطاك .

وأسبلت عينيها فى دلال ، ثم أشاحت بوجهها عنه لتخفى محياها الذى تورد بحمرة الدم المتدفق إليه ، فقد أحست أنها نطقت عبارتها الأخيرة فى تخاذل الهيمان ، وخشيت أن يلحظ ما طرأ عليها من اضطراب ، ولكنه لم ير شيئاً ، فقد طغى سروره لنجاح تدبيره ، حتى حجب عن عينيه كل شىء .

وأقبل الوزراء إلى دار الوزارة ، وقد ارتسم على محياهم الاهتمام . كان ذلك الاجتماع عظيم الشأن ، ففيه سيقررون جهاد الأعداء . وجاء ابن أبى عامر والمصحفى وقد انهمكا فى الحديث ؛ كان ابن أبى عامر يقنع صاحب الدولة بضرورة الجهـاد ، وما زال به حتى اقتنع .

وتم عقد الوزراء ، فتحدث المصحفى عن الغرض من الاجتماع ، وقام ابن أبى عامر يسوق الحجج التى تجعل إعلان الحرب على الإفرنج أمراً حتماً . إنهم استغلوا جنوح المسلمين للسلم ، فهبوا يغيرون عليهم ، ويطردونهم من البلاد .

وتحدث وزير من الوزراء ، الذين ألفوا الخور والتخاذل ،

فراح يعدد عواقب الانزلاق فى حرب مع الإفرنج . دون أن تتأهب البلاد لذلك النزال ، ولكن الوزراء أعرضوا عنه ، وأجمعوا على ضرورة الجهاد .

وتم الأمر ، ولم يبق إلا اختيار من يقوم بقيادة الجيوش ، فراح الوزراء يعرضون القيادة على عظماء الأندلسيين ، فأحجموا عنها . وعرضت على ابن أبى عامر ، فوافق على تقلدها ، ومن يدرى فلعله قد أوحى إلى إخوانه الوزراء بعرضها عليه :

قال أحد الوزراء :

— إن ابن أبى عامر أشد الوزراء تحمساً لإعلان الحرب فلنقلده قيادة الجيش الخارج للجهاد .

فقال ابن أبى عامر فى ثقة :

— لا بأس ، على أن أختار من يخرج معى من الرجال ، وأتجهز بمائة ألف دينار .

فصاح صائح :

— هذا كثير .

فقال ابن أبى عامر فى تحد :

— خذ ضعفها وامض ، وليحسن غناؤك .

فسكت المعترض ، ولم ينبس بكلمة .

وتجهزت الجيوش ، وخرج ابن أبى عامر على رأسها لقتال الإفرنج ، الذين أطمعهم فى الأندلسيين استنامتهم ، وتخاذل حكامهم ، وأشعل منظر الجند الخارجين للجهاد نار الحماسة

فى الصدور ، فارتفعت الهتافات ، وترقرقت الدموع فى العيون .

وتلفت ابن أبى عامر ، فرأى حماسة بالغة ، وعواطف فياضة ، فثارت فى عروقه دماء أجداده الفرسان الصناديد ، الذين أبلوا أحسن البلاء فى فتح البلاد مع طارق بن زياد .

٤٠

أرخى الليل ستائره ، وسيطر السكون ، وهب النسيم رخاء ينعش القلوب ، ووقفت صبيحة فى شرفة من شرفات القصر ، تطل على حدائق الزهراء ، تستنشق الهواء فى هدوء ، فقد أتمت النظر فى شئون الدولة ، واتجهت إلى الشرفة تسرّيح وتريح ذهنها المكدود .

ومدت بصرها إلى الحديقة ، ورفعت رأسها إلى السماء ، فتفتحت نفسها ، وتحركت مشاعرها الكوامن ، فروعة الحدائق الجذابة ، والنسيم المفهاف ، وذلك القمر الذى يطل من وراء الغمام ، أيقظت فيها مشاعرها الرقيقة ، التى تهفو إلى الجمال .

وغمرها ذلك الجو الشاعرى ، فنظرت حالمة إلى الأفق البعيد الملفوف بالضوء الفضى الهادىء ، فشاعت الراحة فى نفسها ، وسقطت عنها همومها ، ونسيت مشاغلها ، فأدبرت صبيحة الحاكمة الغارقة فى المشاكل والدسائس ، وأقبلت صبيحة الرقيقة المرهفة الإحساس .

وطغت مشاعرها ، فهبطت إلى الحدائق ، وراحت تجوس

خلالها . مأخوذة بتلك الروعة ، التى سكنت قلبها ، حتى إذا ما دنت من الحوض الكبير ، تهالكت على مقعد قريب طالما شاركها فيه الحكم ، وأدارت عينيها فى المكان ، فأخذت الذكريات تتحرك فى رأسها ، وتنفض عنها غبار السنين .

داعب أذنيها خرير الماء ، ورفيف النسيم ، فأصاخت بسمعها ، فخيل إليها أن صوتها الحنون يسرى عذباً ، فيملأ المكان بهجة ومرحاً ، والحكم يرنو إليها فى وله ، وقد استخفه الطرب ، فمال عليها يلف ذراعه حولها ، ويضمها إليه ، ثم يلثمها هنا وهناك فى هيام .

واسترخت فى جلستها ، وراحت تذكر ذكريات شبابها ، فاستيقظت إحساساتها ، فتدفق دمها فى عروقها ، وخفق قلبها . كانت تستعرض أبهج أيام حياتها ، وتسربت الغبطة فى شعاب نفسها ، فرفت على ثغرها ابتسامة حالمة .

واستمرت فى تصوراتها ، فأفعمت نفسها بمشاعر فوارة ، وأحست شوقاً إلى رفيق يعتصرها ، فأسبلت عينيها وجمح خيالها ، فرأت نفسها فى أحضان ابن أبى عامر ، يجنى القبلات من شفتيها ، واستراحت لتصوراتها ، فلجت فى تخيلاتها ، فغمرتها النشوة ، كانت تحب ابن أبى عامر بكل جوارحها ، فقلبها يرقص طرباً إذا فكرت فيه ، وصدرها ينشرح ، ونفسها تتفتح ، وروحها تهفوا إليه وتشتهيه .

وبقيت مسترخية فى هدأة الليل ، غارقة فى بحور شهية من

الأوهام . تحيا مع ابن أبى عامر فى دنيا بهيجة من نسج خيالها الطليق ، تنفس عما كبتت فى أغوارها من رغبات .

وفكرت فى أمرها وابن أبى عامر ، إنها تهواه . تحبه من كل قلبها ، وقد تعلقت به أيام كان كاتبها ، ولكنها كبتت شعورها نحوه ، لأنها كانت زوجة ، وقد قضى زوجها ، فلم يبق هناك حائل يحول بينها وبين حبيبها . وقر رأيها على الارتماء فى أحضانه عند أول لقاء ، لتطفىء لظى الشوق المتأجج بين الضلوع .

وعاد ابن أبى عامر من غزوته منتصراً ، يسوق أمامه الأسرى فخرجت قرطبة لاستقباله ، وقد لفها السرور ، فذلك النصر أعاد لها ثقتها بنفسها ، وأرجع لها هيبتها .

وانطلق إلى قصر الزهراء يخترق الحشود الهائلة . التى جاءت لتحيته ، فارتسمت على شفتيه ابتسامة رضا ، وارتفعت الهتافات باسمه مدوية مجلجلة ، وبلغت آذان صبيحة ، فشعرت برعدة تسرى فيها من رأسها إلى أخمص قدمها .

وتأهبت لاستقباله ، فراح قلبها يرفرف فى جوفها ، وحلت الرهبة بصدرها ، واستولى القلق عليها ، فراحت تذرع الغرفة جيئة وذهوباً ، وقد ذهبت نفسها شعاعاً .

واتجهت إلى المرآة تسوى هندامها ، وتطمئن إلى جمالها ، فأدنت وجهها من صقال المرآة ، فهالها امتقاع لونها ، فما كانت تحسب أن الصراع الهائل الجبار الذى تكابده فى جوفها ، ينعكس

هكذا على محياها ، ومررت يدها على وجنتيها ، ثم رفعتها لتعيد بعض شعرات نافرة إلى مكانها .

وانطلقت إلى الشرفة خافقة الفؤاد ؛ ولمحت ابن أبى عامر يجتاز باب القصر . فاشتد وجيب قلبها ، وشعرت برهبة واضطراب وبمشاعر متباينة تنتشر فى صدرها .

وأخذت تجمع شتات نفسها ، وتهدىء من روعها وتتأهب لإلقاء نفسها فى أحضان الحبيب العائد من الجهاد ، لتروى روحها الظمآن ، وتخمد نار القلب الولهان .

وأقبل ابن أبى عامر متهلل الوجه ، فقفز قلبها فى صدرها فى جنون ، وافتر ثغرها عن ابتسامة عذبة ، وهمت بأن ترتمى على صدر حبيبها ، ولكنها أحست قوة طاغية تحول بينها وبين تحقيق ما تهفو إليه نفسها ، فقد هب كبرياؤها يحول بينها وبين هواها .

٤١

عاد ابن أبى عامر إلى قرطبة منصوراً ، فشجعه ظفره على معاودة التفكير فى التخلص من المصحفى ، واستئناف مناوأته التى بدأها فى حيطة وحذر . فكر فى أن يسفر له عن عداوته ، ولكنه ألفى ذلك محفوفاً بالمخاطر ، فلا زال حاجب الدولة قوياً ، فابنه محمد يحكم قرطبة ، ويسيطر عليها ، وأبناؤه وأصهاره

وأنصاره منبثون فى المناصب الهامة . إنها مخالب له ، ولن يسهل الخلوص إليه قبل تقليمها .

ورأى أن خير وسيلة لزعزعته ، التهوين من شأنه ، وتحقير فعاله فى عين الأميرة ، ولكنه خشى أن يفضح نفسه إذا داوم على مهاجمته دون أن يوحى إليها أنه ما فعل ذلك إلا لمصلحة الدولة ، فلو أنها فطنت إلى أنه يهدم المصحفى ليشيد نفسه ، لفقدت حججه قوتها ، ولبدا أنانياً موتوراً .

إنه يستطيع أن يلعب لعبته مستعيناً بغالب . فهو أقوى من يستغله فى القضاء على المصحفى ، ولطالما فكر فى ذلك ، وها هو ذا أوان إنفاذ التدبير قد حان ، فلو أنه قرب غالباً من القصر ، لتعاونا معاً على إزالة ذلك الكابوس الجاثم على السلطان .

سيقضى على المصحفى بمعاونة غالب ، وما أيسر القضاء على غالب بعد ذلك ، فهو وافد جديد على الحكم لم يتغلغل فيه تغلغل المصحفى الذى دامت حجابته سنوات طوالا .

ودخل على الأميرة بعد أن فكر ودبر ، وقال فى إشفاق :

— تأهب الإفرنج لقتالنا أيام كنا مطمئنين إلى مهادنتهم ، فجلبوا الرجال إلى مدنهم القريبة من ثغورنا ، وشحنوها بالمقاتلين والكراع حتى إذا ما آنسوا فينا ضعفاً ، شنوا هجومهم علينا ، وهم يطمعون فى أن يطردونا من البلاد . اشتد ساعدهم ، وعظم خطرهم ، فإذا لم نجمع لهم الجموع ، ونهب لخضد شوكتهم كانت العاقبة علينا وبالا .

فنظرت إليه الأميرة ملياً ، ثم قالت :

ـ لقد أطلقنا يدك فى أمر الجيش ، فافعل ما تراه .

ـ الأمر خطير يا مولاتى ، أخطر من أن يترك لواحد ينفرد به ؛ إن الظرف يقتضى تكاتف الجهود .

ـ فلنناقش الأمر إن شئت أنا وأنت والمصحفى .

فقال فى حرارة :

ـ لم يعد الزمن زمن المصحفى .

فرمقته الأميرة بنظرة مستفسرة ، فاستأنف حديثه بنفس الحرارة :

ـ إننا فى حاجة إلى قواد ، قواد ذوى خبرة وكفاية ، فما عادت أيامنا أيام خفض ودعة وأمن ، بل أيام طعن ونزال وجهـــاد .

ـ فوض لك الأمر ، فلك أن تستعين بمن تشاء من القواد .

ـ إن من أفكر فيه أسمى من أن أستعين به ؛ إنه أقدر قوادنا وما أطمع فى أن يعمل تحت إمرتى ، وهو القائد على الدوام :

فقالت الأميرة فى غمغمة مريرة :

ـ غالب !

ـ أجل يا مولاتى ، غالب .

ـ لا ، يا محمد .

ـ لماذا ، يا مولاتى ؟

ـ رأى هجوم الأعداد علينا ولم يحرك ساكناً .

— لعل له عذره .

— أى عذر ، قد أمره المصحفى أن يخرج لقتال الإفرنج ، فتحصن فى مدينته ، ولم يهب ليذود عن ثغورنا .

— ربما ساءه إعراضنا عنه ، وتقريبنا من هم دونه ، وقد اعتاد أيام مولانا الحكم أن يكون المقرب دائماً .

— إنى لا أرتاح إلى إسناد قيادة جيوشنا إلى من يفضل مصلحته على مصلحة البلاد .

— من مصلحة البلاد الآن يا مولاتى أن نتناسى الماضى ، فالأعداء أقوياء ، وجيش غالب أعظم جيوشنا دربة ودراية ، وغالب نفسه أعظم قوادنا .

فأطرقت الأميرة ملياً تفكر فى أمر غالب وجيوشه المتحصنة بمدينة سالم ، فوجدت أن من مصلحة البلاد حقاً أن تستغلها فى نزال الأعداء ، فمن يدرى فقد يستخدمها غالب فى قتال من يحسب أنهم سلبوه حقوقه فى الداخل ، وانبسطت أساريرها ، ففطن ابن أبى عامر إلى أنها كانت تميل إلى رأيه فقال :

— ما أجدره بصفحك عن تلك الكبوة ، وما أيسر إرضاءه !

ورنت الأميرة إليه فى رضا ، سرها منه إنكاره لنفسه ، وتقديم غيره ، لأنه رأى فى ذلك مصلحة البلاد ، ولم تشأ أن تعلن موافقتها على اقتراحه قبل أن تعرب له عن تقديرها وتمسكها به فقالت :

— وأنت ما يكون حالك إذا أصبح غالب قائد جيوشنا ؟

— أكون قائداً من قواده .

— لا يا محمد ، بل أن تظل قائدنا ؛ فقد بعثت الهمم فى النفوس ، ونفخت الحماسة فى الصدور .

— يثلج صدرى يا مولاتى هذا الإطراء الكريم ، ويجعلنى أتشبث بقيادة جيوشكم المظفرة ، ولكن الظرف يحتاج إلى تضحيات واستغلال الكفايات ، وتوحيد الصفوف .

وساد الصمت برهة ، كانت الأميرة تفكر فيما يقول ؛ وكان هو يفكر فى نفسه ، فقد خشى أن تفلت من يده بسبب اندفاعه وراء تدبيره فرصة سيطرته على الجيوش ، فقال :

— فى مقدورنا أن نستعين بغالب ، وأن أظل قائدكم الأمين ؛ نعهد إليه بتدبير جيش الثغر ، وأشرف أنا على جيش الحضرة .

وظلت الأميرة فى إطراقها ، فقال لها :

— ما رأى مولاتى ؟

فرفعت رأسها وقالت :

— أوافق ، على أن يرضى عن ذلك المصحفى .

وانطلق ابن أبى عامر إلى حاجب الدولة ، وجعل يزين له تقريب غالب ، ويقنعه أن فى ذلك مصلحته ، وأن غالباً سيصبح سيفاً مسلولا فى يده ، يشهره فى وجوه أعدائه ، وما زال يفتله ويطويه ، حتى جعله يؤمن أن فى استرضاء القائد العظيم توطيداً لنفوذه ، ودعماً لمكانته ، وما كان هم المصحفى إلا أن يمكن لنفسه فى الدولة ، فوافق على ما نصح به ابن أبى عامر .

وخرج الإذن بترقية غالب إلى منصب ذى الوزارتين ، فاغتبط به ، وأرضى ذلك الأميرة ، ففى الاتحاد فى ظل العرش قوة للخلافة . واطمأن المصحفى ، فمنافسه سيشغل عنه بحروب الأعداء . أما ابن أبى عامر فقد ابتسم ابتسامة ظفر ، كان يعلم أن كل ما تم على يديه لن يؤدى إلا إلى غاية واحدة ، هى إعلاء شأنه ، وتوهين من يقفون حجر عثرة فى سبيل تألقه ، وبزوغ نجمه ، حتى يبهر كل ما يتلألأ فى سماء الأندلس من نجوم .

٤٢

وخرج ابن أبى عامر فى غزوته الثانية ، والتقى بغالب ، فانطلق القائدان لاقتحام حصن موله فانهار الحصن تحت ضرباتهما وراحا يتنقلان من نصر لنصر . كان غالب ، ذلك القائد المحنك الذى عرك الحروب وعركته يضع الخطط ، وينزل بالأعداء أشد الضربات .

تكدست الغنائم ، وكثر عدد الأسرى ، فاغتبط ابن أبى عامر فذلك النصر ييسر له تحقيق أهدافه ، ومؤازرة غالب له تهون عليه أمر المصحفى .

وأقبل الليل ، ولم تهدأ الحركة فى المعسكر ، فجند غالب يتأهبون للعودة إلى ثغرهم بعد أن انتهت تلك الغزوة بذلك النصر المؤزر ، واجتمع القائدان فى خيمة ، كما اعتادا أن يجتمعا كل

ليلة ، كانا قد اتفقا على القضاء على المصحفى ، ولكنهما جعلا ينسقان خطتهما ، ويتدارسان تفاصيلها .

وجدا هدم المصحفى لن يتم وابنه قابض على زمام قرطبة ، فرأيا وجوب عزله ، وأخذ ابن أبى عامر على عاتقه أن يقوم بذلك على أن يكتب غالب إلى الخليفة يصف له ما قام به من باهر الأعمال فى تلك الغزوة ، إعلاء لشأنه ، حتى إذا التمس من القصر عزل غريمهما ، أجيب إلى طلبه .

وانقضى الليل ، وتنفس الصبح ، فذهب ابن أبى عامر يودع غالباً قبل عودته إلى ثغره ، فالتفت غالب إليه ، وقال له يوصيه :

— سيظهر لك بهذا الفتح اسم عظيم ، وذكر جليل ، وسيشغلهم السرور به عن الخوض فيما تحدثه من قصة ، فإياك أن تخرج عن الدار حتى تعزل ابن جعفر عن المدينة ، وتتقلدها دونه ؛

وانطلق غالب إلى ثغره ، وبعث إلى القصر رسالة مسهبة كلها تزكية لابن أبى عامر ، وما إن بلغت القصر ، حتى أخذت صبيحة تقرؤها خافقة القلب ، منشرحة الصدر ، كانت أخبار الحبيب السارة تبهجها ، وتدغدغ حواسها .

وسار ابن أبى عامر إلى قرطبة ، ودخلها مزهواً بنصره ، تتقدمه الغنائم والأسرى ، واستقبله الأندلسيون مسرورين ، وقد خفقت قلوبهم بحبه ، وانطلق يخترق الجموع ، وهو مشغول بفكره ، كان يفكر فيما يفعله ليصرف ابن المصحفى عن المدينة .

ودخل ابن أبى عامر على صبيحة ، فرحبت بمقدمه ، وأخذت تحادثه وقد مشت الراحة فى صدرها ، كان قربه يشيع البهجة فى نفسها ، ويستولى على حواسها ، ويشعرها بخدر لذيذ يسرى فى أوصالها ، وكانت تصغى إليه وتستجيب له ، مسلوبة الإرادة كوسيط واقع تحت سيطرة منومه .

راحت تحدثه ، وقد تعلقت عيناها بوجهه ، كأنما تتملى من حسنه الذى غاب عن ناظريها طويلا ، وقالت له فيما قالت :

—أعدت للخلافة هيبتها ، ولن ننسى لك فضلك ، تمن على يا محمد ، تمن أى شىء .

ورأى الفرصة قد تهيأت ليلتمس تنصيبه حاكماً على قرطبة ، ولكنه رأى بدهائه أن يوحى إليها برغبته تلميحاً ، فقال فى مداهنة :

— وماذا أتمنى وقد غمرتنى مولاتى بكرمها ؟

— تمن ، تمن أى شىء .

— والله يا مولاتى ما تمنيت فى حياتى إلا أمنية واحدة .

فرنت إليه فى لهفة ، واشتد وجيب قلبها ، فقد حسبت أن الأوان قد آن ليكاشفها بحبه ، وقالت فى صوت متهدج :

— وما هى ؟

فقال فى هدوء :

—أن أضبط هذه المدينة ، وأن أسعد أهلها .

فلاحت على وجهها سحابة خفيفة من الكدر ، وسرعان

ما أقلعت تلك السحابة ، وعاد إليها هدوءها ، فقالت وقد رفت على شفتيها ابتسامة حلوة :

ـ ما أيسر تحقيق أمنيتك يا محمد ! .

ونهضت ، فقام ابن أبي عامر واقفاً ، فقالت له :

ـ انتظرني حتى أعود .

وغابت في القصر قليلا ، ثم عادت ، ودفعت إليه قرطاساً مطوياً وهي تقول :

ـ خذ يا حاكم قرطبة .

فقال ابن أبي عامر في نبرات تنم عن الفرح :

ـ والله لا أدري يا مولاتي بأي لسان أشكرك .

وخرج مرحاً ، يجد في سيره ، حتى إذا بعد عن جناح الأميرة بسط القرطاس ، وجعل يقرأ ما به ، فارتفع نبضه ، وزادت الحرارة في صدره ، فقد أمر الخليفة بصرف محمد بن المصحفي عن المدينة وتوليته إياها .

وانطلق إلى دار الإمارة يفكر في ابن جعفر المصحفي ، ويتخيله وهو يقرأ هذا الأمر ، فيبتسم في غبطة ، ويشعر بزهو ، فهذه أول صفعة يصفعها على رءوس الأشهاد للمصحفي الكبير .

ودخل مجلس ابن المصحفي ، فألفاه في أبهته ، فتقدم منه ، ودفع إليه الأمر ، وما إن انتهى من قراءته ، حتى اربد وجهه ، وقام وولى ناكصاً على عقبيه ، لا يلوى على شيء .

وعلم المصحفي بعزل ابنه دون الرجوع إليه ، فاغتم أشد الغم

وشعر بالذل ، وفطن إلى أن ابن أبي عامر قد ناصبه العداء جهاراً فأطرق يفكر في وسيلة يدفع بها كيد ذلك المناوىء الخطير . فلم يهتد إلى شيء ، إن المباغتة أذهلته ، فأخذ يقطع الغرفة جيئة وذهوباً في حنق ، أشبه بفأر وقع في المصيدة لا يدرى أين الخلاص .

٤٣

أهم المصحفي عزل ابنه ، وذهبت نفسه شعاعاً ، واختلط عليه الأمر فلم يعد يدرى ما يفعل . كان من ذلك الطراز الذى يتعطل فكره إذا نزلت به نازلة . وانقضى وقت وهو في ذهوله ، يجاهد ليجمع فلول نفسه ، حتى إذا هدأ قليلا ، راح يفكر . فاهتدى إلى أن ابن أبي عامر ما كان بقادر على أن يقدم على ما أقدم عليه ما لم يكن واثقاً من تأييد غالب ، إنها مؤامرة دبرت في ميدان القتال ، ونفذت في قرطبة .

وفكر بن ابن أبي عامر ، فهاله أمره ، وبدا له منازلا خطيراً ، يتعذر الصمود له ، أو اعتراض سبيله ، فالجيش في قبضته ، وقرطبة في حوزته ، وغالب في صفه ، والأميرة اسلست له قيادها ، فصارت أطوع له من بنانه .

وكاد يركن إلى يأسه فما كان بقادر على أن يقاوم تلك القوى الضخمة التي يستغلها خصمه ، ولكن لاح له بصيص من الأمل فتشبث به ، وأخذ يفكر فيه . كان أمله الوحيد في تدعيم مركزه

التقرب من غالب ، واستمالته إليه وتكوين جبهة قوية منهما تقف في وجه أطماع ابن أبي عامر . كان يعلم أن غالباً يكرهه ، ولكن ذلك هو آخر سهم في جعبته ، فمن العبث أن يفكر في تغيير قلب الأميرة على كاتبها الذي تهواه .

وطفق يفكر فيما ينتهجه ليدنو من غالب ، فاهتدى إلى أنه لو خطب ابنته أسماء لابنه عثمان لقضى ذلك على ما بينهما من تباغض ، وقرب بينهما ووحد أهدافهما .

واطمأن إلى ما فكر فيه ، فأخذ يكتب رسالة رقيقة إلى غالب يلتمس فيها تزويج أسماء من ابنه عثمان ، وما إن قرأ رجل السيف رسالة رجل القلم ، حتى مست أوتار قلبه ، ومسحت ما في صدره من بغضاء ، فقد رأى في إتمام تلك الخطبة إسعاداً لابنته التي يحبها ، ويرجو لها أن تعيش في دعة وهناءة .

وبلغ أسماء نبأ خطوبتها لعثمان بن المصحفي فانقبضت وكدرها انهيار قصور الأماني التي شيدتها في رؤاها ؛ عاشت تناجي ابن أبي عامر في دنياها ، حتى ملك زمام هواها ، اطمأنت إلى ذلك الحب الذي مكن له في قلبها أحلامها العذاب ، كانت توهم نفسها أن القدر ما ساقه إلى طريقها ، إلا ليربط بينهما الأسباب ، ولكن هذا الواقع البغيض يصفعها بالحقيقة المرة ، ويصرخ في أذنيها هازئاً أنها عاشت واهمة تجد في أثر سراب .

وطأطأت رأسها ، وتدثرت بالكدر ، وشعرت كأنما شدت إلى الأرض بأغلال ، ولكنها لم تستطع أن تمكث على الأرض

طويلا ، فقد هامت روحها تناجى ابن أبى عامر وتعاتبه ، وترقرق الدمع فى عينيها ، ثم سال على خديها ، فأحست سخونته ، فانتبهت إلى نفسها فزعة ، فما عاد لمثل هذه الأحلام مجال .

واجتمع المصحفى وأبناؤه بغالب ، وكتب العقد : وحدد يوم الزفاف ، فشاعت البهجة فى صدور الجميع إلا أسماء ، فقد انقبضت ، وجعلت تدارى ما بها ، وتجاهد لتبدو هادئة ، ولطالما اضطرت إلى انتزاع البسمات على الرغم من أن قلبها كان يقطر دماً .

وسكنت الطمأنينة فؤاد المصحفى ، فتلك المصاهرة شدت من أزره ، وسدت فى وجه ابن أبى عامر الثغرة التى كان يأمل أن ينفذ منها إليه ، فقد بنى تدبيره على أن غالباً معه ، ويشجعه على هدم المصحفى ويعضده ، ولكن المصحفى اهتدى إلى ما يفسد تدبير رجل المؤامرات .

وترامى إلى ابن أبى عامر نبأ تلك الخطبة فلم يصدق ، فما كان يخطر له على قلب أن غالباً الذى يزدرى حاجب الدولة ويمقته ، يقبل زفاف ابنته إلى ابنه ، ولكن ما إن تحقق من صدق ذلك الخبر حتى ثارت ثائرته ، وعزم على أن يعمل بكل ما فى طاقته من قوة على إحباط تلك الخطبة ، فلو أنها تمت لانهارت جميع خططه التى كان ينسجها فى صبر وأناة ، من سنين طوال .

وكتب إلى غالب رسالة حشد فيها كل مواهبه ، ذكر له فيها أن زواج ابنته من عثمان لا يجلب شرفاً ، ولا يكسب فخراً ،

فما كان المصحفى من بيت عريق من بيوتات العرب ، فهو من أصل بربرى وضيع ، لا تجلب مصاهرته إلا الهوان .

ولم يكتف برسالته . بل حرض رجال القصر من أعوانه على أن يكتبوا إلى غالب ، مستنكرين وقوع تلك الخطبة . فما قرأ غالب ما بعث إليه من رسائل ، حتى تحرك حقده ، ونكىء جرح مقته ، فندم على تورطه فى استجابته للمصحفى ، ولكن ذلك الندم لم يكن كافياً ليقدم على فسخ خطبة ابنته من ابن حاجب الدولة ، الذى يحتقره ، ويكن له المقت والعداء .

وفطن ابن أبى عامر إلى ندم غالب ، وعلم أن ذلك الندم لا يكفى لفسخ عقد الزواج ، ولن يقدم عليه غالب ما لم يجد إغراء قوياً يدفعه إليه ، فصمم على أن يقدم له ذلك الإغراء .

عرض عليه أن يفسخ الخطبة ، وأن يزوجه من أسماء ، فقبل ولم يتردد لحظة ، فلطالما داعبته هذه الأمنية ، واحتلت فكره ولم يقم وزناً لغضب المصحفى ، وماذا يهمه غضب الشمس الغاربة ما دام قد ضمن تزويج ابنته من ابن أبى عامر الذى بزغت شمسه ، وأخذت تعرج صعداً لتحتل كبد السماء :

وانحرف غالب عن المصحفى ، فأحس الرجل هواناً ، وشعر بالأرض تميد تحت قدميه ، وتيقن من أن سلطانه صائر إلى الزوال . فكر فى أن يكافح أعداءه ، وينافح عن نفوذه ، ولكنه ألفى نفسه أهون من أن يناصب خصميه القويين العداء ، فاستسلم ، وراح يرقب ما تأتى به الأيام .

واتفق غالب وابن أبي عامر على أن يعلنا نبأ الخطبة الجديدة ولكنهما ما كانا بقادرين على ذلك قبل أن يلتمس ابن أبي عامر الإذن من الخليفة ، فدخل على الأميرة ، وقد انتشرت في صدره رهبة خفية ، فهو يعلم أن ما سيلتمسه منها ، سيخز قلبها وخزات .

واستجمع شتات نفسه ، وما إن اطمأن إلى ما يدور في فكره حتى أفرخ روعه ، وقال في ثقة :

— بلغ مسامع مولاتي بلا ريب نبأ خطبة عثمان لأسماء .

— أنبأني المصحفي ذلك .

— لقد وجدت في تلك الخطبة خطراً يهدد الخلافة .

فرمقته الأميرة في دهشة ، واستمر في قوله :

— لو أن التقارب بين غالب والمصحفي قد تم ، لأغرى ذلك المصحفي على أن يركز السلطة في يديه .

فقالت الأميرة في اهتمام :

— وماذا تم في أمر تلك الخطبة ؟

— بذلت ما في وسعي لفسخها ، كتبت إلى غالب أثنيه عن عزمه ، وألتمس منه إلغاء عقد ذلك الزواج ، ولكن ما كانت مناشدتي له بكافية ليستجيب لدعوتي ، فلم أر بدأ من أن أتقدم إليه طالباً منه أن يزوجني من أسماء ، فما كان أمامي إلا ذلك ، لأحبط ما كان يتهددنا من أخطار ، وقد جئت ألتمس الإذن لنا بإعلان نبأ هذه المصاهرة .

اربد وجه صبيحة ، وشعرت بقلبها يدمى ، وبرعدة تسرى

فى أوصالها ، ويد قوية تقبض صدرها ، كانت تحب ابن أبى عامر وتهفو إليه ، وما إن صك أذنيها صوته وهو يلتمس منها الإذن له بالزواج ، حتى تحركت عقارب غيرتها ، وأخذت تنهش جوفها فى قسوة مريرة ؛ فلو أنها طاوعت عواطفها لصرخت فيه أن يكف عن ذلك الهراء . فما كانت لتسمح لامرأة أخرى أن تسلبها حبيبها ولكنها ما كانت بقادرة على أن تجرى وراء عواطفها ، وأن تستجيب لقلبها الولهان ، إنها أميرة قرطبة ، وأم الخليفة ، وقد جاءها كما يجىء أى رجل آخر من رجال القصر يلتمس منها الموافقة على زواجه ، فما لها إلا أن توافق على إتمام ذلك الزواج .

وتجلدت ، وتملكت عواطفها ، وقالت فى ثبات :

— إننا يا محمد نوافق على هذا الزواج ، وندعو له بالتوفيق .

ووقفت أمام ابن أبى عامر شامخة الرأس ، جامدة الملامح ، ولكن ما إن استأذن وخرج ، حتى انهارت على أقرب مقعد ، وأخذت تنشج بالبكاء .

٤٤

عمت البهجة أسماء لما بلغها نبأ خطبة ابن أبى عامر إياها ، وغمرتها نشوة عارمة ، وامتلأ قلبها غبطة ، وأحست خفة فى جسمها ، فهرولت إلى فراشها رشيقة كالطيف ، ثم استلقت فيه منشرحة الأسارير ، ونظرت إلى لا شىء ، وشرد ذهنها ، فقد ردت إلى طبعها الشاعرى الحالم .

وحلق فكرها ، وسبح خيالها ، فراحت تعيش وابن أبى عامر فى أحلام يقظتها ، فسرت فى مشاعرها إحساسات لذيذة ، زاد فى لذتها يقينها أن هذه الرؤى البهيجة لن تبقى طويلا مجرد أحلام تشتهى ، بل ستتجسد فى عالم الواقع الملموس وشيكاً .

وكرت الأيام ، وخرج ابن أبى عامر إلى غزوته الثالثة ؛ والتى وصهره ، وجعلا يقاتلان جيوش الإفرنج المعتصمة بحصونها ، واسترسلا فى قتالهما ، واسترسلت أسماء فى تصوراتها فقد كانت تتابع حبيبها بخيالها ، وترقب أوبته بصبر نافد ، فستزف إليه بعد عودته مظفراً .

ظلت أسماء تفكر فى ابن أبى عامر ، وقلبها يرفرف فى صدرها ، وما كانت المرأة الوحيدة التى تفكر فيه خافقة الفؤاد ؛ فقد كانت هناك فى قصر الزهراء امرأة أخرى يخفق قلبها بحبه ، وتختلس ساعات فراغها ، فتهرع إلى حدائق القصر حيث تخلو بأفكارها .

كانت أسماء تفكر فيه والأمل البسام يتراءى لها فيرقص القلب طرباً ، وكانت صبيحة تفكر فيه واليأس يتملكها ، فيقبض قلبها فى جوفها ، ويستولى عليها اضطراب وقلق ، فما كان لها أن تفكر فيه ، إنه ليس رجلها ، ولو كان لقلبها عقل ما نبض بحبه ، ولا هام به .

حاولت صبيحة أن تطرد طيفه ، وأن تمحو من ذهنها صورته الماثلة لها دواماً ، ولكن هيهات ، فقلبها مفتون به ، ونفسها تحن

إليه ، وعيناها لا تريان فى خلوتها إلا وجهه الجذاب ؛ كان طيفه يعذبها ؛ ولكنها كانت تجد لذة فى ذلك العذاب .

ورن فى أذنيها صوته وهو يلتمس منها الإذن بالموافقة على زواجه من بنت غالب ، فانسابت عقارب الغيرة فى جوفها ، وراحت تنهشها ؛ فتدمى روحها ، وضايقتها إحساساتها ، فأخذت تهون على نفسها أثر تلك الخطبة ؛ لتخفف من وطأة مشاعرها الثائرة القاسية ، وجعلت توهم نفسها أن ابن أبى عامر لم يقدم على الزواج من أسماء لأنه يحبها ، بل أقدم عليه ليدرأ خطراً داهماً ، إنه زواج سياسى ، وما لها تغار من مثل ذلك الزواج ! .

وهدأت ثائرتها قليلا ، وصفا ذهنها ؛ فرأت أن من الضعف أن تستسلم لغيرتها ، وشاءت أن تسمو بعواطفها ؛ فراحت تفكر فيما ينبغى فعله لو لم تكن تحب ابن أبى عامر .

رأت أن خير ما تفعله هو تجهيز أسماء وزفافها إلى زوجها من القصر ، ففى ذلك إرضاء ابن أبى عامر وصهره غالب ، وقطع ألسنة السوء التى تذيع نبأ العلاقة الآثمة بينها وبين حبيبها ، وإقناع نفسها بأنها وإن كانت تهواه إلا أنها لا تنقاد لغيرتها العمياء التى أوشكت أن تفسد عليها حياتها .

واستراحت إلى ذلك الخاطر ، وعزمت على إنفاذه ، ولكنها لم تفطن إلى أنها ما فكرت فى إجراء الزواج فى القصر ، إلا لأنها كانت فى قرارة نفسها تهفو إلى رؤية المرأة التى ستنعم بحبيبها ؛ الذى عز عليها أن تسعد به ، وتهنأ بحبه .

وقفل ابن أبي عامر إلى قرطبة ، وفى ركابه النصر . فرقى إلى منصب ذى الوزارتين ؛ وبعثت صبيحة إلى غالب أن يقدم بابنته أسماء ، فستزف إلى زوجها من قصر الزهراء ؛ وجاء غالب فقلد الحجابة مشتركاً مع المصحفى ، فأحس المصحفى أن ذلك إن هو إلا سهم تحقير سدد إلى صدره .

وجاءت أسماء إلى القصر ، فلما وقعت عينا الأميرة عليها انقبضت . كانت شابة حلوة ناضجة ، رائعة الجمال ، من ذلك الطراز الذى يعبث بالأفئدة ، ويستولى على الألباب .

غارت صبيحة من أسماء ، ولكنها لم تستسلم لغيرتها ، فكبتت عواطفها ، وغالبت ضعفها ، وأقبلت على الفتاة تبدى لها عطفها ، كانت نفسها تدمى وإن كانت الابتسامة العذبة ترف على شفتيها .

ووافت ليلة الزفاف ، فأقيمت معالم الأفراح ، وازدانت قرطبة بأبدع الزينات ، وتألق قصر الزهراء ، فقد كانت الليلة من أروع ليالى الأندلس : وارتدت أسماء أفخر الثياب : وتحلت بأثمن الحلى ، فبدت وردة نضرة من ورد الربيع .

واصطف الأندلسيون على جانبي موكب العروس ، ليشاهدوا أعظم موكب خرج من قصر الزهراء ، فقد تأنقت صبيحة فيه ، فجاء بالغ الروعة والجلال . وهبطت أسماء تتهادى فى فرح يشوبه قلق ، وما إن خرجت إلى طرقات قرطبة وهى محمولة إلى دار الحبيب ، ورأت حشود الناس الذين أقبلوا لينعموا بفخامة موكبها

حتى أحست رأسها يدور ؛ ولاح الدهش فى وجهها الهادىء الجميل ، وخيل إليها أنها تنطلق مسحورة فى وادى الأحلام ، كانت أسماء ترى الحلم حقيقة ، وتحيل الحقيقة إلى حلم شهى من الأحلام .

حملت أسماء إلى دار ابن أبى عامر ، فخفت الرجل فى قصر الزهراء ، ثم خمدت الحركة ؛ وسيطر السكون الرهيب ، وتركت صبيحة لنفسها ، فلفها حزن عميق ، تكدست مشاعرها فى صدرها ؛ ولم تجد لها منفساً خشية أن يفطن الناس إلى كدرها ، ولكن ما إن خلت بنفسها ؛ حتى هبت إحساساتها متمردة جبارة تعذبها وتضنيها . جاهدت صادقة أن تدفع عن نفسها ذلك الحزن الثقيل ، الذى ران على قلبها ، ولكن أبى لها ذلك أنها امرأة طعنت فى حبها ، وما كان لها أن تتغلب على طبائع البشر .

وسارت فى تثاقل ؛ حتى إذا بلغت أقرب مرآة أدامت النظر إلى وجهها ، فغاض لونها ، فقد هتف من أغوارها هاتف يهمس فى صوت بغيض ، أن جمالها الرائع قد خبا ، وأن نضارتها آخذة فى الذبول .

انقبضت وقلقت ، وربا حزنها ، فطأطأت بصرها ، وسارت فى خطا بطيئة مهمومة إلى جناحها ، وراحت تقطع فى أسى عميق ردهات قصر الحرمان :

٤٥

بزغ نجم ابن أبى عامر وتألق ، حتى بهر سرج رجالات الأندلس ، وأصبح قوياً ، فهان عليه أمر المصحفى ، ولم يعد يتحرز فى مهاجمته ، فراح يقدح فيه كلما قابل الأميرة ، ويشككها فى إخلاصه ، ويتهمه بأنه يعمل لنفسه ، لا يهمه مصالح الدولة .

ورأى المصحفى أن ابن أبى عامر يستل منه نفوذه ، وأن أصحابه وأعوانه انفضوا من حوله ، وأن الدنيا أولته ظهرها ؛ وبدأت تدبر بعد إقبال ، فضاقت به الأرض ، ونزل به الهم ؛ ولكنه لم يثر ولم يبد غضبه ؛ بل استسلم فى قنوط ؛ كان على يقين من أنه لم يعد يقدر على مناوأة خصمه ؛ أو البروز له للنزال .

وغلبه أصله البربرى ؛ استأسد لما كانت السلطة فى يديه ، فظلم الناس ، وأذاقهم صنوف الحيف ، وألوان الاضطهاد ، فلما نزعت منه استذل واستكان ، وقد أطمعت هذه الاستكانة وذلك الانكسار ابن أبى عامر فى أن يوجه إليه ضربته القاضية ؛ دون أن يخشى أن يكون لها رد فعل فى البلاد .

دخل ابن أبى عامر على الأميرة ، مقطب الجبين ، وفى عينيه ثورة ، وفى وجهه غضب ، فلما رأت صبيحة اكفهرار سحنته ، تطلعت إليه فى اهتمام ، فقال فى استياء :

— ارتفع أنين الناس حتى أصم الآذان . وجأروا بالشكوى ، فاقت مظالم آل المصحفى كل احتمال ؛ حقوق تؤكل ، ورشا تؤخذ ، وأموال تسلب ، وخزائن تغلق على ما جمع بالباطل من الشعب المغلوب على أمره . صارت البلاد ضيعة من ضياعهم ، تغل لهم ، وأصبح الأندلسيون الأحرار عبيد آل المصحفى ؛ الذين حكموا فى الرقاب . أصبحت الحال لا تطاق ، وأخشى يا مولاتى أن يعضل بنا ؛ ونجنى الحنظل الذى زرعه سوانا .

فأطرقت صبيحة وقد أهمها ما سمعت ، وبان فى وجهها الاستياء ؛ فراح ابن أبى عامر ينفث فى صدرها الحنق ويؤجج ناره .

— أصبحت الصدور مراجل تفور بالغضب ، وإن أقل ضغط قد يفجر تلك المراجل ؛ فتعم الثورة البلاد ، فإن كان لك فى الناس حاجة يا مولاتى ، فضعى حداً لهذه الجرائم الشائنة ، التى زعزعت الثقة فى الحكام .

فرفعت صبيحة رأسها وغمغمت :

— فاحت روائحهم الخبيثة حتى زكمت الأنوف .

— إننا فى أيام حرب يا مولاتى ، وإننا نحض الناس على أن ينفروا للجهاد فى سبيل غاية نبيلة ، فلو تركنا للمصحفى وآله الحبل على الغارب ، لاستمروا فى ظلمهم ، فتتضعضع ثقة الناس فى الغاية التى يقاتلون دونها ، وتشيع فيهم روح التذمر ، ويوقنون بأنهم يجودون بدمائهم لرفاهية السادة ، الذين استمرءوا حياة الخفض ، وهضم الحقوق . .

واسترسل ابن أبي عامر في ثورته ، ولم يغادر الأميرة حتى صدر الأمر بإقالة جعفر عن الحجابة ، وبالقبض عليه وعلى أبنائه وأصهاره ، وما إن أصبح الأمر بين يديه ، حتى بعث جنده إليهم وأمرهم أن يحبسوا المصحفي في المطبق بالزهراء .

انطلق جند ابن أبي عامر إلى دار المصحفي ، وأحاطوا به ، ودخلوا عليه ؛ وما إن رآهم حتى فطن إلى كل شيء ، فقام مطأطيء الرأس ، وقبل أن يذهب معهم التفت إلى أهله وقال ، وقد ترقرق الدمع في عينيه :

— لستم ترونني بعدها حياً .

وسار بين الجند وفي وجهه ذلة وانكسار ، وخلفه نشيج ونحيب ، كان أهله يبكون الكرامة المنهارة ، والعز الذي زال .

وأغلق باب المطبق خلفه ، فأطرق حزيناً وشرد ذهنه ، فعاد به إلى أيام الناصر ، فزاد انقباضه ، كان يرى مشهداً لم يقو مر السنين على محوه من ذكراه ، فلطالما أرقه ، وأطار النوم من عينيه .

رأى رجلا جيء به إلى الناصر ، وقد اتهم زوراً ، ورأى نفسه يشهد على الرجل ظلماً ، حتى ألبس الباطل ثوب الحق ، فحكم الخليفة بسجنه ، ومرت أيام ، ونسي الرجل الذي رمى به في أضيق السجون ، وفي ذات ليلة رأى رؤيا أفزعته ، رأى هاتفاً يهتف به في غضب : أطلق الرجل فقد أجيبت فيك دعوته ، فقام من نومه يرتجف ، وما إن أصبح الصباح حتى أطلق الرجل

وأحضره ، وسأله عن دعوته عليه ، فقال : « دعوت على من شارك فى أمرى أن يميته الله فى أضيق السجون » .

وتلفت المصحفى فى خوف ، وكان يزيد فى رهبته ، ذلك الصوت الذى يرن فى أذنيه ، فيخلع قلبه :

— دعوت على من شارك فى أمرى أن يميته الله فى أضيق السجون .

وضاق بذلك الصوت الذى أخذ يتردد فى أذنيه ، وفى أغوار نفسه ، فجعل يذرع المطبق فى حنق وهو يصيح :

— إنها قد أجيبت ! إنها قد أجيبت !

وانهار مبهور الأنفاس ، وطفق يبكى فى قنوط .

٤٦

سجن المصحفى ؛ وبات يرقب محاكمته ، ورقى ابن أبى عامر إلى مرتبة الحاجب ؛ فقاسم صهره الحجابة والنفوذ ، فأوغر ذلك صدور شانئيه ، ونفس عليه بعض إخوانه فى الدراسة ذلك الجد السعيد ، ولم يقدروا على أن يطووا نفوسهم على حسدهم ، فراحوا يقدحون فيه ، لينفسوا عن قلوبهم المريضة ، وصدورهم المليئة بأخبث الإحساسات .

وحقد أذناب المصحفى على ابن أبى عامر ، فراحوا يملئون الأرض إذاعة بأنباء العلاقة الآثمة بينه وبين صبيحة ، وكان منهم الرمادى الشاعر ، فاستغل موهبته فى النيل من خصمه ، ونظم فيه

قصائد لاذعة ، من الهجاء المرير ، كانت تنتشر فى الجماهير انتشار النار فى الهشيم ، فما أيسر ذيوع الهجاء القاذع المكشوف .

وساء الصقالبة أن تدول دولتهم ، وأن يسلب منهم النفوذ ، فنقموا على الدولة ؛ وكان جؤذر أكثرهم حنقاً وغيظاً ، وما استطاع أن ينسى أنه خرج من القصر مطروداً ؛ فطفق يتحين الفرص ليثور .

واجتمع أقطاب المتذمرين : رئيس المحكمة العليا ، وبعض القضاة من إخوان ابن أبى عامر ، وجؤذر وبعض البارزين من حزب المصحفى ، وأخذوا يتدارسون قضيتهم ؛ فوجدوا أن خير وسيلة للقضاء على ابن أبى عامر قتل الخليفة الضعيف ، المشغول عن ملكه بعباداته وصلاته وصيامه ، وإسناد الخلافة إلى أمير محنك ، من أحفاد الناصر العظيم .

واتصل المتآمرون بالأمير عبد الرحمن بن عبد الله ؛ وعرضوا عليه ما دبروه ؛ ومنوه الخلافة ؛ فانضم إليهم ، وقد تولدت فى نفسه آمال عراض ، وتفتحت أمام عينيه أرحب الآفاق ، فما هى إلا ليلة وضحاها حتى يصبح خليفة الأندلسيين .

وأرادوا أن يحكموا تدبيرهم ، فهم يعلمون مغبة إخفاقهم ، فرأوا أنهم لو نجحوا فى ضم حاكم قرطبة إليهم ، لوثقوا من نجاح خطتهم ، فبعثوا إليه رسلهم ، وجعلوا يمنونه ويغرونه ، حتى لان وانحاز إليهم ، فسكنت الطمأنينة قلوبهم ، فقد انتهى تدبيرهم ، وتمت حلقاته ، ولم يبق إلا التنفيذ .

ووافى اليوم الموعود ، فخرج حاكم قرطبة إلى داره بأرباض المدينة ، ليخلى الجو لجؤذر ، الذى تطوع للفتك بالخليفة ، فهو أعرف المتآمرين بالقصر ، وطالما عاش فيه .

وانطلق جؤذر إلى قصر الزهراء ، وقد أعماه حقده ، وكان قلبه يخفق بالمقت الشديد للخليفة الضعيف ، الذى كان ألعوبة فى أيدى من دبروا إقصاءه عن السلطة والنفوذ . إنه قد عزم على تحطيم هذه الألعوبة ، ليهتك الستار الذى تحتجب خلفه الأميرة الواقعة تحت سلطان عشيقها ، الوالغ فى الدسائس والمؤامرات ، ليجمع فى قبضته السيادة والنفوذ .

ودخل القصر ثابت الخطو ، ولم يبد عليه اضطراب ، ولم يشف وجهه عما يعتلج فى صدره من إحساسات ، كان هادئاً كأنما قد من حجر جلمود ، والتمس الإذن بالمثول بين يدى الخليفة ، فخرج الإذن له بالدخول عليه ، فتقدم وقد تحركت مشاعره كأفاعى رفعت رأسها تتأهب للوثوب .

رأى هشاماً المؤيد بالله جالساً على سريره ، ووقف بالقرب منه رجل من رجاله فانحنى حتى كادت جبهته تلمس الأرض ، ثم تقدم وقد أرهفت منه الحواس ، فما تفصل بينه وبين الخليفة إلا خطوات قصار ، وما هى إلا أن يستل خنجره ويدفنه فى صدر هشام ، حتى يستل من جنبيه الحياة .

وفى لمح البصر تألق الخنجر فى الهواء ، وهوى جؤذر به ليطعن الخليفة ، ولكن الرجل الواقف بالقرب منه هجم عليه ،

وقبض على يده ، ودارت بينهما معركة رهيبة ، وأخذ الرجل يستنجد بالحراس ، فخفوا لنجدته ، وقبضوا على جؤذر .

وأقبل حاكم قرطبة ، وعلم بافتضاح المؤامرة ، فأوجس خيفة ولاح له طيف ابن أبى عامر ، فارتجف ، ورأى أن خير ما يفعله ليدفع التهمة عن نفسه ، أن يجد فى القبض على المتآمرين :

وتم له القبض عليهم ، وراح يشير إلى الخليفة بصلب رئيس المحكمة العليا وجؤذر ، إمعاناً فى التقرب إلى السلطان ، فنفذ اقتراحه ، وحوكم المتآمرون ، وصدر الحكم بقتلهم جميعاً ، فقتل الأمير عبد الرحمن بن عبد الله ، وكفنت فى صدره آماله المشتهاة ، التى زرعها جؤذر ، وسقاها شانئو ابن أبى عامر الموتورون بوعودهم الخلابة .

٤٧

تزوج ابن أبى عامر من أسماء ، فتفتح قلبه لجمالها الخلاب ، وقهره ذلك الضعف المنعكس على صفحة وجهها الوديع ، الذى يلتمس من الرجل حمايتها ، فيمنحها إياها راضياً مطمئناً دون تحرز أو تفكير .

كانت رقيقة ؛ وما كانت صاحبة شخصية طاغية جبارة كصبيحة ؛ شخصية يجلها ويهابها من يحتك بها أكثر مما يتعشقها ؛ بل كانت أنثى ، ترف الابتسامة العذبة على شفتيها ، وتتكسر أهدابها فى دلال ، لتخفى البركان الثائر فى عينيها ، وينساب صوتها

حنوناً يدغدغ حواس المنصت إليها ، كان سحرها اللين يسرى فى النفوس رخاء ؛ حتى يستقر فى سويداء القلوب ، فلا يعرف بعدها براحاً .

سبت رقتها ابن أبى عامر ، فأصبح أسير هواها ، وملأت حياته بهجة وحبوراً ، كانت النشوة تغمره إذا أسندت رأسها الفتان إلى صدره ، واستكانت له فى ضعف حبيب ، وأخذت تحدثه حديثها الحلو ؛ الذى يعبث بأوتار قلبه ، فطبيعتها الشاعرية الحالمة تجذبه إليها ، وتستولى على لبه .

كان يهرع إليها عقب عمله ، وينصت إلى حديثها الجذاب ؛ الذى كان ينسيه دنيا الدس والمؤامرات ؛ ويرفعه إلى عالم علوى نقى ، فما كانت تهتم بأخبار الأميرة والخليفة والحاجب ، بل كانت تقص عليه أنباء دنياها الرحيبة التى كانت تستمد الحياة من نبض قلبها ، وشطحات خيالها الصافى .

كانت تروى له إحساساتها لما وقعت عيناها عليه أول مرة فى مراكش ، وما فعلته لتجذب إليها بصره ؛ وما كان يجرى بينها وبين طيفه من حوار ومناجاة ، واستعطاف وعتاب وخصام . وكانت تحدثه وقد تألقت عيناها ببريق قوى ، واصطبغت وجنتاها بحمرة جذابة ، تنم عن تدفق دمائها الحارة إلى وجهها ، فكان يرنو إليها مسحوراً ، فذلك الحديث يهز فؤاده ، ويرضى غروره .

وأخذت تعيد ذكرياتها التى كان خيالها مسرحاً لها ، وتقصها عليه فى حرارة ، فكان يصغى إليها ؛ وهو يحس تلك

اللذة التى يحسها الصغير عندما يستمع إلى الحكايات اللطيفة ، فهى ترتاد به عوالم جديدة ، لم يألفها من قبل ؛ فما كان ممن يحلقون فى الأجواء الشاعرية ، بل كان يفكر ويدبر ويمعن فى التفكير والتدبير ؛ ليقصى هذا أو ذاك ، ممن يعترضون طريق بلوغه ذروة السيادة والسلطان .

سلبته فؤاده ، فكان يغتنم سويعات فراغه ليمضيها معها ، فشغلته عن القصر ، فما عاد يذهب كل يوم لملاقاة الأميرة كما كان يفعل قبل أن يتزوج ، وفطنت صبيحة إلى ذلك التبدل ، فتحركت عقارب الغيرة فى صدرها ، وجعلت تنهشها وتضنيها ، وأحست طعم الصاب فى فيها . كانت توحى إلى نفسها أن ابن أبى عامر ما تزوج من أسماء إلا ليباعد بين المصحفى وأبيها ، وإذا بالأيام تكشف لها عن وجه الحقيقة المريرة ، فذلك الزواج السياسى تمخض عن حب عميق ، حب أسدل ستاراً كثيفاً بينها وبين من أحبته حباً طاغياً جباراً .

كانت صبيحة تعتقد فى أعماق نفسها أن ابن أبى عامر يهواها وأنه يكتم حبه خشية أن يكون فى مكاشفتها به إساءة لها ، ففكرت مراراً فى أن تسفر له عن هواها ، لتهون عليه ما يقاسيه من رهبة ، ولكن كان كبرياؤها يقوم حائلا بينها وبين رغبتها فى اللحظة التى تهم فيها بإلقاء نفسها بين أحضانه ، وها هى ذى الأيام تثبت لها أنها عاشت مخدوعة ، فابن أبى عامر الذى خفق بحبه قلبها ، لم يعشقها يوماً ، كانت تعيش سعيدة فى ظل وهم كاذب خداع .

وأطرقت حزينة ، والألم يخز نفسها وخزاً قاسياً ، ودارت في رأسها أفكار وذكريات ؛ إنها أقصت ابنها عن الحكم بعد موت الخليفة ، لأنها أرادت أن تنفرد وابن أبي عامر بتسيير دفة البلاد ، فهي تحبه بكل جارحة من جوارحها ، وكانت تطمع في أن يأتي اليوم الذي تسعد فيه بذلك الغرام ، ولكن ذلك الحلم قد تقوض ، فالحبيب الذي ضحت بابنها من أجله أحب غيرها ، وتركها للضنى والعذاب .

وفكرت في هشام ، فوجدت أنها قد جنت عليه جناية ما كانت ترتكبها أم حيال وحيدها ، إنها عملت على إضعاف شخصيته ، وأوهمته أن من الخير له أن يتفرغ للعبادة ، وأن ينقطع لقراءة القرآن ، والإفراط في الصوم والصلاة ، ليشغل عما في يدها ويد حبيبها من سلطان . إنها تحت تأثير الوهم الكذاب ارتكبت تلك الحماقة ، ولكن ما إن انقشعت عن عينيها الغشاوة ، حتى رأت أن تعد ابنها ليتحمل نصيبه في إدارة البلاد ، فما عادت تستطيع أن تحمل وحدها كل الأعباء .

حسبت صبيحة أن ابن أبي عامر لم يعد يزور القصر ، لأنه مشغول بأسماء ، ولم تفطن إلى أن ذلك ليس السبب الوحيد ، فقد كان مقدماً على مجافاة القصر ولو لم يتزوج ممن سلبته الفؤاد ، بعد أن عظم قدره ، وصار يستطيع أن يشق طريقه وحده ، دون رعاية الأميرة ، التي كان يستمد منها النفوذ ، أيام كان في حاجة إلى من يسنده ويرعاه .

٤٨

بقى المصحفى فى المطبق ردحاً من الزمن ، ثم بدأت محاكمته أمام مجلس الوزراء ، فكان يؤخذ إلى المجلس ؛ حتى إذا انتهى من استجوابه من كانوا يرتجفون منه فرقاً ، أعيد إلى السجن ذليلا وقد تحركت شجونه ، وملئت نفسه عجباً من اصطبارها بعد العز على ذلك الهوان ، الذى يتجرعه غصة بعد غصة .

كان الألم يحز فى نفسه ، ويضغط على صدره ؛ فإذا ما أضناه أساه ، طفق يستريح من كربته ، بترجمة إحساساته التى تعذبه ، فكان يذرع سجنه وهو يردد ما ينظمه ، لعل ذلك الكرب البغيض ينقشع ، ولعل نفسه التى ذهبت شعاعاً من أثر تلك النكبة تتجلد ، واستراح إلى بعض أبيات أوحتها إليه محنته ؛ فجعل يرددها فى أسى :

وكانت على الأيام نفسى عزيزة ... فلما رأت صبرى على الذل ذلت
فقلت لها يا نفس موتى كريمة ... فقد كانت الدنيا لنـا ثم ولت

وأقبل آخر يوم من أيام محاكمته ، فجاء حارسه إلى المطبق ، وأخرجه ، وأخذ يسوقه إلى مجلس الوزراء راجلا ، فانطلق فى تثاقل ، وزاغت الأبصار ، واضطرمت باللواعج جوانحه ، وهاضه البهر ؛ فطأطأ بصره فى انكسار ، وهان أمره على حارسه فجعل ينهره ، ويستحثه على الإسراع ؛ فالتفت إليه وقال فى مرارة :

ــ رفقاً بى ، فستدرك ما تحبه ، وترى ما كنت ترتجيه ، ويا ليت أن الموت يباع فأغلى سومه .

وبلغ المجلس ، فجلس فى آخره مطرقاً ، وما كانت تعتمل فى صدره إحساسات فوارة ، فقد جنح إلى اليأس بعد أن رأى شدة وطأة الوزراء عليه عند محاسبته فى المرات السابقة . إنهم يشددون عليه بعد أن دالت دولته ؛ إرضاء لابن أبى عامر الذى عظم ، حتى آلت إليه مقاليد البلاد . جلس دون أن يسلم على أحد وقد فاض حزنه ، فهؤلاء الذين يحاكمونه كانت تسعدهم بسمة رضا من شفتيه ، أو إيماءة استحسان من رأسه ، وكانت تفكك أوصالهم ، وتنزل الرهبة بقلوبهم نظرة عابسة من عينيه ، أو إشاحة غاضبة بوجهه ، أو زعقة خفيفة فى لحظة من لحظات انحراف مزاجه .

ودنا منه وزير من وزرائه ، ورنا إليه فى زراية ، وقال فى سخرية :

ــ أما كان أجدر بالحاجب العظيم ، الذى أكل أموال الناس بالباطل ، وهضم الحقوق أن يقرئنا السلام ؟ !

فأعرض جعفر عنه ، فكثر القول من الرجل ، ولما تضايق المصحفى رفع إليه بصره وقال :

ــ يا هذا ، نسيت الأيادى الجميلة .

فقال الوزير فى إنكار :

ــ هذا البهت بعينه ، وأى أياديك الغر التى مننت بها ؟

— رفعى القطع عن يمناك .

— هذا هو البهتان .

فأدار المصحفى عينيه فى إنكار :

— أنشد الله من له علم بما أذكره إلا اعترف به .

فقال وزير آخر :

— قد كان بعض ما ذكرته يا أبا الحسن ، وغير هذا أولى بك وأنت فيما أنت فيه من محنتك .

فقال المصحفى :

— أحرجنى الرجل ، فتكلمت .

فقال الوزير الآخر لمن هاجم المصحفى :

— أسأت إلى الحاجب ، أو ما علمت أن منكوب السلطان لا يسلم على أوليائه ، لأنه إذا فعل ألزمهم الرد ، فإن فعلوا طاف بهم من إنكار السلطان ما يخشى ، لأنه تأمين لمن أخاف .

وأخذ القوم يسألونه عن الأموال ، فقال :

— والله استنفدت ما عندى من الطارف والتالد ، ولا مطمع لى فى درهم ، ولو قطعت إرباً إرباً .

وصرف المصحفى إلى المطبق بالزهراء ، ونزع ابن أبى عامر أملاكه جميعاً ، ومرت الأيام وهو فى محبسه ، حتى إذا جاء أوان خروج ابن أبى عامر إلى غزوته ، لم يطمئن إلى تركه فى قرطبة حبيساً ، فرأى أن يذهب به معه ، فخرج المصحفى فيمن خرج لقتال الإفرنج .

وفى ليلة من ليالى القتال ، نهى ابن أبى عامر الناس عن إيقاد النيران تعمية على العدو ، وكانت الليلة شديدة القرة ، فسرى البرد فى جسم المصحفى ، واصطكت أسنانه ، وراح يذرع الفضاء ، ليجلب الدفء لجسمه المقرور ، ولكنه ظل يرتجف من البرد ، فجاء بكانون صغير ، وأخفاه تحت ثيابه ، وأخذ ينفخ الفحم ، حتى إذا ما توهج وانتقلت منه الحرارة إلى جسمه انبسطت أساريره ، فياالحاجب الدولة الذليل ، الذى صارت أقصى أمانيه أن ينعم بحرارة بضع جمرات !

وانتهت الغزوة وأعيد المصحفى إلى سجنه ، فعاد إليه الهلع والجزع وخطر له أن يكتب لابن أبى عامر يستعطفه ، فلم تثر كرامته ، ولم يغضب من ذلك الخاطر ، وأخذ ينظم له الشعر مستعطفاً لعل قلبه يرق ، ولكن ابن أبى عامر كان يستعذب إيلامه ؛ فأصم أذنيه عن تلك التوسلات .

وفى يوم كتب إليه أن يقعد فى دهليزه معلماً لأولاده ، فابتسم ابن أبى عامر فى خبث وقال :

— إن هذا الرجل يريد أن يحط قدرى عند الناس ؛ لأنهم طالما رأونى بدهليزه خادماً ومسلماً ، فكيف يرونه الآن فى دهليزى معلماً ! ؟

٤٩

استفحل أمر ابن أبى عامر ، فرأى أن يسلب السلطة من الخليفة الضعيف المشغول عن ملكه بعباداته ، فوكل بأبواب قصر الزهراء رجالا من أنصاره يمنعون الوصول إلى الخليفة إلا بإذنه ، وساء صبيحة ذلك الحجر وأغضبها ؛ فقد عاونته لأنها أحبته ، وكانت تحسب أنه يهواها ، وأنه سيقف دواماً إلى جوارها ، فإذا به يجحد أياديها ، وزاد فى أساها أنه لم يدر بخلدها أن ذلك الذى تفتح له القلب سيصبح يوماً سجانها .

وحصن القصر بسور ضخم ، وحفر حوله خندقاً ، فأصبح الوصول إلى الخليفة أمراً عسيراً ، فرجاله يضبطون المنافذ ، وعيونه يرصدون كل ما يجرى فى القصر ، فحنقت صبيحة ، وزاد فى حنقها أنها كانت على يقين من أنها لا تستطيع أن تفعل شيئاً ، فانتصاراته على الإفرنج حببت الشعب فيه ، وجعلت منه رجلا خطيراً . إنها أصبحت تغدو وتروح فى القصر ثائرة كلبؤة حبيس ، يخفق قلبها بالكراهية لذلك الذى كانت تهفو إليه نفسها وتشتهيه حواسها جميعاً .

ورأت أنها قد أساءت إلى ابنها يوم نحته عن الحكم ، وجعلته ينغمر فى عباداته خضوعاً لعاطفتها الهوجاء ، وحبها الأعمى لابن أبى عامر ، فأرادت أن تمحو آثر تلك الزلة ، فعزمت على أن

تنفخ فى ابنها روح الثورة والتمرد ، على ذلك الذى يحاول أن يسطو على حقوقه .

وراحت تمضى أوقاتها مع ابنها ، تفتح عينيه على ما يجرى فى ملكه ، وتحذره من أن يلقى إلى ابن أبى عامر مقاليده ، فيقوده حيث يشاء ، وكانت تحس بعض الراحة وهى تفضى إلى ابنها بنصحها ، فكانت ترد ذلك الشعور إلى أنها قد تخلصت من سيطرة ابن أبى عامر على روحها ، وقد خلص حبها لوحيدها ، وما فطنت إلى أنها ما أحست تلك الراحة إلا لأنها توغر صدر الخليفة على حبيبها الذى هجرها وآذى كبرياءها .

ولم يحفل ابن أبى عامر بغضب صبيحة ، فما هى إلا امرأة ساقها إليه قدره ، لتعاونه على أن يبلغ هدفه ، ولم يفت عضده ذكريات الماضى ، فما الماضى عنده إلا خطوات قطعها فى سبيل غرضه ، إنه دواماً يرقب غده ، ولا يلتفت إلى أمسه .

وانطلق فى طريقه ، فألفى الزهراء لم تعد تتسع له وللخليفة ، أصبح فى حاجة إلى مدينة جليلة ، ينزل فيها بأهله وذويه ، وجنده وغلمانه ، وأن يشحنها بأسلحته وأمواله ، فراح يرتاد أرباض قرطبة ، حتى اهتدى إلى موقع صالح لتشييد مدينته بطرف قرطبة الشرقى ، على نهر الوادى الكبير ، فحشد الصناع والفعلة وشرع فى بناء الزاهرة .

وشيدت القصور ، فانتقل إليها ، وأقطع ما حولها لوزرائه وكتابه وحجابه ، وقواده ، فابتنوا بها كبار الدور ، وأحاسن

القصور ، وانتقلت إليها الدواوين ، وقامت بها الأسواق ، وهرع الناس للنزول بها ، للدنو من صاحب الدولة ، فراحت الزاهرة تزهو بعمائرها .

وجلس ابن أبى عامر فى قصره البديع ، وكتب إلى الأقطار بالأندلس والعدوة ، وأن تحمل إلى مدينته تلك أموال الجبايات ، ويقصدها أصحاب الولايات ، وينتابها طلاب الحوائج ، فدبت الحياة فى الزاهرة دافقة قوية .

ورأى غالب تضخم نفوذ ابن أبى عامر ، فتحركت فى صدره عوامل الغيرة ، وفكر فيما قام به ، فارتاب فى نياته ، وأوجس منه خيفة ، إنه قد تطاول على الخليفة ، وحبسه فى قصره دون أن يخشى غضب صبيحة ، فما الذى يمنعه من أن يوجه إليه سهامه ، ليتخلص منه ، ويخلو له الأمر فى الأندلس ؟

وراح غالب يرقب زوج ابنته فى حذر ، إنه يتودد إليه ، ويظهر له التجلة والاحترام ، ولكن ما كان ذلك ليجوز عليه ، فهو رجل كر وفر ، ومناورات ومفاجآت ، وما كان هيناً كالمصحفى يسهل خداعه .

فطن إلى أن ابن أبى عامر يهادنه حتى يشتد ساعده ، ويومها لن يتردد فى أن يوجه إليه ضربته ، ولكنه ما كان بقادر على أن يفعل شيئاً ، فهو لم يكاشفه بعد بعدائه ، وما فطن إليه إن هو إلا هواجس تدور فى نفسه ، وما يدريه لعل حرصه ضخم له تصوراته ، وجعله يتهم زوج ابنته بما لم يخطر له على بال ؟

وعزم على أن يضع حداً لمخاوفه ، فوطن النفس على الذهاب إلى ابن أبى عامر مستنكراً حجره على الخليفة ، آملا أن يكشف حوارهما عن خبيئة نفس ذلك الداهية ، الذى يبدى دواماً الود والسلام .

ودخل القائد المحنك على زوج ابنته ، فتلقاه الرجل بالبشاشة والترحاب ، وبالغ فى احترامه ، وجعل غالب يرمقه فى تفرس ، كأنما يبغى أن يغوص فى أغوار نفسه ، ولكن أنى له ذلك ، فقد كانت نفس غريمه أعمق من أغوار المحيط .

وفكر غالب فى أن يفجأ غريمه باستنكاره ، فلا يدع له مجالا لتنميق أفكاره ، فقال له فى غضب ظاهر :

ـ ساءنى يا محمد حجرك على الخليفة ، ويعز على أن أرى حفيد مولانا الناصر محبوساً فى قصره ، ليس له من الأمر شيء .

فقال ابن أبى عامر فى هدوء دون أن يضطرب :

ـ ما حجرت عليه إلا لمصلحته .

فقال غالب فى سخرية :

ـ وأى مصلحة فى حبسه ، وانتزاع السلطة من يديه !

فقال ابن أبى عامر فى ثبات :

ـ عزمت على أن أقضى على منافسيه جميعاً ، وأن أخلص له ملكه من الطامعين فيه ، وخشيت أن يفسد على تدبيرى بتصرفاته فحلت بينه وبين أعدائه ، المتسربلين فى ثياب الأصدقاء .

واسترسل الرجلان فى حوارهما ، ثم خرج غالب ، وهو

فى شك من أمره . يخشى غدرات ابن أبى عامر . وإن لم يجد الدليل الملموس على انتوائه الغدر به . فآثر أن يتريث إرصاداً لما تأتى به الأيام ، أما ابن أبى عامر ، فقد ضاق بمعارضة صهره له فأطرق يفكر فيما ينتهجه نحوه ، فرأى أن يبادر بالتخلص منه ، فقد آن له أن ينفرد وحده بالنفوذ والجاه .

٥٠

راح ابن أبى عامر يعمل على تكوين جيش ضخم يدين له بالولاء ، فقد كان الجيش الأندلسى لا يزال يتبع النظام القبلى ، فكل قبيلة تقدم المقاتلين إذا جد الجد ، ودق ناقوس الخطر ، وما كان هذا ليرضى ابن أبى عامر بعد أن رأى فى مراكش فرسان البربر ، وجنودهم المتخصصين للقتال ، فأخذ يعمل على تكوين جيش ثابت لا يحترف أفراده إلا الجندية .

ورأى أن فرسان البربر قد اكتسبوا خبرة فى الطعن والنزال ، فبعث إليهم ، فجاءوه سراعاً يتدفقون على مدينته الزاهرة ، حتى غصت بهم ، وكان غالب يرقب ذلك وقد امتلأ صدره غيظاً فقد برح الخفاء ، وبان للعيان أن زوج ابنته يتأهب للانقضاض عليه ، ليخلص له وجه الأندلس جميعاً .

وفكر فى أن يجلب إلى الأندلس قائداً محنكاً يكسف ضياؤه ضوء غالب الذى يتيه بفروسيته ، فأخذ يعجم عيدان القواد ،

فوجد أن الأمير جعفر بن على المقيم بأرض العدوة والياً على من أطاع الخليفة من زناتة أوسعهم شهرة ، وأعظمهم قدراً ، فكاتبه وطلب منه أن يقدم عليه بجيشه ، فأجابه الأمير إلى طلبه وراح يتأهب ليعبر البحر إلى الأندلس .

وأعد له ابن أبى عامر قصراً فاخراً ، فلما وفد الأمير عليه أخذ يبالغ فى إكرامه وتقريبه منه ، واستوزره ، وتلازما ، فما كانا يفترقان إلا نادراً ، وأصبحا صديقين ، بل أخوين ، ولكن إلى متى تدوم صداقة ابن أبى عامر ؟

تكشفت نياته بعد أن استقدم جعفرا ، فما عاد هناك شك فى أنه يتأهب للقضاء على غالب ، فقد كان يتبع نفس السياسة التى اتبعها فى التخلص من منافسيه ، تقرب من أحدهم ، والاستعانة به على الآخر ، فقد تقرب من المصحفى ، وصانعه وأظهر له ولاءه ، حتى قضى على الصقالبة ، فلما تم له ذلك تقرب من غالب ، واستعان به على إسقاط المصحفى ، واليوم يدنى جعفرا منه ليؤازره فى إزالة غالب من طريقه .

وشعر غالب بالخطر يدنو منه ، فأحس كراهة لصهره ، واسترسل فى تفكيره ، فرأى أن خير ما يفعله أن يبادر بمهاجمة غريمه قبل أن يهاجمه ، وشاء أن يحقن دماء الناس ، فعزم على أن يستدرج صهره ، ليقضى عليه دون قرع السيوف ، وزحف الصفوف .

وبعث إليه يدعوه إلى زيارته فى إحدى غزواته . فخرج إليه

ابن أبى عامر فى بعض فرسانه ، حتى إذا ما أشرف على مدينة أنتيسة ، قابله غالب ورحب به ، ثم قاده إلى قلعة من قلاعها حيث أعد له وليمة فاخرة .

وتحلق الجمع الطعام ، ودار الحديث بين غالب وصهره لينا ، ثم أخذ يشتد حتى قال غالب :

— إن ما يحزننى يا محمد إساءتك إلى ولى نعمتك ، وحجرك عليه .

— ما أسأت إليه بحجرى عليه ، فما منعت اتصال الناس به إلا حرصاً عليه .

— بل طمعاً فى أن تجمع السلطة فى يديك .

— ما طمعت فى السيادة ، وما جريت وراءها ، ولكنها انقادت إلى .

فقال غالب فى سخرية :

— والله لن يوردك غرورك إلا موارد الهلاك .

— والله ما بى من غرور ، ولكن ثقة بقدرتى على إسعاد الناس .

— وماذا فعلت غير الدس والنفاق ؟

— ما نافقت ، بل قضيت على الفساد ! وضبط البلاد .

— ما أنت إلا ثعلب رواغ .

— ما كان لثعلب أن يهب لقتال الأعداء يوم تحصنت أنت فى مدينتك ، وتركت الإفرنج يخربون القلاع ، ويعيثون فى الأرض فساداً ، لترغم الخليفة على أن يقربك ويدنيك ، أردت

أن ترتفع على أنقاض مدننا وأجداث قتلانا .

فثارت ثائرة غالب ، ولم يستطع أن يضبط عواطفه ، ورأى الفرصة سانحة ليقضى على صهره ، فهب قائماً وهو يصيح :

— يا كلب ، أنت الذى أفسدت الدولة وخربت القلاع .

وسل سيفه ، ورفعه وهوى به على ابن أبى عامر ، فأسرع رجل يحبس يده ، فجاءت الضربة ضعيفة اتقاها ابن أبى عامر بيده فجرحت أنامله ، وخلصت الضربة إلى صدغه ، فراح يشجب دماً .

وفى مثل لمح البصر لاح لفكره كل شىء ، فإن بقى فى القلعة أجهز عليه ، فتلفت حوله ، فلم يجد إلا شرفة ، فهرع إليها ، ونظر إلى الأرض ، فهاله ارتفاعه ، وخفق قلبه رعباً ، ولكن لم يكن أمامه إلا أن يقفز من ذلك العلو الشاهق .

وقفز يائساً ، فتلقفه حظه ، فسقط على سقيفة بين حائطين ، فأصيب بجروح ، ولكنه لم يحفل بما أصابه ، أنسته فرحته بنجاته ما يكابده من آلام ، وهبط إلى جنده الذين كانوا ينتظرونه مثخناً بالجراح ، فهرعوا إليه يعالجونه ، وبقى مدة مكروب الأنفاس ، حتى إذا سكن روعه ، أخذت الأفكار تومض فى ذهنه وميض البروق .

رأى أن أوان المصانعة والمداراة قد ولى ، فقد نشبت الحرب السافرة بينه وبين صهره ، ولم يشأ أن يضيع وقتاً ، فقد صار لكل دقيقة قيمتها ، فجمع من معه ، وذهب ليهاجم غالباً فى قلعته ، ولكنه امتنع عليه بمعقله ، وصار مناله عزيزاً .

وصمم على أن ينتقم لما ناله ؛ فانطلق ومن معه إلى مدينة سالم حيث دار غالب وأمواله ، فدخلها واستولى عليها ، وقسم ما بها على جنده ، ثم قفل عائداً إلى قرطبة ؛ ليتأهب للمعركة الرهيبة ، الفاصلة بينه وبين صهره .

٥١

نزل بأسماء هم ثقيل ، أقلقتها تلك العداوة الناشبة بين زوجها وأبيها ، وزاد فى قلقها تلك العواصف المتضادة المتصارعة فى جوفها ؛ كانت تشفق على زوجها ، ثم تعود لتشفق على أبيها ، فهى حيرى لا تدرى إلى أى معسكر تميل .

وربما حزنها لما خرج زوجها على رأس جيش جرار ، وقد استعان بالأمير جعفر بن على والبرابرة على قتال أبيها ، إنها كانت ترقب زوجها وهو خارج فى غزواته قلقة ، ولكنها ما كانت تشعر بالحزن الثقيل الذى تحسه اليوم ؛ فلن تجنى من هذه المعركة البغيضة إلا الحسرة والأشجان فستفقد فيها أحد رجليها : زوجها أو أباها .

وزادت طبيعتها الحالمة فى قلقها ، كانت المعارك تنشب فى رأسها فترى سيف أبيها يهبهب فى الجو ، ثم يهوى ليقط رأس زوجها ، فتخفى وجهها بين راحتيها فى فزع ، وتحس خنجراً يغوص فى قلبها ، فتتلوى من الألم ، ثم تجهش بالبكاء .

كانت دموعها تخفف حر لواعج نفسها ، ولكن ما إن تجف عبراتها حتى يقفز إلى رأسها الوجه الآخر البغيض من وجوه المعركة ، كانت ترى زوجها يستل سيفه ليدفنه فى صدر الشيخ ، فتئن وتتأوه ، وتشيح بوجهها ، لتفر من ذلك العذاب .

ومرت الأيام قاسية بغيضة ، وأسماء الرقيقة تحاول أن تبعد عن عينيها تلك التصورات الدامية ، والأشباح الرهيبة ، ولكن كيف السبيل إلى ذلك ، وقد نشبت فى رأسها ، آناء الليل وأطراف النهار ، معارك أشد هولا من تلك التى ستدور رحاها فى الميدان .

وجاء إلى قرطبة أن غالباً استعان بابن شنجة ملك الإفرنج على قتال صهره ، فزاد كرب أسماء ؛ فما كانت تحب أن يرتكب أبوها مثل تلك الخيانة الشائنة فى أخريات أيامه ، وهو الذى كانت أيامه كلها مجداً وفخاراً .

وطأطأت رأسها ، وتكدست أحزانها فى صدرها طبقات فوق طبقات ، كان أهون عليها أن يبلغها نبأ مصرعه ، من أن يصك أذنيها خبر استنجاده بأعداء البلاد ، فالموت على الأبطال دوار ، أما الخيانة فعار ما بعده عار .

واستمرت المعارك دائرة فى رأسها ، ولم تعد ترى وجهيها ، احتل فكرها أبغضهما إلى نفسها ، فها هو ذا أبوها يرفع سيفه ويهوى به ليطيح رأس زوجها ، فتثور عواطفها ، وتحس آلاماً مبرحة تحز روحها ، وتشعر بإحساسات المقت لأبيها تتحرك فى جوفها ، مالت بقلبها إلى زوجها بعد أن اقترف غالب جريمته .

وجاء البشير إلى الزاهرة يزف نبأ انتصار ابن أبى عامر على أعدائه ، وسقوط غالب مجدلا لجنبه ، ميتاً لا أثر لشىء من السلاح فى جسمه ، وبلغ الخبر مسامع أسماء ، فانتشرت سحائب من الكدر فى صدرها ، وطفرت الدموع من مقلتيها ، وعجبت لنفسها ، فما كانت تظن أن عينيها تجودان بدمعة على أبيها الذى شان اسمه يوم استعان بأعداء البلاد .

وسرعان ما انقشعت سحائب كدرها ، ولفّتها الغبطة لنجاة زوجها ، وراحت ترقب أوبته ، وقد غشيها قلق لذيذ ، كانت تحبه من كل قلبها ، وكانت فى قرارة نفسها على استعداد لأن تغفر له قتله أباها ، ولو لم يكن قد اقترف جنايته ، تلك الخيانة التى وفرت عليها ما كان منتظراً من تصارع إحساساتها لو أن أباهـــا قتل ولم يستعن بابن شنجة ، ذلك الصراع الذى كان سينتهى حتماً بانتصار مشاعرها الممالئة لزوجها حبيب الفؤاد :

وتأهبت الزاهرة للقاء المنصور ، فخرج الناس لتحية ابن أبى عامر ، الذى ما خرج إلى غزوة إلا عاد منها مظفراً ، وراحت أسماء تذرع القصر وقد نفد صبرها ، إنها تتمنى أن تغمض عينيها ثم تفتحها لتراه أمامها ، وترامى إلى مسامعها أصوات الجماهير المرحبة بمقدم زوجها ، فأخذ قلبها يخفق فى جوفها كجناح حمامة وهرعت إلى أقرب شرفة ، ومدت بصرها لتراه وقد أحست خدراً لذيذاً .

ودخل عليها وهتف فى صوت متهدج ، وقد بسط ذراعيه :

— أسماء .

فهرولت إليه ، وقد غلبها الوجد ، فارتمت فى أحضانه ، وراحت تمرغ وجهها فى صدره ، وتغمغم ودموع الفرح تجرى على خديها :

— حمداً لله على سلامتك يا حبيبى .

* * *

جلس المنصور يفكر ، فعاد به خياله إلى يوم كان يتنزه مع رفاقه فى حدائق قرطبة ، وقال لهم : « تمنوا على ، وليختر كل واحد منكم خطة أوليه إياها إذا أفضى إلى الأمر ، وتذكر ما تمناه كل منهم ، وها هو ذا قد ملك الأندلس ، ونفذ فيها حكمه فحق عليه أن يحقق لهم أمانيهم ، فبعث إلى ابن عسقلاجة وولاه قرطبة ، أما ذلك الذى سخر منه فلم ينس له سخريته ، وأمر أن يطاف به قرطبة كلها على حمار ، ووجهه إلى الذنب ، وهو مطلى بالعسل ليجتمع الذباب عليه والنحل .

٥٢

وارتقبت صبيحة مجيئه ، ولكنه لج فى الجفاء ، فقــد نزل بزاهرته ، ولم يفكر يوماً فى أن يتوجه إلى قصر الزهراء ، ليترضاها ويرضى غرورها ، فنكأ ذلك الإصرار على الإعراض عنها جرح حقدها ، فراح يدمى مقتاً وصديداً ، فعزمت على أن تكيد له ، وتناصبه العداء ، لتنتقم لكبريائها المهيض .

ونفخ فى جمرات غيظها أن المنصور أمر بالدعاء له على المنابر باسمه عقب الدعاء للخليفة ، وأخذ الوزراء بتقبيل يده ، كأنما لم يكفه أن يسلب هشاماً نفوذه ، بل شاء أن تجرى الأمور فى قصره ، كما تجرى فى قصر الخلافة .

ذهبت إلى ابنها تثير حماسته ، وتملأ نفسه ثورة على ذلك الطاغية الذى كبله بقيوده ، وتأمره أن يبعث فى طلبه ليحاسبه على فعاله ، ويشتد فى تقريعه ، ليحطم غروره ، ويفهمه أن الأمر ليس أمره ، بل أمر الخليفة .

ونجحت فى أن تنقل إلى ابنها بعض نار الثورة المتأججة فى صدرها ، وتجعله يقتنع أن من العار أن يستكين لذلك الهوان ، الذى يجرعه إياه ابن أبى عامر ، دون أن يهب ليذود عن مكانته ، ويعيد إلى قصر الزهراء هيبته ، التى كانت له أيام أبيه الحبيب وجده العظيم .

بعث هشام فى استدعاء المنصور ، وراحت أمه تلقنه ما يفعل وما يقول . كانت تبنى آمالا كباراً على تلك المقابلة ، كانت ترجو أن يفطن ابن أبى عامر إلى أن ما ناله من تحقير على يد الخليفة إن هو إلا من تدبيرها ، وأنها قادرة على أن تكيد له ، ولن يثبت لكيدها ، فيعيد التفكير فى تلك الجفوة البغيضة التى أقامها بينه وبينها .

وأقبل المنصور إلى قصر الزهراء ، تحف به أبهته وعظمته ، وانطلق إلى المجلس الشرقى ليقابل هشاماً ، وانتظرت صبيحة

بالقرب من قاعة الخليفة ، وهى تأمل أن يدخل عليها ابن أبى عامر قبل أن يدخل على ابنها . ومر ببابها ولم يلتفت إليها ، وسار إلى باب هشام ، فرفرف قلبها فى جوفها ، وثارت مشاعرها ، واختلط عليها الأمر ، فما درت أخفق قلبها حباً ، أم راح يدق فى صدرها يقذف ما به من الحقد والكراهية ؟ ودخل على هشام ، فألفاه على سريره ، وما إن وقعت عينا الخليفة عليه حتى شمخ بأنفه وترك له يده فلم يجد مفراً من أن يهوى عليها يقبلها ، وأخذ الخليفة يتشاغل عنه مدة بالعبث بسبحته ، ثم التفت إليه وجعل يحدثه فى فتور ، فأحس المنصور حرجاً ، ولكنه ما كان بقادر على أن يكشف عما يكابده من ضيق .

وجاهد هشام ليجمع أطراف شجاعته ، فقد كان يحس رهبة للمنصور ، ويخشى أن تتلاقى عيناه بعينيه . وما أن استجمع قواه حتى راح يحاسبه . ولاح له شبح أمه يشد من أزره ، ويحضه على الثورة على من سلبه سلطانه ، فاجترأ ، وأخذ يوجه له بعض اللوم على تصرفاته . فحنق المنصور وشعر بكبريائه يدمى ، وطفق يجرع تقريع الخليفة ، وفى صدره مرجل من الغضب يفور .

وغادر القصر ، وكل خلجة فيه ترتجف غضباً ، ووقع بصر صبيحة عليه وهو يندفع كالعاصفة المزمجرة فى ردهات القصر ، فشعرت بالراحة . أرضاها أن تراه مكروباً ، فيا طالما سبب لها الكروب ، وحسبت أن ظهور ابنها بمظهر الخليفة القوى سيحد

من غروره ، ويجعله يثوب إلى القصر ، يستظل بظل الحاكم الشرعي ، ويستمد منه النفوذ .

ودخلت على ابنها منشرحة الصدر . فألفته مبهور الأنفاس ، وقد بان في وجهه الإعياء ، فما كان من طبعه أن يثور ، وقد استنفد فى تمثيل ما لقنته أمه كثيراً من الجهود . إنه لا يدرى كيف ثار تلك الثورة على حاجبه المهيب ، ولكنه كان على يقين من أنه لن يستطيع أن يعود إلى مثلها ، فما إن غادره المنصور حتى انقبض قلبه ، وسرت فيه موجة من الرهبة جعلته يتخاذل ويتضاءل ، فيستسلم لضعفه ، لقد نجحت صبيحة فى أن توقظ نفسه الخاملة مرة ، وما كان لها أن تطمع فى أن تنجح فى استنهاض عزيمته الخوارة مرة أخرى ؛ فالمعجزات لا تتحقق مرات .

وراحت ترقب ما يأتى به ابن أبى عامر ، فى تشوق وقلق ؛ كانت تتمنى من كل قلبها أن يعود إليها ، ليعود إلى نفسها الهدوء ، وكانت تخشى أن يلج فى الهجران وأن يقيم على الصد ، فيستمر عذاب الفؤاد . كانت على يقين من أنه لا يحبها ؛ وعلى الرغم من ذلك كانت تشتهى أن يزورها ، ففى قربه هناءة القلب ، وراحة البال .

ولم يأت المنصور إلى الزهراء ، ولم ينل لوم الخليفة منه ؛ بل حطم مرجل غضبه ، فراح يشتت حاشية الخليفة ، ويضيق عليه فأحنقها ذلك التحدى المكشوف ؛ وزاد فى حنقها أن من ارتفع

بأجنحة فضلها ، واستظل بظل رعايتها ، تنكر لها ، ونسى أياديها وراح يذيقها كئوس الذل والهوان .

وعز عليها أن يهزمها ذلك الذى نشأ فى كنفها ، واقتبس منها السياسة ، وأخذ عنها الدهاء ؛ فصممت على منازلته ؛ وراحت تستغل كل قواها ، وجميع مواهبها ، لتكيد له ، وتجرعه من نفس الكأس المريرة التى جرعها إياها .

٥٣

مات المصحفى فى سجنه ، فبعث المنصور كاتبه لتسليم جسده إلى أهله ، فانطلق إلى الزهراء ، وهبط إلى المطبق ، فألفى حاجب الدولة وليس عليه شىء يواريه غير كساء خلق لبعض البوابين ستره به ، وتم تجهيزه ، وخرج أهله بنعشه ، فما تجاسر أحد على النظر إليه ، فقد كان طريد المنصور حياً وميتاً .

وسار كاتب ابن أبى عامر خلف النعش ، وأطرق مفكراً ، فكرٌ فى خياله راجعاً إلى أيام كان المصحفى نجم قرطبة الساطع ، فرآه فى موكب كثيف رائع ، وقد حف به الخلق ، وأخذ الناس السكك عليه ، وتكدسوا فى أفواه الطرق ينظرون إليه ، ورأى نفسه يشق تلك الجموع المتراصة الهائلة ليصل إليه ، فقد كان يروم أن يناوله قصته ، ولكنه لم يستطع أن يبلغه ، فقد تفصد منه العرق ، وانقطعت أنفاسه ، وكاد يضيع فى ذلك البحر الزاخر

بالأجساد ، وأخيراً ناول قصته بعض كتابه الذين نصبهم فى جناحى موكبه ، لأخذ القصص ، وكاد ينهار من الجهد والإعياء .

ورفع رأسه ، فرأى الجنازة الهزيلة ، فما كان يودع المصحفى الوداع الأخير إلا خاصة أهله ، وتلفت حوله ، فما وقعت عيناه على أحد ، أقفرت الطرق من الناس ، فأحس رهبة ممزوجة باستياء ، ثم لوى شفته السفلى فى زراية واستخفاف .

وقبر المصحفى ، وهمس الناس بأن المنصور دس له السم فى طعامه ، فلم يحفل بما يقولون ، إنه تخلص من صهره ، واستراح من المصحفى ولم يبق أمامه إلا الأمير جعفر بن على الذى استقدمه من مراكش ليعاونه على إسقاط غالب ، وها هو ذا غالب قد قضى ، فلن يجنى منه بعد ذلك إلا المتاعب والاضطرابات .

وطفق يدبر طريقة يتخلص بها من ذلك الأمير ، الذى له فى نفوس البربر مكانة عظيمة ، دون أن يثير حفيظة الجند الذين يحبونه ، فأمعن فى التفكير ، وفى ليلة نامت فيها الزاهرة ، حضر إلى بابه رجل من رجالات الأندلس ، واستأذن عليه ، فأذن له .

دخل الرجل عليه ، وما إن أصغى المنصور إليه حتى راح يقول :

— إن البربر يختلفون إلى جعفر بن على بقصر العقاب ، ليحدثوا حدثاً ، فخذ حذرك .

لم يضطرب المنصور ، ولم يبد فى وجهه الغضب ، فذلك الحديث يرضيه ، ففيه تبرير لإخراج ما يجول بخاطره إلى الوجود

فالأمير جعفر بن على يبيت له فى الظلام ، ويتآمر عليه ، ولكن لن يرى تدبيره النور ، فقد وطن العزم على قطف رأسه بنفس البساطة التى يقطف بها الورود . إن سوء طالعه ساقه فى طريقه ، ليستغله ثم يرديه .

ودعاه المنصور إلى حفل باهر أقامه له فى قصر العامرية ، فازدان القصر ، وأخذ الغلمان يغدون ويروحون ، ينسقون مجلس الشراب ، وجلست الجوارى والمغنيات باهرات الحسن ، آسرات الطرف .

وأقبل الأمير جعفر ، فخف إليه المنصور ، واستقبله متطلق الوجه ، وذهبا إلى مجلس الشراب ، يحف بهما الأنصار والأتباع وارتفعت أصوات المغنيات العذبة تعبث بالقلوب ، وجاء الساقى يدور بالكئوس ، فتوجه بكأسه إلى المنصور ، فقال له :

— أسقها أعز الناس على .

فوقف الساقى يدير عينيه فى الموجودين ، وهو حيران ، كان المجلس يضم أشهر رجالات الأندلس ، وما كان يدرى إلى من يتوجه ، فصاح فيه المنصور :

— ناولها الأمير جعفراً عليك لعنة الله .

فانبسطت أسارير الأمير ، وقام إلى الساقى يتناول كأسه منشرحاً ، وأديرت الكئوس ، وثقل الشراب ، وأخذ الأمير يعب الخمر عباً ، فانتشى وهزه الطرب ، فقام يرقص على الأنغام .

وانقضت السهرة حلوة بهيجة ، ولكن الليلة الرهيبة

لم تنقض بعد ، خرج الأمير جعفر بن على فى فحمة الليل إلى طرقات الزاهرة ، يترنح ثملا ، وراح يخترق ذلك الظلام اللجى فى صحبة بعض غلمانه . وما إن ابتعد عن قصر العامرية حتى انقض عليه رجال يعملون سيوفهم فيه ، فسقط يخبط فى دمه ، وما هى إلا لحظات حتى حز رأسه وحمل إلى المنصور .

وأطرق المنصور مظهراً الحزن عليه ، وإن كان قلبه يرفرف فرحاً ، فقد قضى على منافسيه جميعاً ، ولم يبق أمامه إلا صبيحة ، تلك المرأة القوية ، التى هبت لتذود عن عرش ابنها ، وتنتقم لكبريائها المجروح ، وحبها الفاشل ، الذى نغص عليها الحياة .

٥٤

أصبح المنصور أمام صبيحة وجهاً لوجه ، وأيقن أنه سيقاسى كثيراً من كيدها ، فهو أكثر الناس معرفة بها ، فما كانت لتقبل فى يسر أن تنام على الضيم ، وكان يعرف دهاءها ، فراح يرقبها فى حذر ، لينقض غزلها قبل أن يتم .

ورأت صبيحة أنها لن تستطيع الاعتماد على ابنها فى إذلال المنصور ، فهو يهابه ويتضاءل أمامه ، وتنمحى شخصيته أمام شخصية حاجبه القوية ، وعرفت أنها لن تقدر على زعزعة أركانه فى بساطة بعد تلك الانتصارات المتلاحقة المدوية ، التى مكنت له فى قلوب الناس ، فعزمت على أن تستغل عطف الشعب على خليفتهم الواقع فى أسر حاكم ظالم متجبر ، وكانت تعلم ما للخلافة

من تقديس فى النفوس ، فبعثت إلى أعوانها وأمرتهم أن يندسوا بين الجماهير ، ليذيعوا أن الخليفة هشاماً ابن خليفتهم الحكم الكريم وحفيد الناصر العظيم ، مغلول اليدين ، لا يستطيع أن يباشر سلطته الشرعية ، وأن حاجبه الطاغية يطمع إلى مقام الخلافة ، ويحول بينه وبين إقامة العدل وإنصاف الناس .

وانتشر أعوان صبيحة فى أنحاء الأندلس ، وراحوا يهمسون بأن الخليفة السجين فى قصره يعتمد على ولاء الشعب له ، لتخليصه من أسره ، ورد السلطة إليه ، ليعمل على إسعاد الجميع ، فأصغى الناس إلى ذلك الهمس ، وقد مالت قلوبهم إلى الخليفة المظلوم .

نجحت صبيحة فى أن تنشر دعوتها للخليفة المهيض الجناح بين الجماهير ، ولكن ذلك النجاح لم يخدعها عن حقيقة ما وصلت إليه ، فلن يكفيها تأييد الشعب ما لم تظاهرها قوة حربية وجيوش فراحت تعجم عيدان رجالات الدولة ، فوجدت أن زيرى ابن عطية زعيم زناتة بالمغرب أعزهم نفراً ، وأكثرهم مقتاً للمنصور . كان يكره طغيانه ، وينفس عليه تفرده بالسلطان ، فرأت أن تبعث إليه رسلها يوغرون صدره على حاجب الدولة الجبار ، ويستنهضونه ليهب للذود عن خليفته السجين .

واجتاز رسلها جبل طارق إلى إفريقية ، ونجحوا فى أن يحركوا غضب زيرى على المنصور ، فعاهدهم على رفع راية عصيانه ، وطلب منهم المال الذى يعاونه على جمع الرجال .

علمت صبيحة بحاجة حليفها الجديد ، فراحت تفكر فى

وسيلة تخرج بها الأموال من القصر ، فصاحب المدينة لن يسمح بتسرب الأموال إلى المغرب لمناهضة المنصور : فتفتق ذهنها الخصب عن حيلة اطمأنت إليها ، فجاءت بمائة كوز وضعت بها ثمانين ألف قطعة من الذهب ، ختمتها بالشهد والمربى ، ثم حملتها لخادم صقلبي ، وأمرته أن ينطلق بها إلى المغرب الأقصى ، وأن يسلمها إلى زيرى أمير زناتة .

خرج الخادم من القصر تحت سمع جواسيس المنصور وأبصارهم ، ومر بصاحب المدينة ، فلم يرتب فيما يحمل معه ، وغادر قرطبة ، وراح يغذ السير إلى جبل طارق ، ليعبر إلى مراكش .

وهمس من فى القصر بقصة تلك الأموال المحمولة إلى إفريقية بعد أن اطمأنوا إلى مغادرة ذلك الخادم الصقلبي حدود الأندلس ، وبلغت تلك القصة مسامع جواسيس المنصور ، فطاروا بها إليه ، فأهمه الأمر وأقلقه ، فقد كان يدرى ما ينتظره من متاعب إذا تآزرت جيوش زيرى ودهاء صبيحة .

وفطن أن وجود خزائن المال بقصر الزهراء فى يد صبيحة تغترف منها كيف تشاء ، وتنفقها فى تأليب الناس عليه ، خطر يتهدده ، وسيف مرهف مسلط عليه ، فعزم على أن يبذل كل ما فى طاقته لإخراج ذلك المال من قصر الزهراء ، فبعث إلى الوزراء والحكام ، فلما التأم عقدهم خرج عليهم وقال :

ـ بلغنى أن أموال المسلمين تصرف فى غير وجهها ، وأنها تنفق فى إثارة القلاقل والفتن ، وأن الخليفة مشغول بعباداته عن

السهر على ما فى قصره من أموال ، وإنى أرى أن تنقل إلى مكان أمين ، وأترك لكم اختيار المكان .

وما ترك لهم اختياراً ، فهم جميعاً يعلمون ما يرمى إليه ، وكانوا يسارعون إلى إرضائه فقالوا :

— وهل هناك آمن من الزاهرة ، انقلها إليك ، فأنت على حفظها أقدر .

نال المنصور موافقة الوزراء على نقل خزائن المال من قصر الزهراء إلى مدينته ، فسره ذلك ، ولكن ما أصعب التنفيذ ، فما كان يسيراً أن ينتزع المال من فم الأسد ، فرأى أن يتريث قليلا .

وأزعجه تدبير صبيحة وأضناه ، وجعله يسترسل فى التفكير والتدبير ، فسقط مريضاً ، وبلغه أن زيرى قطع اسمه من الخطبة ، وترك الدعاء له ، فزاد كربه ، ورأت صبيحة أن مرضه يتيح لها القيام بثورتها ، فبعثت أعوانها إلى قرطبة يدعون الشعب إلى نجدة خليفتهم .

وثار الناس ، وأعلنوا سخطهم ، وكادت صبيحة تجنى ثمار ما دبرت ، ولكن ثورتها ماتت فى مهدها ، فما كان بين أنصارها الشخصية القوية التى تعرف كيف تستفيد من هذه القوة الساخطة ، وكيف توجهها .

ولم يستطع المنصور أن يصبر على ما جرى ، فقد أطلت الفتنة بعينيها ، ولو تريث بعد ذلك لأطاحت به تلك العاصفة الهوجاء ، التى تهب عليه من القصر قوية مزعجة .

بعث إلى ابنه عبد الملك ، وكان شاباً ورث عن أبيه الشخصية القوية ، فلما دخل عليه قال له :

- خذ ألفى فارس من غلماننا ، وانطلق إلى قصر الزهراء ، واحمل إلينا ما به من أموال .

خرج عبد الملك فى جيشه ، وذهب إلى قرطبة ، ودخل قصر الخلافة ، واستدعى من كان فيه من الوزراء ، وقال لهم :

- إن قوماً ممن يتصل بأسباب الخليفة يؤثر الفتنة ، ويكره الدعة ، وقد جئنا نحمل ما فى القصر من أموال ، حتى نأمن عدم صرفها فى غير وجهها .

فقال من حضر من الوزراء :

- هذا هو الرأى ، وقد سبق أن وافقنا على ذلك .

فقال عبد الملك لمن عنده :

- أرى أن ندخل على الخليفة نحدثه عن تلك الأمور الخطيرة التى تحدث دون علمه ، والتى لن يتولد عنها غير الكروب والشقاق .

فهتفت أصوات :

- فلندخل على الخليفة نشافهه بهذه الأمور .

ودخل عبد الملك ووزراء أبيه على هشام ، فقال عبد الملك للخليفة :

- الدسائس تدبر يا مولاى فى القصر ، لتأليب الشعب على المنصور ، وأموال المسلمين تصرف فى تأليف قلوب الثائرين ، ولن يعود على البلاد من ذلك إلا الخسران .

فقال الخليفة فى تخاذل :

ـ والله ما لى علم عما تقول .

ـ صدقت يا مولاى ؛ ولكن المؤامرات تحاك هنا فى القصر ، وتطلع الفتن منه بوجهها البغيض .

ـ إنى أقدر ما أداه لنا المنصور من خدمات جليلة ، وأبرأ من أعدائه وحاسديه .

ـ أشكر لكم يا مولاى بلسان أبى جميل رعايتكم لنا ، وفضلكم العظيم الذى غمرنا ، وأقول إن الوزراء والفقهاء قد رأوا فى وجود خزائن المال هنا خطراً على الدولة ، فأشاروا بنقلها إلى مكان آخر ، وقد جئت لأنفذ رغبتهم ، وألتمس من مولانا أن يأذن لى فى نقل ما فى القصر من أموال المسلمين .

ووافق الخليفة على ما ارتآه وزراؤه ، فأخذ عبد الملك فى نقل الأموال ، وانقضت أيام ثلاثة ، وهو يحمل الذهب من قصر الخلافة إلى العامرية ، ولم يبق بالزهراء إلا مال الخاصة ، فأراد أن يحمله ، فهب من فى القصر يذبون عنه ، وكاد غلمان المنصور أن يصلوا إليه ، ولكن أقبلت صبيحة ثائرة ، وقامت تحول بينهم وبين المال .

وقف الغلمان مشدوهين ، وما تقدم أحدهم ، كأنما سمروا إلى الأرض ، فقد كانت تصوب إليهم نظرات حادة تخلع القلوب وتنزل الرهبة بالنفوس ، وتقدم إليها عبد الملك وما إن وقعت عيناها عليه ، حتى امتقعت ، واندلع لهيب الغضب فى جوفها ،

كان يشبه أباه، وثارت ثائرتها، ورنت إليه فى زراية ، وقالت له فى انفعال :

— من ؟ ابن من لا أمان له .

فأطرق عبد الملك ولم ينبس بكلمة ، وإن رفت على شفتيه ابتسامة تقطر سماً . فزادت ثورتها ، وقالت فى نبرات شحنت مقتاً :

—وهل تلد الحية إلا حية .

وظل عبد الملك صامتاً ، واندفعت صبيحة تقول فى حدة :

—أما كفاكم ما اغتصبتموه حتى جئتم تسرقوننا ، اخرج يا بن الثعلب ، فوالله لن أسمح أن تصلوا إلى أموالنا أبدا . . اخرج .

وانسحب عبد الملك مطأطىء الرأس ، بعد أن حمل آلاف الآلاف من الدنانير ، وصبيحة ترقب انسحابه ، وقد تدثرت بالحنق الشديد ، فقد قضى ابن أبى عامر على تدبيرها ، وقوض آخر أمل من آمالها ، فدب اليأس فى قلبها . كانت ترجو أن تنفق الأموال فى تحطيمه ، وها هى ذى الأموال تحمل أمام عينيها من الزهراء إلى زاهرته ، دون أن تستطيع أن تحول بينه وبينها ، لقد سلبها ابن أبى عامر أمضى سيف كان فى مقدورها أن تشهره فى وجهه ، فحق عليها أن تنزوى بعيداً فى بيت الأحزان ، تبكى إخفاقها وشخصها الذى هان .

٥٥

أبل المنصور من مرضه ، وقد أهمته تلك القلاقل التى شبت فى قرطبة ، وألفى أن مجافاته للقصر كادت توردە موارد الهلاك ، فقد نجحت صبيحة فى إيغار صدور الشعب عليه ، ولم تشفع له انتصاراته ولا ما قام به من إصلاحات ، وتمكنت من إغراء زيرى على إعلان عصيانه ، فهى خصم قوى أثار عليه عاصفة عاتية ، كادت تجتاحه ، وتقوض أركانه ، لولا أن حالفه حظه فمرت بسلام .

وطأطأ بصره يفكر فيما ينتهجه ليأمن خطر المرأة المحبة ، التى ناصبته العداء ، فرأى أن يستغل قوة تأثيره فى الخليفة ، وأن يعمل ما وسعه المكر والدهاء على أن ينتزع من الخليفة الضعيف تنازلا له عن كل سيطرة وسلطان ؛ فاستدعى ابنه وسائر عظماء الدولة ، وانطلق إلى مجلس الخليفة دون أن يذيع نبأ خروجه إلى قصر الزهراء ، خشية أن تدخل صبيحة على ابنها تحذره وتبصره ، وتنفخ فيه من روحها القوية ، فتستنهض نفسه الخابية فيتعذر على المنصور أن ينفذ ما يراوده من أفكار .

ودخل المنصور وابنه ورجال الدولة على الخليفة ، فأحس حرجاً ، فقد كان يذوب فى غمرة الاجتماعات ، وما كان يشعر بالراحة والاطمئنان إلا إذا خلا بنفسه ، واستغرق فى عبادته ، وكان يحس تضاؤلا كلما وقع بصره على المنصور المهيب ،

وهو يدير الحديث فى طلاقة وسحر وبيان . كان يتطلع إليه كطفل صغير لا حول له ولا سلطان .

وخلا هشام مع ابن أبى عامر ، فراح الحاجب الرهيب يلف الخليفة ويطويه كيف يشاء ويشكله . وقال له فى عتاب :

- ساءنى يا مولاى أن تدبر المؤامرات لمناوأتى أنا الذى فعلت كل شىء فى سبيل توطيد ملككم ، والقضاء على مناوئيكم .

فقال الخليفة ينفى عن نفسه تهمة الاشتراك فى تلك المؤمرات :

- والله ما علمت بشىء ، ولا أمرت بشىء ، وأنا أقدر إخلاصكم لنا ، وما أديته للعرش من خدمات .

- أرجف الشانئون بأنى أغتصب من مولانا سلطانه ، وحاشا لله أن يخطر على قلبى من ذلك شىء ، ولكنى أقوم بما أقوم به لأهيىء لمولانا فرصة التفرغ لعباداته .

- إن ثقتى بك يا منصور عظيمة ، لا يزعزعها شىء ، وقد فوضت لك الأمر لما رأيت حسن غنائك فى حفظ دولتنا .

- يزيدنى إسعاداً يا مولاى تنازلكم بتسطير ذلك التفويض ، قطعاً لألسنة المتخرصين ، الذين يحسبون أنهم بسعيهم الخسيس يستطيعون أن يعكروا ما بينى وبين مولانا من صفاء .

وغادر المنصور قصر الزهراء ، وقد نال مبتغاه ، وانطلق إلى قصره ليبعث إلى الأمصار اعتراف الخليفة بفضله ، وتفويضه إياه فى إدارة شئون البلاد .

وعلمت صبيحة بأمر ذلك التفويض ، فسقط فى يدها ،

وانتابها قلق شديد ، ودارت الدنيا بها ، وأحست هماً ثقيلا ، فقد قضى الأمر ، وتم لابن أبى عامر انتصاره ، لن تقدر بعد اليوم أن تغرى الشعب بأن يهب لينافح عن خليفة اعترف بعجزه ، ووقع بنفسه صك عبوديته .

ولم يكتف ابن أبى عامر بما ناله من نجاح ، بل أراد أن يشعر الشعب بأن خليفته عنه راض ، فأعد للخليفة موكباً هائلا ، لم تشهد قرطبة له مثيلا ، وهرع الناس إلى الطرقات ، ليشاهدوا خليفتهم الذى طال احتجابه عنهم ، والذى لم يره كثير منهم ، وغصت المسالك بأكداس البشر ، وفتحت أبواب قصر الزهراء فانسابت الجند مواكب إثر مواكب ، فى ثياب رائعة ، وعدة حسنة ، تراس ملونة ، وحراب مرفوعة ، وسيوف مشهورة ، والناس يرقبون كل ذلك زائغى الأبصار ، فاغرى الأفواه ، فقد كانت الروعة تأخذ بالألباب وتحير العقول .

ولاح عبد الله بن المنصور ، حاجب الدولة الجديد راجلا يمشى ، وخلفه الخليفة هشام على فرس مطهم فى لبوس فاخر ، وإلى جانبه الملك الكريم ، المنصور العظيم ، يسايره ويحادثه ، منبسط الأسارير ، فاشرأبت الأعناق ، ورفرفت القلوب فى الصدور ، وفاض السرور ، فانطلقت الهتافات من الحناجر ، مدوية تشق عنان السماء .

واستقام الأمر للمنصور ، ولكنه لم ينس أن زيرى بن عطية أعلن يوماً راية العصيان ، وتأهب لنزاله ، فرأى أن الأوان قد حان

ليبعث إليه جيوشاً تنكل به ، وتجعله عبرة لكل من توسوس له نفسه الخروج عليه .

خرجت الجيوش لتأديب زيرى الذى لن يستطيع أن يعتمد على تأييد صبيحة له ، وخرج بنفسه لقتال الإفرنج : فقد كان يخرج للغزو شاتياً وصائفاً ، إنه قد تأهب ليخوض غمار أعظم معركة فى حياته ، ليقنع خصومه أنه لا يزال قوياً يستطيع أن يقاتل وينتصر فى جهتين فى وقت واحد .

وعادت جيوشه من إفريقية بعد أن انتصرت على زيرى وقتلته ، وعاد من غزوته العظيمة منصوراً ، والأسرى وراءه يجرون ذيول الخزى ، ودخلت الجيوش المظفرة زاهرته السعيدة ، التى استعارت سعدها من سعده ، فما خرج منها زحف إلا عاد إليها وألوية النصر شامخة خفاقة .

٥٦

وكرت الأعوام ، وفى يوم من أيام الشتاء سطعت شمسه ، وأرسلت حرارتها إلى الكون المقرور ، هبطت صبيحة إلى حدائق القصر تلتمس الدفء اللذيذ ، وسارت إلى مقعد الذكريات الذى قابلت الحكم عنده أول مرة من سنين طوال ، حتى إذا بلغته جلست مسترخية فى هدوء .

وأسبلت عينيها ، وألقت رأسها الذى كلله الشيب فى استسلام على صدرها ، وسرى الدفء فى جسمها ، فراحت صور الماضى

تزحف إلى ذهنها دون أن تنفعل لها انفعالات قوية تهزها ، فقد أطفأت السنون حرارة نفسها ، واستنفدت طاقتها ، وباتت تحس نشوة خفيفة كلما أعادت ذكرياتها .

رأت نفسها فى شبابها ، وهى تملأ الزهراء بهجة ، وصوتها العذب ينساب حلواً ، فيضفى على الكون سحراً ، والحكم الولهان يرنو إليها هيمان كأنما سكبت فى روحه خمراً ، وداعب أذنيها همس صوتها خافتاً ، كأنما ينبعث من أغوار الزمن ، وغاصت تلك الصورة لتطفو على سطح ذهنها صورة أخرى ، صورة ابن أبى عامر الذى أحبته وهو يحرص كل الحرص على إرضائها ، وسرعان ما طمست لتقفز إلى رأسها صورته وهو خارج لقتل المغيرة مستجيباً لنظراتها .

واسترسلت فى تخيلاتها ، حتى رأت حبيبها وهو يغادر قصرها بعد زواجه من أسماء ، فلم تتحرك عقارب غيرتها ، ولم ينبض قلبها بالمقت ، فالسنون قد اقتلعت جذور الغيرة من صدرها ، ونخرت نخور الحقد من نفسها ، فما عادت تشعر إلا بالحب ، وما باتت تبغى إلا السلام .

وفكرت فى ابن أبى عامر بنفس طليقة ، واستعرضت فعاله وهى هادئة دون أن تكون متأثرة بفورات المطامع ، ومشاعر الشباب ، فاقتنعت بأنه أسدى إلى ابنها وإلى البلاد أجل الخدمات ، كان العرش مزعزعاً يحيط به طامعون أقوياء ، ويتهدده الأعداء ، فقام ابن أبى عامر يقضى على الطامعين فى الملك ، واحداً إثر واحد

حتى استخلصه لهشام ، ثم هب ينازع الإفرنج ، ويذود عن الحياض ، حتى أعاد الهيبة إلى البلاد .

إذا كان قد اغتصب السلطة من هشام فقد كان له العذر : فما كان هشام يحسن استغلال تلك السلطة لو وضعت بين يديه : إن ابنها خائر النفس ، ضعيف الهمة ، لا يعرف الصمود للشدائد ومواجهة الصعاب ، فيا للطامة الكبرى التى كانت تحل بالبلاد لو خلى بينه وبين الأعداء ! .

وفكرت فى أن ابن أبى عامر إن هو إلا نبتة غرستها بيدها ، وتعهدتها ورعتها ، حتى نمت وأفاءت بظلها على البلاد ، إنه فعلة من فعالها الجليلة ، وحسنة من حسناتها ، التى ستذكرها لها الأندلس بالحمد ، فاستراحت إلى تلك الفكرة ؛ وطفقت تفكر فيها راضية منشرحة .

ودب الدفء فى جسمها ، فقامت تفحص عن حال المدارس والملاجىء والمستشفيات التى كانت تشرف عليها ، فما كانت صبيحة النابضة بالحيوية تستسلم للدعة والخمول ، إنها هجرت دنيا السياسة ، فراحت تعمل فى دنيا البر والإحسان .

٥٧

حمل المنصور أكفانه التى كان يحملها معه كلما خرج للجهاد ، والصرة الكبيرة التى جمعها الخدم مما علق بوجهه من الغبار فى غزواته المظفرة ، التى نيفت على الخمسين . ورفع رأسه إلى السماء ، وأخذ يدعو دعاءه الذى كان يبتهل به إلى الله قبل خروجه لغزو الأعداء :

— اللهم أمتنى فى سبيلك ، واحشرنى فى زمرة الشهداء .

وانطلق إلى ميدان القتال يدك الحصون ، ويزلزل الأعداء . وأحس مرضاً يدب فى جسمه ، فصبر وتجلد واحتمل ، كانت المعركة حامية الأوار ، ولكن ما انتهت المعركة بنصره ، حتى شعر بوهنه ، وأصبح لا يستطيع أن يعتلى صهوة جواده ، فصنع له سرير خشب رقد فيه ، وحمل على أعناق الرجال .

وقفل الجيش عائداً يبغى الوصول إلى قرطبة ، ولكن اشتدت وطأة المرض على المنصور قبل أن يبلغها ، فأنزلوه مدينة سالم ، وفكر فى أمر قرطبة ، فأهمه أمرها ، فبعث إلى ابنه عبد الملك يستدعيه ويوصيه بها . وأقبل عبد الملك ، فلما رأى أباه طريح الفراش ، هرع إليه ، وارتمى على صدره وأخذ يبكى ، فجعل المنصور يمرر يده على شعر ابنه ، ويقول فى نبرات ضعيفة :

— هذا أول الإخفاق .

فأخذ عبد الملك يجاهد ليحبس تلك الدموع التى خانته ، وقال أبوه يوصيه بصوته الواهن :

— يا بنى لست تجد أنصح لك ، ولا أشفق عليك منى . فلا تتعدين وصيتى ، فقد جردت لك رأيى ورويتى ، على حين اجتماع من ذهنى ، فاجعلها مثالا بين يديك ، وقد وطأت لك مهاد الدولة ، وعدلت لك طبقات أوليائها ، وعايرت لك بين دخل المملكة وخرجها ، واستكثرت لك من أطعمتها وعددها ، وخلفت لك جباية تزيد على ما ينوبك لجيشك ونفقتك فلا تطلق يـــدك فى الانفاق . ولا تقض لظلمة العمـــال ، فيختل أمـــرك سريعاً . فكل سرف راجع إلى اختلال لا محالة ، فاقتصد فى أمر جهدك ، واستثبت فيما يرفع أهل السعاية إليك ، والرعية قد استقصيت لك تقويمها ، وأعظم مناها أن تأمن البادرة ، وتسكن إلى لين الجنبة ، وصاحب القصر ، قد علمت مذهبه ، وأنه لا يأتيك من قبله شىء تكرهه ، والآفة ممن يتولاه ، ويلتمس الوثوب باسمه ، فلا تنم عن هذه الطائفة جملة ، ولا ترفع عنها سوء الظن ، وعاجل بها من خفته أقل تهمة ، مع قيامك بحق صاحب القصر على أتم وجه ، فليس لك ولا لأوليائك بشىء يقيكم الحنث فى يمين بيعته ، إلا ما تقيمه لوليها من هذه النفقة ، فأما الانفراد بالتدبير دونه ، مع ما بلوته من جهله وعجزه عنه ، فإننى أرجو أنى وإياك منه فى سعة ما تمسكنا بالكتاب والسنة ، والمـــال المخزون عند والدتك هو ذخيرة مملكتك ، وعدة لحاجة

تنزل بك ، فأقمه مقام الجارحة من جوارحك ، التى لا تبذلها إلا عند الشدة ، تخاف منها على سائر جسدك .

وطلب ثقات غلمانه ، فلما دخلوا عليه قال لهم :

— تنبهوا لأمركم ، واحفظوا نعمة الله عليكم ، فى طاعة عبد الملك أخيكم ومولاكم ، ولا تغرنكم بوارق بنى أمية ، ومواعيد من يطلب منكم شتاتكم ، وقدروا ما فى قلوبهم وقلوب شيعتهم بقرطبة من الحقد عليكم ، فليس يرأسكم بعدى أشفق عليكم من ولدى ؛ وملاك أمركم أن تنسوا الأحقاد ، وأن تكونوا كرجل واحد ، فإنه لا يطمع فيكم .

وخرج عبد الملك إلى قرطبة ، والناس بها يرجفون بموت المنصور ، وتوجه إلى قصر الخلافة ، ودخل على هشام ، وأخبره أن المنصور فى مدينة سالم فريسة لمرض عضال ، وعلمت صبيحة أنه فى مرضه الأخير ، فأطرقت وشغلت بالتفكير فيه ، نسيت إساءاته وتلك الكئوس المريرة التى جرعها إياها ، ولم تعد تذكر إلا أنه الحبيب ، ونكىء جرح قلبها ، فهفت نفسها إلى أن تراه قبل أن يمضى ، فقد أخفقت السنون فى أن تمحو من قلبها حبه ، وغلبها وجدها ، فذهبت إلى مدينة سالم لتودع من أحبته ، بكل جوارحها ، الوداع الأخير .

ودخلت عليه ، وقد انداح فى صدرها الأسى العميق ، كان ساكناً قد علاه الهزال ، وعيناه مسبلتين ، ونفسه مكروباً ، ودنت منه فأخذ قلبها يرفرف فى جوفها فى قوة ، كأنما استيقظ

من سباته ، ومالت عليه ، فلم يشعر بها ؛ فأحست غصة فى حلقها وهتفت فى نبرات مرتجفة :

— محمد . . . محمد .

وفتح عينيه ولكن سرعان ما أسبل جفنيه ، ورآها إلى جواره فهمهم فى صوت لا يكاد يبين :

— صبح !

وأدامت النظر إليه ، فألفته يجود بأنفاسه ، فعما قليل يلفظ نفساً لن يشهق غيره ، ولم تطق رؤية الحبيب يموت ، فخرجت تفر من ذلك الحزن الثقيل ، الذى كان يهصر قلبها ، ويحرق كبدها .

وابتعدت وهى تغمغم فى لوعة :

— ويل للأندلس من بعدك يا منصور !

للمؤلف

		الطبعة الأولى
أحمس بطل الاستقلال	قصة	مايو سنة ١٩٤٣
أبو ذر الغفارى		يوليو سنة ١٩٤٣
بلال مؤذن الرسول		مايو سنة ١٩٤٤
فى الوظيفة	مجموعة أقاصيص	ديسمبر سنة ١٩٤٤
سعد بن أبى وقاص		يوليو سنة ١٩٤٥
همزات الشياطين	مجموعة أقاصيص	فبراير سنة ١٩٤٦
أبناء أبى بكر الصديق		أكتوبر سنة ١٩٤٦
الرسول (حياة محمد ترجمة محمد محمد فرج)		يناير سنة ١٩٤٧
فى قافلة الزمان	رواية	سنة ١٩٤٧
أهل بيت النبى		مايو سنة ١٩٤٨
أميرة قرطبة	قصة	سنة ١٩٤٩
النقاب الأزرق	قصة	مايو سنة ١٩٥٠
المسيح عيسى بن مريم		سنة ١٩٥١
قصص من الكتب المقدسة		سنة ١٩٥٢
الشارع الجديد	رواية	سنة ١٩٥٢
صدى السنين	مجموعة أقاصيص	سنة ١٩٥٣
حياة الحسين		سنة ١٩٥٤

قلعة الأبطال	قصــــة	سنة ١٩٥٤
المستنقع	قصــــة	ديسمبر سنة ١٩٥٧
أم العروسة		يناير سنة ١٩٥٨
وكان مساء	قصــــة	مارس سنة ١٩٥٨
أذرع وسيقان		يوليو سنة ١٩٥٨
أرملة من فلسطين	مجموعة أقاصيص	سنة ١٩٥٩
الحصاد	روايــــة	سبتمبر سنة ١٩٥٩
القصة من خلال تجاربى الذاتية		سنة ١٩٦١
جسر الشيطان	قصــــة	أكتوبر سنة ١٩٦٢
ليلة عاصفة	مجموعة أقاصيص	ديسمبر سنة ١٩٦٣
النصف الآخر	قصــــة	يناير سنة ١٩٦٤
السهول البيض	قصــــة	يونية سنة ١٩٦٥
وعد الله وإسرائيل		يونية سنة ١٩٦٧
عمر بن عبد العزيز	قصــــة	يناير سنة ١٩٧٢
الحفيــــد	قصــــة	أكتوبر سنة ١٩٧٤
هذه حياتى	(قصة حياة المؤلف)	فبراير سنة ١٩٧٥
ذكريات سينمائية		أبريل سنة ١٩٧٥

أعمال كتبها المؤلف ونشرت بعد وفاته :

كشك الموسيقى
خفقات قلب
صور وذكريات
الإسراء والمعراج
عدو البشر
أبطال الجزيرة الخضراء
النمــر
عشيقة الحى
ثلاثة رجال فى حياتها
الله أكبر
مسجد الرسول

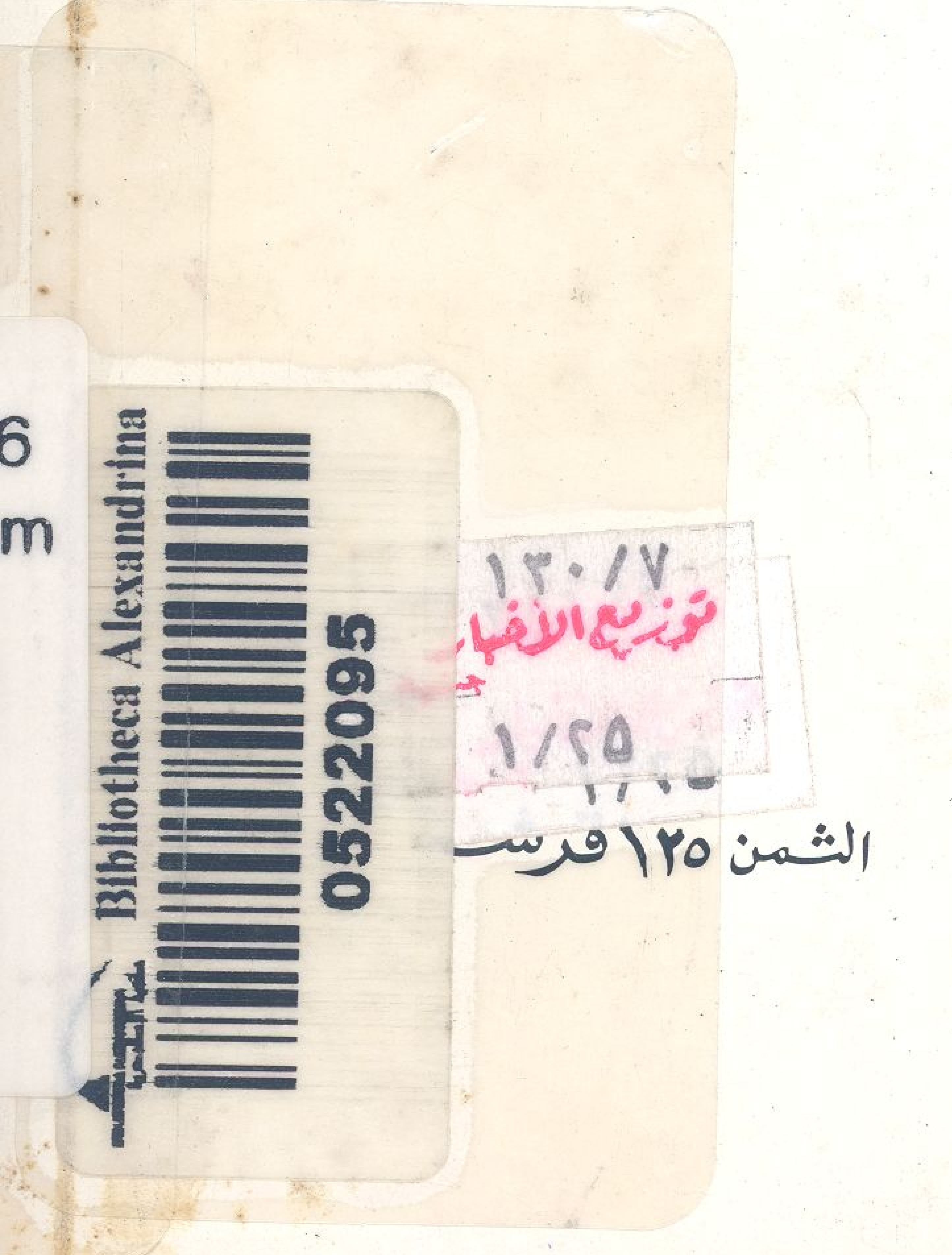
القصص الديني
(للأطـفال)

قصص الأنبياء	فى ١٨ جزءاً
قصص السيرة	فى ٢٠ »
قصص الخلفاء الراشدين	فى ٢٠ »
قصص العرب فى أوربا	فى ٢٤ »

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

رقم الإيداع ٢٠٠٦
الترقيم الدولى ٨ ــ ٣٤٥ ــ ٣١٦ ــ ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة



الثمن ١٢٥ قرشا

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه